

رينيه الحايك

رسالة من كندا

روايــة

رينيه الحايك

رسالة من كندا

رواية

رسالة من كندا

الكتاب: رسالة من كندا/ رواية
المؤلف: رينيه الحايك
عدد الصفحات: 280 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-28-3

الطبعة الأولى: 2012

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة - 44 شارع الفلكي - الدور الرابع - شقة 10 - وسط البلد
هاتف: 0020223924139 - 00201003418118

تونس: هاتف: 0021274407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى مروى وربيع

- 1 -

كان انطوان متكئًا إلى المقود فيما المسّاحات تروح يميناً وشمالاً تطارد مطراً توقّف عن الهطول منذ ساعات.

زوجته كارلا لم تتصل بالمستشفى. اعتادت على دواماته الطويلة. أحياناً كثيرة كان يغيب لثلاثة أيام متواصلة. يعود إلى البيت ليستحمّ طويلاً وينام دون أن ينطق بكلمة. لا يردّ على احتجاجاتها. تقول إن هذه ليست حياة. كأنها تعيش وحدها أو كأنها أرملة. يرسم ظلّ ابتسامة محاولاً استبعاد كلّ تلك الصور والصرخات. لا يذكر متى كانت آخر مرّة أجرى فيها عملية استئصال زائدة أو مرارة. أجساد مهشمة مزّقتها القذائف تستقرّ فيها الشظايا ورصاصات لا تحصى. أجساد تتشابه طوال الليل والنهار. كأنها جسد واحد يتكرّر عشرات المرات. في أوقات تعبه كان يلين ويعترف بأن زوجته كارلا على حق وأن عليهم أن يهاجروا إلى كندا كما فعلت عائلتها. الأولاد سوف يتعلمون كما ينبغي وهو سيعود لممارسة الجراحة لا استئصال الرصاص وبتر الأعضاء. لكن ليلة نوم واحدة كافية لشحنه بطاقة جديدة وبآمال تدفع كارلا إلى مهاجمته والقول إنه يصدّق أوهامه. أو تقول إنه لا يزال الصبي المفسود الذي لا يستمع إلى صوت المنطق بل ينفّذ ما يخطر بباله غير مبال بالآخرين. عادة يسكت. حكمة اكتسبها بعد الكثير من المشاحنات والنزاعات. اعتاد أن يدخل إلى نقطة بعيدة ويفكّر أن كارلا ستضجر بعد قليل وتهدأ. وأن ردّه سيزيد الأمور سوءاً.

- 2 -

كان الفجر قد طلع. نسمات باردة تغلغلت إلى جسد الدكتور خيرالله. النعاس والارهاق أثقل خطواته. لا صوت حوله. حتى القذائف والمعارك في هدنة عجيبة. كأن انفجارات الليلة الماضية لم تكن، ولا الجثث التي ملأت البرادات. أوقع مفاتيح سيارته مراراً. أسفل ظهره يؤلمه بشدة كلما انحنى لالتقاطها. الأرض زلقة لم تجفّ بعد. صوت مسّاحات يئز وسط هذا السكون. التفت نحوه. رأى سيارة البي أم وعرفها مباشرة. إنها لزميله انطوان اسطفان. لمحه من بعيد محني الرأس فوق المقود. عندما اقترب علم أنه ميت حتى قبل أن يرى ثيابه التي تشرّبت الدمّ. رغم ذلك فتح الباب جهة السائق. تلمّست يده الجسم البارد. ارتعش كأن حمى أمسكت به. لن يعتاد أبداً على رؤية الموت. منذ كم من الوقت يعرف أنطوان؟ من أيام دراستهما معاً في اليسوعية. كان أنطوان يسبقه بسنة. بدا مختلفاً عنهم. أوّل مرة التقاه ظنّه أحد الآباء اليسوعيين لا بسبب لباسه فقط بل شيء فيه يجعله أقرب إلى العجائز. حتى حين يشارك في حفلة طلابية يبدو غريباً مرتبكاً. لكنه مع الوقت اعتاد عليه خصوصاً بعد أن صار شريكاً في السكن لأحد أقاربه. كثيراً ما انضم اليهما قبل الامتحانات لأن وجودهما كان يمدّه بالقوة للسهر.

وقف وسط الموقف الفارغ. وضع يده فوق صدره ومشى عائداً إلى المستشفى.

- 3 -

أيقظها رنين الهاتف. تكاسلت ورفعت اللحاف فوق رأسها. تلمست

الجهة الثانية من السرير. إنها فارغة. لا بدّ أن أنطوان لم يأت أو أنه نام في غرفة الضيوف كي لا يوقظها. استمرّ الرنين. صرخت بأعلى صوتها للخادمة سونيلا لتردّ. فكّرت أنها ستؤنب أنطوان، كان بامكانه أن يتصل بعد قليل. ثم ماذا يريد أن يقول؟ متأخر؟ اعتادت ذلك. ما الجديد في الموضوع. كأنه زائر. قلّما تراه. هي التي ظنّت أنها أكثر الفتيات حظاً لزواجها من طبيب جرّاح.

تذكر أول مرة رأته فيها. كان جالساً إلى طاولة في كافيتيريا المستشفى مع زميل له يقلّبان صفحات مجلة ويشيران إلى أحد موضوعاتها. لم ينتبه لها في الأيام الأولى من عملها هناك. ربما لأنها صغيرة لم تتجاوز الثامنة عشرة. والدها من تدبّر لها هذا العمل الموقت قبل أن تبدأ دراستها الجامعية. لم يفعل إلا بعد اصرار منها.

بعد انقضاء يومين على عملها، تمنّت لو لم تلحّ هكذا. تعود مساء فتجد قدميها متورمتين من الوقوف. تنام جالسة على الكنبة، لا تجد الوقت لا لتخرج مع رفيقاتها ولا لتذهب معهن إلى مسابح جونيه. لكنها عندما رأت أنطوان، تبدّل الأمر. صارت تتلهّف منذ الصباح لمغادرة البيت.

في المرّة الأولى سألته سؤالاً طبياً عن مرض لم تسمع به إلا عرضاً في الكافيتيريا. ادّعت أن جدتها مصابة بالداركسون. صحّح لها: باركنسون. قالت إنها قلقة مما سيحدث لجدتها وهل المرض مميت؟ رغم اهتمامه بتوضيح مراحل المرض انتبه ألا يفزعها. بعدها صار يلقي عليها التحية ويسألها عن جدتها.

تتأخّر أحياناً وتتظاهر بلقائه صدفة فيما يهمّ بالخروج. عندما عرض عليها ايصالها في المرّة الأولى أخبرته عن حيرتها في اختيار اختصاصها وتطوّع هو ليشرح لها ما تريد أن تعرفه إن احتاجت لمشورة.

قال إنها أكثر نضجاً ممن هم في عمرها وإنه لا يحس أنه يتحدّث إلى

فتاة تصغره بحوالي 12 عاماً.

تزوّجا في أقل من ثلاثة أشهر. تسجّلت في الجامعة بناء على اصراره. بعد شهر اكتشفت حملها فتذرّعت به لتنقطع نهائياً عن الذهاب الى الجامعة. لم تستهوها الدراسة حقاً. كانت طوال أيام دراستها لا تسعى لأكثر من النجاح.

حملها الأول كان الأسعد. أحاطها أنطوان باهتمام فاق الحدود. عندما أنجبت روبير يوم 15 حزيران 1967، امتلأت المستشفى بالهدايا والورود. ليس لأنه أوّل طفل يرزقان به بل لأنه ذكر في عائلة ليس فيها إلا ذكر واحد هو أنطوان وسط عائلة من البنات.

لم يتوقف رنين الهاتف. رأت سونيلا واقفة قرب سريرها تقول بعربية ركيكة إن الاتصال من المستشفى.

- 4 -

كان روبير يستعيد طوال الطريق حديثه القصير مع أمه دون أن يفهم حقًا معنى كلماتها: «الآن أنت رجل البيت. والدك رحل إلى السماء عند الربّ».

لا يريد أن يكون رجلاً. لم يتجاوز العاشرة. لا يريد أيضاً أن يرحل والده حتى لو كان المكان هناك جنة. حتى لو جلس مع يسوع. كانت أمه تذكره كلما بكى بأنه رجل ولا يجدر به البكاء. الطريق طويلة. منعطفات وحفر. قبل كل حاجز تنبههم أمهم كارلا إلى التزام الصمت واغماض العينين. يمدّ السائق أوراقاً يتفحّصها مسلحون ملتحون ثم يدخلون رأسهم من شباك السيارة ويتأملون أرملة جميلة تنام في حضنها ابنة لم

تتجاوز الخامسة. على المقعد الخلفي جلس روبير مستنداً إلى النافذة فيما التصقت به أخته كاميليا تاركة ما تبقّى من المقعد خاوياً. لم يجرؤ على لكزها بعيداً عنه، ولم يتشاجر معها منذ يومين. حتى حين تسللت إلى سريره ليلاً ترك لها الجانب الأيسر فارغاً. لم يسخر من بكائها كما اعتاد في السابق. أما جاين فرفضت أن تبتعد عن حضن أمها. قالت لها أن تنام على المقعد في الخلف لأنها تعبت وتجعّد ثوبها الأسود. لكنها تشبّثت برقبة كارلا وأغمضت عينيها. «ألن تشبعي نوماً؟» سألتها بضيق.

روبير يذكر هذه الطريق رغم مرور أكثر من سنة ونصف على آخر زيارة لهم لبيت جَدَّيْه. يحبّ هذه الزيارات. يركض في الحقول ويركب الحمار مع الأولاد كما يرافق ابن عمته ميخائيل الذي يكبره بخمس سنوات إلى صيد الحجل في الوادي. حتى أنه سمح له في مرات أن يقوّص بالخردقة دون علم والده انطوان. لم تكن كارلا ترافق زوجها في هذه الزيارات إلا في واحد من الأعياد. تقول إن رائحة البهائم تعلق بثيابها وشعرها ولا تزول حتى بعد الاستحمام. أو تدّعي أن البيت بارد وبعيد عن البيوت الأخرى. لا تفهم لماذا يستمرون في العمل في الأرض وتربية المواشي. ألم يكبروا؟ ألا يخصّص لهم أنطوان مبالغ تكفيهم للاستغناء عن البقرات والحمير والخراف؟ وبدل أن يصرفوا تلك الأموال ويرتاحوا في آخرتهم يشترون مزيداً من الأراضي. أنطوان يقول إنها بدلاً من تلك التي باعوها من أجل تعليمه. كان يغيظها في دفاعه المستميت عمّا يفعلون. هي لم تتربّ بهذه الطريقة أبداً. قبل زواجها من أنطوان كانت تظنّ أن البطاطا تنمو فوق أشجار باسقة وكذلك الخيار والبندورة. لا تميّز بين الماعز والخراف. ولا بين الصفصاف والزنزلخت. كان يحبّ روبير أن تخطئ أمه ليضحك مع والده على هفواتها، كأنها تصبح فجأة أصغر منه في نظراتها الحيرى.

تلتفت كارلا إلى الخلف ما إن تتعالى أصوات الانفجارات وتطمئن

أولادها إن ذلك يحدث بعيداً. حتى حين بدأ أحد المسلحين يقوّص عالياً بينما تقطع السيارة شوارع صيدا قالت إنه يطلق النار في الهواء بسبب عجقة السير. ما كانوا يجفلون لتلك الأصوات. اعتادوا عليها، لم تكن تمنع أوتوكار المدرسة من التجوّل وجمع الأولاد. حتى الأهل تخلّوا عن حذرهم السابق وباتوا يرسلون أولادهم إلى المدرسة مستغلين الهدوء الموقت.

قبل أن يصلوا إلى الضيعة وجدوا سيارات وناساً كثيرين يقفون عند جوانب الطرق بعضهم علّق على السيارة صورة مكبّرة لأنطوان في شبابه أو في حفلة تخرجه أو مطلع شبابه. وقفوا في ثيابهم السوداء يرشقون النعش الواصل بالأرز والورود. الزغاريد أرعبت جاين ابنة الخامسة، فعلا بكاؤها وغرزت أظافرها في ذراع أمها. التصقت كاميليا برروبير ودفنت رأسها في كتفه. هو نظر بثبات إلى جده: لمحه بين الناس يقف متهدلاً كأن ظهره قد انقصف وصار عاجزاً عن رفع جذعه.

- 5 -

لم يكن مدركاً حقاً لما يحيط به. عندما فطن لوصول نعش ابنه بحث بنظرة عليلة عن حفيده روبير. غلالة رمادية سقطت فوق عينيه. حجبت كل شيء. حتى الأصوات تلاشت.

رأى أنطوان يسير في المرج. أولاده يسبقونه راكضين فيما يده تلوّح من بعيد. معدن سيارته يوجّ في الشمس حيث يركنها عند آخر الطريق المعبّدة. أين أخطأ ليأخذ الربّ منه ابنه الوحيد؟ لو أنه تأخّر في الخروج ثواني من المستشفى. لو أن أحداً أوقفه ليسأله أي شيء. رصاصة واحدة في الرقبة تقتله؟ هناك من تدرز الرصاصات جسده ورغم ذلك تكتب له النجاة.

- 6 -

لا يتذكر روبير من ذلك اليوم الأذرع التي احتضنته باكية ولا عويل العمات ولا قرع الطبول. لكنه يتذكر ابن عمته ميخائيل يمشي قربه في المرج. شتول البازيلا والفول. حذاؤه غطّته وحول أثقلت خطواته. كانت الشمس واطئة دفّأت رأسه. تسابقا على ايجاد ظروف البازيلا والفول الناضجة. أكلا حتى آلمه بطنه. أصيبا باسهال. نسي روبير الجنازة التي تنتظره وهو يركض مع ميخائيل ليمسك بالجراد القافز وسط الحقول. الغيوم ملأت فجأة صفحة السماء.

بينما ينظر إلى حرش الصنوبر والبطم في البعيد، تجهّم وجهه، جلس على جدار واطئ عند حافة الجلّ. سأل ابن عمته عن موقع الجبانة. أشار ميخائيل إلى غرفة بيضاء يعلوها صليب من خشب مبنية عند الطرف الجنوبي لحقول جده. بناها الجد بعيداً عن مدافن الضيعة منذ سنوات. فكّر روبيران والده سيكون أوّل من يسكنها.

- 7 -

حول النعش اصطفت أخوات أنطوان وأمه هند وزوجته التي حملت جاين بين ذراعيها. وقفت كاميليا عن يسارها. أمسكت هند يد أنطوان. تلمست أصابعه واحداً واحداً ثم رفعت يدها إلى شعره تسوي خصلاته المتيبسة. تتمتم ما لا يسمعه أحد غيرها. تغيب عنها أصوات بناتها ونحيب

الأقارب المتجمهرين حولهم. لم ترتد الأسود. لا تزال في الثياب نفسها منذ أبلغت بوفاة ابنها. ابنتها روز ألبستها سكربينة بدت أكبر من قدميها بنمرتين على الأقل. على رأسها منديل تحتمي به عادة من شمس الحقل. كحلي وعليه دوائر برتقالية أبهتت السنوات لونه. تحادث أنطوان همساً مقربة فمها من أذنه. كانت الرائحة تقوى مع مرور الساعات. لا الكولونيا ولا ماء الورد ولا البخور بددتها. غمرت الدار الواسعة وعشقت الثياب والمفروشات.

لا تنتبه للمعزيات ولا تستجيب لرجائهن بأن تشرب أو تضع شيئاً في فمها. تمنت أن يتركنها وحدها معه. هناك أشياء كثيرة تحبّ أن تقولها له قبل أن يمضي.

آخر مرة رأته كان مستعجلاً. حمل لهما أدوية تكفيهما سنة. عندما تعلّقت به ورجته أن يبقى قليلاً، زجرها زوجها جبرايل. خاف أن يحدث شيء مفاجئ ويبدأ الخطف والقصف مجدداً. بقيت تلوّح له حتى وصل إلى الزفت حيث سيارته. لم يقبل أن يأخذ معه شيئاً من الخضار التي قطفتها. تحاول أن تذكر ما قطفته. بندورة لا تزال خضراء أول قطاف وباذنجان وبقلة وخبيزة كان يحبّها مقلية بزيت الزيتون مع الثوم وأوراق سلق طرية.

تشدّها الأذرع لتبعدها. تتشبث بخشب التابوت ولا تفلته. تقترب ابنتها البكر أديل منها. لا يطلع من فمها إلا كلمة أمي. تكرّرها في أذنها. الكلمات تضيع. الرجال اقتربوا لرفع النعش باتجاه الكنيسة.

- 8 -

حمل متري ابن أديل نعش خاله مع والده وأزواج خالاته. قطعوا

الحرش، ثم دخلوا في درب ضيقة. المطر تساقط خفيفاً ثم تحوّل إلى غزير. صلاة الكاهن طمسها صوت المطر. بعضهم وقف تحت الصفصاف الذي يسيّج الجبانة. وقف روبير جنب جده جبرايل. يده الصغيرة تغيب داخل قبضة جده. رائحة البخور تختلط بالتراب المبلول.

« الربّ يرعاني فلا يعوزني شيء. في مراع خضر يسكنني. إلى مياه الراحة يوردني. يردّ نفسي. يهديني إلى سبيل البرّ من أجل اسمه. إن سلكت وسط ظلال الموت فلا أخاف شرّاً، لأنك أنت معي. عصاك وعكازك يعزيانني... رحمتك تدركني جميع أيام حياتي. ومسكني في بيت الرب إلى مدى الأيام. هللويا.»

- 9 -

في الأيام التي تلت الجنازة كان على متري أن يكتفي بساعات قليلة من النوم. يذهب إلى الصف متعباً على غير عادة. ينتظر قرع الجرس فيما عيناه تستطلعان الساعة عشرات المرّات. لم يعتد منه طلابه هذه العصبية في الردّ على أسئلتهم. لكن الكلمات تنفلت وحدها من بين شفتيه جارحة. لديه كل يوم مهام بعد المدرسة. مرة يصطحب طبيباً لجدته وأخرى يشتري لوازم لبيت جده: البن وعلب الدخان والأدوية. وفي أحيان كثيرة يكون عليه استقبال المعزين ومجالستهم. كما إن عدداً من الزوار هم من معارفه هو. انتشر خبر وفاة انطوان بعد أن طلب من رفاقه الحزبيين ورقة لتسهيل مرور جثمان خاله. تبرّع كثيرون لملاقاة السيارة عند المعبر. بعضهم يأتي كل يوم.

في أيام رأى من حوله يكبرون عقوداً. زوجة خاله التي لم تبلغ الثلاثين

بعد، تبدو كالشبح. تتعثّر في سيرها كأن لا جاذبية تشدّها إلى الأرض. اللون الأسود يظهرها أكثر بياضاً مما هي عليه. تتحرّك باقتصاد، عيناها غارتا في محجريهما. لا أحد هنا من عائلتها باستثناء واحدة من أولاد عمها. حضرت الجنازة ثم ذهبت بعد الدفن مباشرة.

رغم براعته في التعامل مع الأولاد لم يتمكّن من جعل جاين ترد على أسئلته. حاول انزالها من حضن أمها. بكت وتشبّثت برقبتها. ولم تثر قصص المغاور وما يمكن أن تحويها اهتمام كاميليا. لم يستدرجها الأولاد لا للعب ولا للخروج من الغرفة. هي ليست غرفة حقاً بل عبارة عن قاعة فسيحة فيها أسرّة ومقاعد تصلح للنوم، مع حمام مستقل، بناها الجد منفردة تبعد أمتاراً عن مسكنهم لينزل فيها أنطوان مع عائلته حين يزورهم. تصلها ببيتهم طريق من باطون زرعت عن جانبيها زهور تم السمكة والقرنفل وديك الجن وبعض الورود التي لم تنجح إلا في مواسم قليلة.

يذكر متري جلسات مسائية جمعته بخاله تحت العريشة الكبيرة. كان هو يتحمّس في حديثه السياسي وينتقد الطقم السياسي الفاسد. خاله يهزّ رأسه بلطف دون أن يناقضه. كثيراً ما ظنه منغلقاً لا يهتمّ بشيء سوى بعمله وبعائلته. عندما تتكلم أمه أديل أو جداه عنه يبدو مختلفاً لا يشبه الشخص الذي عرفه.

- 10 -

لأوّل مرة من أكثر من عشرة أيام تتمكّن كارلا من النوم بشكل متواصل. من كوابيسها لا تذكر شيئاً هذه المرّة. تحسّ بقرصة برد رغم اللحاف الذي يغمرها. لا تسمع إلا بقبقة الدجاج في القن. تفكّر أن جاين تلهو بملاحقة

الصيصان الصغيرة. منذ انشغلت بها وبالخروف أراحتها قليلاً. ليلاً تلتصق بها من جهة، ومن الجهة الأخرى كاميليا. هي أيضاً مثلهما تشعر بالسكينة قربهما. تحبّ حرارة أنفاسهما تلفح وجهها. روبير لا ينام معهن. يفضل أن يرقد أرضاً على فراش قرب جده. أو ربّما اعتاد ذلك بعد أن نام في البيت القديم أول ليلة. تتريّث في الفراش. لا تجد ما يحثّها على النهوض. رغم مرور الأيام لا يزال الناس يأتون لتقديم العزاء. وجوه غريبة تتلاحق وتغمغم العبارات نفسها. تمنّت أن يكون أحد من عائلتها قربها. حكوا معها على التلفون قبل الجنازة. عليها أن تشغل نفسها كما يفعل الجميع لربّما أراحها ذلك من المخاوف. لكن ماذا تفعل؟ لا تجيد شيئاً من أعمالهم. حتى عندما تحاول المساعدة في الأعمال البيتية تتبرّع واحدة من أخوات أنطوان لتقوم هي بالأمر.

دوار خفيف يمسك بها عندما تقف أخيراً. تنظر من الشباك العريض إلى عصافير الدوري تشرب نقاط المطر فوق أوراق الزيتونة. تلبس معطفها فوق ثياب النوم. لا تدفأ هنا ولو جلست تحت الشمس في عز الظهيرة. تسمع دعسات هند حماتها. صوت المكنسة تبعد الأوراق التي راكمها الليل فوق المصطبة. ترفع هند رأسها، تسألها إن نامت جيداً، تتراجع كارلا إلى خلف وتتعثر في مشيتها. يربكها دائماً أن تراهم أول يقظتها. تتمنّى لو كان ذلك وهماً لتفتح عينيها وتجد نفسها في بيتها.

تجلسان عند الطرف المشمس من المصطبة. لا تتبادلان الكلام. هند تتأمل روبير يساعد جده في قلع الأعشاب من الجلول. من خلف يشبه أباه تماماً. له ملامحه نفسها لكنه ورث عن أمه العينين الخضراوين. يشد روبير بكل قوته لكنه يقع إلى خلف دون أن يتمكّن من قلع الجذور.

تجد كارلا صعوبة في أتفه الأشياء. الاستحمام صعب. الأكل يتسبّب لها بانتفاخ. حبوب وخضار على الدوام. البرغش يلدغها في كل جسمها

حتى لو تغطت وغمرها اللحاف. البرد يلازمها طوال اليوم. الناس يتفرّسون في وجهها كأنها قادمة من الفضاء.

تفكّر أنها ستشعل قازان الحطب وحدها. لن تطلب من أحد أن يفعل ذلك. تعلم مكان الحطب ورأت كيف يشعلونه. تحس أن جسمها يستحكّها. في بيت أهلها كان القازان يعمل على الحطب قبل أن يحوّلوه إلى الغاز. البيت الذي لم يبق منه إلا جدران محروقة. كان من أول البيوت التي أصيبت في تحويطة فرن الشباك. صحيح أن البيت ليس ملكهم لكنهم خسروا كل أمتعتهم. لولا أنطوان واصراره لما نجوا. قال لهم أن يحتاطوا وينزلوا عندهم بضعة أيام ريثما يهدأ الوضع. الكل كان يظنّ أنها أيام قليلة وتنتهي الأشكالات. انطوان أقرض المال لأخويها وأهلها لا ليسافروا إلى كندا فقط بل ليفتحوا كاراجاً لتصليح السيارات. ساعدهم في تقديم أوراقهم إلى السفارة. لذلك أخجلها أن تتذكّر تذمّرها. ألم تعترض على اعطاء المال لأهله عندما اشتروا الأراضي ووسّعوا البيت وأصلحوا الحظائر والبيت القديم.

تستعيد وساوسها وتحتار مجدداً. ماذا تفعل الآن؟ لا يمكن أن تبقى هنا. ماذا عن مدارس الأولاد؟ لكن كيف تدفع أقساطهم وكيف تسدّد للمصرف القروض. إن لم تفعل سيضع المصرف يده على بيتهم. أقساط لن تنتهي قبل تسع سنوات. أي شهادة تحمل؟ إن عملت كم سيكون راتبها؟ تحسّ أنها وحدها تماماً. تخفي في قرارتها عتباً على أهلها. تنشغل أحياناً في جدال داخلي معهم.

تنظر إلى يديها الزرقاوين الجافتين. الجلد شديد الاحمرار عند عقد الأصابع. أعطتها أديل زيت الزيتون لتدهن به يديها لكنها لم تفعل وإلا بقّعت كل ما تلمسه.

كثيراً ما تسترجع آخر حديث تبادلته مع أنطوان. تغفل بعض تفاصيله

ثمّ تتذكرها بوضوح بينما هي مستلقية وسط ابنتيها مفتوحة العينين ليلاً.

السيارة التي تهدر باتجاههم تدفع كارلا إلى الاسراع إلى الغرفة. ضاقت بالناس. تبدّل ثيابها على عجل فيما أطرافها ترتعش من البرد. لو علمت أنه متري جاء برفقة الطبيب لبقيت حيث هي.

الطبيب يبدّل الدواء الذي وصفه قبل أيام لهند. الضغط لم يتوقّف عن الارتفاع يقول. يصف دواء أقوى اضافة للمهدئات. تجد كارلا متري لطيفاً. تستطيع معه أن تتكلّم في أشياء لا تتشاركها مع الآخرين.

زخّات المطر الفجائية دفعت جبرايل والأولاد إلى الركض باتجاه المصطبة، وحدها جاين لم تفعل، دخلت القن وقرفصت جنب الدجاجات تحادثها. لم تردّ على نداءات أمها. عندما عادت كانت تحمل صوصاً بقبضة يدها تشد على رقبته ليأكل عشباً من يدها الأخرى مرددة: «كل. كل.»

- 11 -

يرتاح جبرايل تحت الصنوبرة. زرعها يوم مولد أنطوان. يخلع قبّعة الصوف عن رأسه. ينظر إلى الشتول أمامه تموّجها الريح الشمالية اللاسعة. حبّات البرد التي تساقطت أفسدت براعم اللوز والخوخ.

ينظر إلى كاميليا وقد شغلها حقاً إطعام الخروف. تأملته صباحاً يحلب البقرة وسألته إن كان بامكانها أن تجرّب. خاف أن ترفسها البقرة إن شدّت على ضرعها. أفسح لها لتقرفص جنبه. لم تجفل «غندورة»، استأنست بالأنامل الناعمةً. فرحت كاميليا بالدلو يمتلئ حليباً. أسرعت باتجاه البيت لتخبر جدتها وأمها.

منذ أيام يحاول عبثاً مفاتحة كارلا. يخشى سؤالها عما هي عازمة على فعله. لا يعلم شيئاً عن أمور ابنه المالية، لكنه سمع من متري بأن البيت مرهون للبنك. ماذا سيكون بمقدوره أن يفعل؟ ليس لأنه في الثانية والسبعين من عمره، بل لأنه لا يستطيع أن يقدّم لهم سوى حياة فلاحين. منذ كان في السابعة وهو يعمل في الأرض وفي رعي القطعان. في أوّل شبابه عمل في البناء لكنه وجدها مهنة غير ثابتة. هل ستقبل كارلا أن تدفن شبابها هنا وتكرّسه لأولادها؟ يراها تخاف البرد وتجافي طعامهم وترتعب من رؤية الثورولو مربوطاً. لو كانت هند أفضل حالاً لطلب منها أن تجسّ النبض فتعلم ما تخطّطه كارلا. لكنها مريضة وضعيفة. الخبر الذي سمعته من يومين عن ابن فوّاز زادها مرضاً. الناس لا يتكلّمون إلا عن ذلك. متري أخبر جده القصة. خُطف شارل ورفيقه ثمّ تركا مذبوحين في المطار. يعملان هناك مهندسين في شركة التي أم أي. يتنقلان منذ بدء الحرب دون أن يعترضهما أحد. كان شارل يقول إنه صديق للجميع وكل الحواجز تعرفه ويأتي للمسلحين بهدايا من الشركة المتخصّصة في شحن البضائع.

يقترب روبير من جده ويفتح قبضته ليريه زيز الحقول. يدعوه جبرايل للجلوس قربه. يتردّد روبير قبل أن يفعل. الأرض موحلة ورطبة لكنه يجلس أخيراً مستنداً كجده إلى جذع الصنوبرة. يرتبك عندما تأخذ جده نوبة سعال موصولة ثمّ يركض ليأتيه بابريق الفخار.

صور كثيرة تتزاحم في رأس جبرايل على مدار النهار. في عمر روبير تقريباً سجّل أنطوان في القسم الداخلي عند الرهبان. المطران توسّط له ليدفع أقساطاً مخفّفة. اعترض المدير على مستوى انطوان الضعيف في اللغة الفرنسية وعده جبرايل بأنه إن صبر عليه قليلاً سيصبح في شهور أكثر شطارة من كل التلاميذ. لم يبال المدير فقد سمع الكثير من هذا الكلام على لسان فلاحين كثيرين قبله. بعد شهور يسحبون أولادهم عادة من

المدرسة ويحولونهم إلى الأرض أو إلى تعلّم صنعة ما. لم يلزم أنطوان شهوراً. عكف على قراءة الكتب الفرنسية حتى أتقن الفرنسية أفضل ممن تعلّموها في مدارس الرهبان من صغرهم. كم خاف أن تفسده هذه المدارس وتجعله رخواً وناعماً.

يتذكّر مرّة عندما كان أنطوان في سنته الرابعة أو الثالثة في اليسوعية، جاء دون اعلامهم برفقة أولغا زميلة له. كان الطقس بارداً وعيد الميلاد قريب. فرح بالزلابية التي أعدتها هند. زميلته قالت إنها لم تتذوقها أبداً. «ولا حتى في عيد الغطاس؟» سألتها هند باستهجان. كانت المرّة الأولى التي يصطحب فيها فتاة. أما رفاقه الشباب فكثيراً ما قضوا عطلاً في بيت أهله. يذهبون إلى الصيد. يسهرون حتى الصباح خصوصاً في الصيف والربيع. ينامون في العراء تحت العريشة.

زارتهم أولغا مرتين بعد ذلك. لاحظا تعلّقه واهتمامه بها. لاحقاً عندما سألاه عنها تهرّب من الأجابة ثم قال إنها سافرت إلى بلجيكا لتكمل تخصّصها في الطبّ النسائي. كان حين يعود من المدرسة الداخلية يساعدهم في الفلاحة وفي الزرع والقطف. في الصيف كان يحصد القمح أسرع من الجميع. حتى في سنواته الجامعية الأولى كان يأتي في موسم العنب.

صوت السيارة ينشله من شروده. يضع يده فوق جبينه محدّقاً إلى آخر الطريق. لا يرى سوى خيالات غير محدّدة. يسأل حفيده عن القادمين. يقول إنه لا يعرفهم. سيارتهم بيضاء ويبدو أنهم ثلاثة رجال وامرأة. الهواء يُسقط أبر الصنوبر. ينغرز بعضها في كنزة جبرايل. لا يتعرف إلى الوجوه التي تقترب الآن أكثر فأكثر. هم أيضاً يتلفتون حولهم كأنهم غير متأكدين من المكان الذي يقصدونه. يسألون أبن رشيد، يدل باصبعه جهة بيت اسطفان فيغادر جبرايل مكانه متوجهاً إلى البيت. أراد أن يخلع بنطلونه

الذي تبلل عند قعدته لكنه بدّل رأيه عندما لم يجد أحداً فوق المصطبة ليستقبل القادمين الغرباء.

- 12 -

أختي الحبيبة كارلا

لن تدري كم كان صعباً علينا أن نكون هنا ولا نقف بقربك. لكن تعلمين صعوبة السفر في وقت نعمل فيه على تسوية أوضاعنا بشكل قانوني. الكل، أهلي وأخي وخالي وعائلته لا يدرون كيف ينامون أو يستيقظون. قلبنا معكم هناك. أنطوان كان أخاً لي وابناً لأبي وأمي.

أقمنا هنا جنّازاً حضره الكثيرون ممن نعرف وممن لا نعرف. وقعت المصيبة على رأسنا فما عاد لنا رغبة في شيء. نخشى عليكم. لا نعلم بماذا تفكرين. لكننا نرى جميعاً أن عيشكم في كندا أفضل من البقاء في الخطر خصوصاً بعد ما حصل. إن أتيت وحدك سيعطونك فيزا بسهولة أكبر. حالما تسوين أوضاعك في شهرين أو ثلاثة على الأكثر ترسلين في طلبهم. نعلم أنه ليس حلاً مثالياً وأنك قد ترفضين. لكن السفر برفقة الأولاد من البداية قد يفوّت فرصة على الجميع في الدخول إلى الأراضي الكندية. سيصلك مرفقاً بهذه الرسالة مبلغ بسيط من المال.

أفضال أنطوان لا تعدّ ومهما فعلنا لا يمكن أن نفيه حقّه. رجاء أن تبلّغي تعازينا الحارة وألمنا لأم أنطوان ولأبيه. الصور التي نراها على التلفزيون تبقي أهلي في حالة رعب وقلق، وتطلّب ذلك منا جهداً كبيراً لمنعهما من السفر إلى بيروت. العمل هنا بدأ يثمر لكن يلزمنا وقت لنتمكّن من جذب زبائن دائمين،

أبي أيضاً يساعدنا. هذا أفضل من أن يبقى في البيت وتشغله الهواجس. سنجد لك عملاً هنا يناسبك. كندا ليست كلبنان. فيها فرص عمل كثيرة. المهم أن تأتي. في أسوأ الأحوال إن لم يعجبك الأمر تعودين إلى لبنان. بقي أن ننبهك إلى عدم الثقة بأحد لا تسافري إلا عن طريق جونيه. مهما أكّد لك أحد أن الطريق آمنة. لا نريدك أن تجازفي.

- 13 -

ارتبك متري عندما لم يلمح زينب في طريقه إلى الصف. جال في الممرات بحثاً عنها. الصفوف لا تزال فارغة. خرج إلى الباحة أمام المدرسة. انتظر بعيداً مستنداً إلى أحد الأعمدة. فشل في مغالبة اضطرابه، يداه متعرقتان كأنه محموم. لمحه أحد زملائه فاتجه صوبه ليسأله عن حادثة قتل المهندسين. كان يخبره باختصار وعيناه لا تفارقان الطريق. هل هي مريضة؟ أم أن أحداً من أخوتها قد سمع شيئاً عنهما؟ لا يدري إلى متى سيستمرّان على هذه الحال. حتى لو بدّل دينه لن يرضوا به.

عندما ظهرت أخيراً نظرت إليه وابتسمت. لم يحسّ بالدموع التي ملأت عينيه. يستطيع أخيراً أن يتنفّس. تملّص من زميله ومشى في الممر. أبطأ حتى تحاذيه. مضت أيام دون أن يلتقيا. يحلم أن يضمها ويشمّ رائحة جسمها السكّرية ويحسّ برموشها الندية تلامس وجهه. عندما نظرت إليه تصاعد الدم ليصبغ وجهه وأذنيه. كثيراً ما أضحكها احمرار أذنيه في لحظات الانفعال. سألها إن كانت ستزور ماري زميلتهما اليوم. إنها الطريقة الوحيدة للقائهما دون أنْ يعلم أحد. أو هكذا هُيّئ له. كل من في ضيعته على علم بذلك. أهله رغم عدم رضاهم عن هذه العلاقة يتظاهرون بعدم

معرفة ما يجري. أديل تعرف طباع ابنها. لا شيء يبعده عن تحقيق ما في رأسه.

قالت إن أمها مريضة ووقع على رأسها كلّ شيء الطبخ والغسل والكوي ولا تدري كيف ستحتمل. نظر اليها متوسلاً. مدت يدها لتدس رسالة في الكتاب الذي يحمله. لديه عشرات الرسائل منها. يعاود قراءتها خصوصاً ليلاً عندما يأوي الجميع إلى سريره ويصمت العالم حوله. هي لا تجرؤ على الاحتفاظ برسائله. أخوها شكّاك يراقبها كالصقر. تخشى حتى التلاميذ. كثيرون منهم أولاد جيرانها أو من أقاربها. إن خاطبته أمامهم تناديه بالأستاذ وتتصنّع لهجة رسمية. أحياناً يستعير سيارة أحد رفاقه ليمرّ قريباً من بيتها. يحلم بأن يراها صدفة في الطريق أو جالسة أمام بيتهم. لكن ذلك لم يحصل أبداً. عندما يخبرها تقول ضاحكة إنها لو علمت لنامت عند عتبة البيت. لديه صديق من ضيعتها. يحبّ أن يسمعه يحكي لأن لهجته تفرح قلبه وتذكّره بزينب. يسألها لماذا لا يتزوجان خطيفة ويعدّد لها الزيجات التي تمّت بهذه الطريقة ولم يمت أحد. تقول إنه لا يعرف أخوتها حقاً، كما أن أباها ليس أقلّ تشدداً منهم. لو علموا لمنعوا عنها العمل نهائياً.

عندما ترى الفتيات والشبان يتمشون جنباً إلى جنب عند العصر في ضيعته، تتساءل بحسرة لماذا لم تولد في عائلة كعائلتهم. تعجبّت أول مرة رأت هذا التقليد. لم تفهم كيف يكون هناك وقت يخرج فيه الشبان جميعاً للمشي حتى حدود الضيعة المجاورة. وكيف يقبل أهلهم وهم يعلمون أنه موعد لقاء حقاً. أفهمها أنه تقليد قديم. كما كانوا أيام جديه يجتمعون في الساحة ليلاً لسماع عزف المنجيرة ورقص الدبكة. كانت التسلية الوحيدة لهم بعد الكدّ في الحقول.

لولا المدرسة لما تمكّن من رؤيتها. لذلك يكره العطل.

في زياراتها لماري يقوم أحد أخوتها بايصالها. ما يطمئنهم أن ليس في

بيت ماري أي ذكر. والدها توفي ولا أخوة صبيان لديها. يغادر متري منزل ماري قبل مجيء أخيها بأكثر من نصف ساعة. يخاف أن يأتي قبل موعده ويراه.

تناوله كيس نايلون وضعت فيه سندويشاً من الكشك مع الباذنجان المكدوس. تعلم أنه يحبّه كما يعدونه هم من لبن البقر لا من لبن الماعز الذي يكره طعمه الحادّ.

يلتقيان طوال النهار في انتقالهما من صف إلى آخر أو ينضمّ إلى ماري مثلها خلال الفرص. ليست ماري من البنات المميّزات بالنسبة إليه. يجدها من عالم مختلف. لكن ماذا يفعل غير ذلك وإلا لحُرم من لقاء زينب.

عاد إلى الضيعة مشياً بعد المدرسة. السير لساعة قد يهدئ قلبه. يمشي مسرعاً. السيارات قليلة. بعض من يعرفهم يتوقف ليقله لكنه يشكرهم مكملاً سيره. ينظر إلى التلال قبالته. ليس عليها إلا بضع شجرات متفرّقة. بيوت على التلال جهة اليمين. رغم بعدها يسمع أصواتاً تطلع منها. يرى أمامها علب التنك المزروعة زهوراً. معدنها يبرق تحت وهج الشمس.

يفكّر بأن عليه أن يوزّع بعد الظهر مع فارس خطّار وميشال زيدان الحصص المقدّرة لكل عائلة من السكّر والطحين. في الأسبوع الماضي وزعوا الغاز. لكن لا أحد يرضى عنهم مهما فعلوا. يقولون إنهم ثلاثتهم يأخذون لعوائلهم أكثر بكثير مما يعطونهم. أو يلقبونهم بالشيوعيين الكافرين. يغضب هذا الكلام أمه أديل فتطلب منه عدم تأمين أي معونات لأهل الضيعة لأنهم ناكرون للجميل لا يستحقون شيئاً. والده يقول ألا يردّ على أمه لأنهم في آخر المطاف أقارب وهم مساكين ومحدودو الفكر. لكنه أحياناً يتمنى لو كان مختلفاً. ثم لماذا يبالي بهذه الأمور؟

يتذكّر جده كما رآه البارحة. يجلس مقرفصاً فوق جلد الخروف بعيداً عن الوجاق، يلوك بصعوبة حبّات من التين اليابس. في فمه سِنان نخران

لا يسعفانه. يأكل كأنه يخوض معركة. كان متري يحثه في ما مضى على وضع طقم أسنان اصطناعية فيجيب إنها تزعج أكثر مما تريح ويعدّد كثراً دفعوا مالاً كثيراً وفي الأخير رموا طقم الأسنان. بعد تردّد سأله مدارياً ألا تسمع كلامه لا هند لا كارلا عما تساويه السيارة في أيامنا هذه. فهم متري إن الأمر يتعلّق بسيارة المرحوم خاله. لم يسأله عن موديلها. يظن جده أن للسيارات سعراً واحداً وأن الاختلاف بين واحدة وأخرى هو مقدار العناية بها. إن تعرّضت لحادث أو تقشّر طلاؤها بخس ثمنها. وعده أن يسأل ويخبره لاحقاً. لم يقل بأنه سيستوضح عن السيارة من كارلا وإلا لمانع جبرايل.

لو كان بامكانه رؤية زينب بسهولة. ماذا لو هربا وسافرا معاً. لكن إلى أين؟ أي دول ستعطيهما فيزا بسهولة؟ خطر له أن يتقدّم بطلب للعمل في واحدة من مدارس السعودية، لكن زينب قالت إن أهلها لن يفهموا تخليها عن وظيفة حكومية للسفر إلى بلد غريب حيث ستكون فتاة تعيش وحدها. ومنذ متى تنشغل الفتاة بتحصيل ثروة. هذا أمر مرفوض تماماً بالنسبة إليهم. لن تخاطر وتفاتحهم بهذا الموضوع. كما أنه لن يلزمهم فطنة ليكتشفوا سفره هو في الفترة نفسها وإلى البلد نفسه. صديقه فارس يقول إن زينب تتعامل بضعف مع أهلها. هي ليست أول ولا آخر من أحبّت شاباً من غير دينها. يزعل من كلامه. «لكل واحد ظروفه» يقول في محاولة لانهاء الحديث.

عندما انشغل بوفاة خاله وبالعائلة، نسي ما يتآكله من الداخل. صَغُرَ ألمه.

يبتعد مسرعاً باتجاه الجَلّ. بيك آب لمنظّمة فتح كاد يدهسه.الفدائي خلف الدوشكا يضحك من جفلته كأنه سمع أطرف نكتة.يشتمه بصوت مبحوح. منذ ليلتين والاشتباكات مستمرّة بين فتح والصاعقة. قذيفة شاردة

أصابت زريبة مهجورة قرب البيدر. خاف أهل الضيعة واستمروا يدقون بابهم ليسألوه إن كان عليهم النوم في الأقبية أم أن ذلك سيبقى محصوراً في البلدة القريبة منهم؟ يأخذ نفساً عميقاً من سيجارته. طعمها غريب. حتى الدخان بات مغشوشاً. ينظر إلى الغيوم الرمادية تغطي السماء وتحجب الشمس تماماً. يفكّر أنها ستمطر بعد قليل وعليه أن يسرع.

لم يمانع من ركوب سيارة جورج الحاج عندما دعاه لايصاله، كأن كل القوة قد خرجت فجأة من جسمه. أكياس العلف على المقعد الخلفي تعتم الجوّ في السيارة. كأن الليل حلّ فجأة.

- 14 -

تقف هند في المرج للمرة الأولى منذ أكثر من شهر. قدماها لا تسعفانها كأن حديداً قد رُبط بكاحليها. الطبيب نصحها بألا ترهق نفسها. يزعجها هذا الحصار الذي أحاطوها به. كأنها صارت عاجزة فجأة. أديل تخفي الصور من البيت. روز تشرف على اعطائها الأدوية في موعدها. أما تيريز فتقوم بأعمال البيت. وحدها برناديت ابنتها الصغرى لم تتدخّل في شيء. تأتي بعد الظهر لتجلس معها ومع كارلا. تبقى صامتة في الغالب إن لم يوجّه أحد الكلام اليها. لهفتها التي تظهرها مع أولاد أخيها ليست بسبب ما حصل بل لأنها رغم مضي خمسة عشر عاماً على زواجها لم تنجب ولم تحبل. تتذرّع هند بالصلاة لتجلس في زاوية ما بعيدة.

تتذكّر جبرايل وهو يقول لها أن تقوّي نفسها. «الأولاد صغار ليس لهم أحد غيرنا. إنهم أمانة فيٰ رقبتنا» على عكسه لم تقل رأيها عندما عزمت كارلا على الاستعداد للسفر. تخاف على الأولاد في غيابها. لا يهم أن

تغيب شهرين أو ثلاثة. هم صغار. من سيحبّهم ويحميهم أكثر من أمهم. هي وجبرايل مجرّد عجوزين. حبّهما للأولاد لن يكون كافياً.

تقتلع براعم من النعناع. تسارع لتغليها لكاميليا التي اشتكت طوال الليل من آلامٍ بطنها. مؤخراً باتت تقول لبناتها إن عليهن الالتفات لأمور عوائلهن بدلاً من خدمتها هي. تستطيع أن تتدبّر أمورها بنفسها كما أنها ليست وحدها.

تتذكّر المرات الكثيرة التي أجهضت فيها وفي كل مرة يكون الجنين صبياً. وحده أنطوان نجا. عندما يخطر لها ذلك تحسّ بشيء يسدّ زلعومها ويضغط على صدرها. تناديه في سرّها وتكلّمه على مدار النهار. رأته البارحة في نومها كما كان في آخر لقاء لها به. الشيء المختلف هو عيناه اللتان كانتا جامدتين كأنه فقد بصره. استيقظت باكية. جلست في فراشها وبدأت تصلي حتى طلع الفجر.

تقول لكاميليا بينما تجلس قربها على الافريز الحجري بأن والدها أنطوان كان يحب الجلوس في هذا المكان. ينظر إلى جل الزيتون ويدرس حتى أول العتمة. تبتسم كاميليا، تسألها عن قصص سبق وسمعتها. تفكّر أن الأولاد لا يضجرون من الاعادة أبداً. عكس الكبار. الآن قبل أن تبدأ بسرد قصة تسارع إحدى بناتها لتذكيرها بأنه سبق وأخبرتها.

القصة المفضّلة لدى كاميليا هي حين أقنع انطوان أخته تيريز بأن تغسل شعرها كل يوم بماء منقوع بروث البقرة إذ هكذا تصبح شقراء كما تحبّ وستصير كجانيت نعيم رفيقتها، شعرها أملس لامع وأشقر كسنابل القمح. جاين التي لا تفهم القصص تماماً تقلّد أختها في الضحك واصطناع نظرة قرف مما فعلته عمّتها تيريز. كان انطوان يفعل الشيء نفسه مع أمه. ليمنعها من طبخ الفاصوليا بزيت مراراً وتكراراً، يؤكد لها أنه قرأ مقالة علمية تفيد أن تناول الطعام نفسه يمنع نمو عظام الأولاد. تعانده بداية قائلة إنها طوال

طفولتها كانت تأكل خبز المرقوق حافاً مع الزيت ولم يؤثّر عليها. يبتسم ويسألها بهزء ماكر: ألم يؤثّر عليك؟ أهذا طول عادي برأيك؟ هي لشدة قصرها خافت أن يكون محقاً. وفكّرت أنه ربّما عليهم أن يبيعوا ما يزرعونه ويستفيدوا من ثمنه بدلاً من أن يمّونوا هذه الكمية من الفاصوليا وتضيع هدراً.

تسألها أن تقرأ في الكتاب الذي جلبه متري لها. تتلكأ قبل أن تنهض لتفعل. تسألها أن تخبرها ما فيه لأنها لا تجيد مثلها القراءة ولم تدخل إلى المدرسة. يحمّسها أن تعلّم جدتها وتكتب لها على ورقة بيضاء الكلمات بالفرنسية وتطلب منها أن تعيد لفظها من بعدها. تترجم لها القصص المكتوبة عن أميرات وساحرات شريرات، جاين تجلس في حضن جدتها منصتة بسعادة، تخبىء عينيها بيديها الصغيرتين عندما تواجه الأميرة خطراً، وتردّد «لا... لا» كأن ذلك سينقذها.

- 15 -

المطر يطرطق فوق سقيفة التنك. ماري توقد التنور. رائحة البلان تختلط برائحة مناقيش الكشك والزعتر. ترفع الفوطة المبلولة عن الوعاء. عندما يحمى لوح الصفيح تدخل المناقيش برفق إلى بيت النار. تحبّ أن تتأمل تلك الفقاقيع في العجين تنتفخ لتحمر في وقت قصير. تبدّل مواضعها بقضيب الحديد. المطر يغزر ويبلل ظهرها. رغم أنه الأحد لكنها لا تنام طويلاً. تستيقظ باكراً. أحياناً إن لم تنهض وحدها تتركها أمها لتنام قليلاً في يوم عطلتها. أمها تخبز عجنة كافية لأسبوع. هي تنشغل بالطعام وصونيا أختها تنظف البيت والقن. طعام الأحد يكون مميزاً عن باقي أيام

الأسبوع. تطبخ ماري الهريسة مستخدمة قوائم ورؤوس الفراريج التي تجمع من مرة إلى أخرى في الثلاجة. أو كبة بلبن وهي عبارة عن دوائر من البرغل والطحين والبصل مع اللبن المطبوخ والنعناع. لا تخبز المناقيش غالباً لتوفّر الطحين للخبز. الناس حولهم عانوا من انقطاع الخبز لفترة. كانوا يقصدون أمها وبعض النساء في الضيعة ويدفعون لهن لخبز الأرغفة. يأتون من صيدا ومن البلدات المجاورة. الأفران توقفت لفترات طويلة عن بيع الخبز. بعضها أقفل نهائياً. في البلدة التي تعلّم فيها اشتبك تنظيمان مسلّحان بسبب ربطة خبز. في كل مكان هناك من يموتون على أبواب الفرن.

تنظر إلى أمها تقلا تحكم المنديل المطرّز فوق رأسها. تحت أبطها سكربينة ملفوفة في كيس. تنتعل المشاية البلاستيك حتى تصل إلى مشارف الكنيسة العتيقة. ثم تستبدلها بسكربينة المناسبات. الساعة السابعة والنصف، والضوء لم ينقشع تماماً. أحياناً تعود تقلا حاملة خبز قربان يوزّع للصلاة على روح ميت وما أكثرهم مؤخراً. تقطع القربان إلى أربعة أقسام توزعها على بناتها. كذلك تفعل بضيافة الحلوى التي تقدّم لها في المستوصف. عادة لا يأتي إلى المستوصف الذي تعمل على تنظيفه كل يوم إلا مسنون فقراء. لكن من حين إلى آخر يجلبون امرأة حاملاً تعاني من مخاض صعب.

كثيراً ما تفكّر ماري بأمها التي صارت عجوزاً حتى قبل ترملها. العمل في الحقول تحت وطأة الشمس صبغ وجهها ببقع بنية وحفر في جبينها وحول عينيها تجاعيد عميقة. رغم أنها الآن في أوائل الأربعين تبدو محدودبة وضامرة كالعجائز.

تستفيد من الجمرات المتبقية في التنور لتسخّن بعض الماء للاستحمام. الطعام صيفاً شتاء يحضّر فوق الموقدة في الخارج. الغاز لصنع الشاي أو

القهوة عندما يأتيهم زائر. تذكّرت ماري الشجار الحادّ الذي حصل منذ أيام. أحزنتها هيئة متري. تمنّت لو ردّ على جورج فايد بلكمة بدل أن يسكت. حصل ذلك بعد الجنازة. كان متري يعزي أهل شارل عندما غضب جورج وراح يقول «هؤلاء أصحابك من ذبحوه. ماذا فعل هو؟ من أذى؟ هل هو يهودي، أهكذا يحرّرون فلسطين؟» هجم بجسمه الضخم كالضبع. الشباب أبعدوه وقالوا لمتري إن عليه أن يتفهم فشارل ابن خال جورج وهما تربيا سوياً. رأت متري يخفض رأسه ويبتعد مكسوراً. تستغرب كيف ينسى الناس بسرعة. لولا متري والشباب رفاقه لما نجا لا حليم ولا الياس من الخطف. ثم أليسوا من يؤمن للضيعة البنزين والغاز والمؤن المقطوعة. الناس بلا وفاء حقاً. هي لا تقول ذلك بسبب شعورها تجاه متري، بل لأنها تعرف أنه لولاه لقضى تهوّر بعض الشباب المتحمسين على الضيعة. كم مرة أراد جورج وأمثاله قطع الطريق للمطالبة بمخطوف أو للتضامن مع الدامور وغيرها. من عقّلهم؟ لا تدري سبب استعادتها لما حصل كأنها عاجزة عن طرد تلك الصور من مخيلتها.

عندما انتسبت إلى دار المعلّمين كان متري قد سبقها بسنة. صحيح إن موت والدها لم يزدهم فقراً لأن أمها تعمل مثله في الأرض لكنها ضاعفت المسؤوليات على تقلا وعلى ماري الكبرى بين أخواتها. المال الذي كانت تأخذه من دار المعلمين أثناء تعلّمها قد أعانهم رغم قلته. استطاعت تقلا أن تردّ الدين الذي ترتّب بسبب المستشفى واجراءات الدفن. لزمها أكثر من سنتين لتسدّ لأم جاك دينها. لا تزال أمها تحفظ جميل هذه السيدة التي تركت عائلة من الأولاد والأحفاد في أميركا لتعود إلى الضيعة حيث دفنت زوجها. كان بيتها هو الوحيد المبني من طابقين. تقلا تعتني بتنظيفه وبسقاية أشجار الحديقة حوله كما تنظف بركة الماء التي وضعوا قربها أرجوحة تجلس عليها أم جاك في الأماسي محاطة بأقفاص عصافير ملوّنة

وبأشجار يخشخش الهواء أوراقها. كثيراً ما وصفت تقلا جمال المكان لعائلتها. هم لم يروا منه إلا ما يبين من فتحات السياج. لا تدري ماري كيف تتحمّل أمها العمل في مكانين إضافة للحقل. أما البيت فتحاول أن تتولّى أموره مع أخواتها. حتى الصغرى توكل بمهام غسل الصحون ونفض الفرش والأغطية ثم طيها لتوضع خلف ستار من قماش في الزاوية.

في الوقت الفراغ القليل تحاول ماري أن تدرس منهاج العلوم الاختبارية. تريد أن تتقدّم لامتحانات البكالوريا. من يدري مستقبلاً. قد يصبح هناك فروع قريبة منهم للجامعة اللبنانية. مؤخراً سرت اشاعات حول فتح بعض الفروع في غير بيروت. تواجه صعوبة في دروس الفلسفة الفرنسية. لغتها الركيكة لا تسعفها في فهم الألغاز الفكرية. القاموس الذي استعارته من المدرسة لم يسهّل عليها تلك المفاهيم المعقّدة. متري أخبرها إن هناك معلمة لغة فرنسية قد تساعدها إن شرحت لها هي دروس العلوم. هكذا تتبادلان الخدمات. تعلّم في مدرسة رسمية في بلدة قريبة. مثلها تريد الحصول على شهادة البكالوريا.

بينما تدخل خرقة مبللة لتمسح الصفيح من آثار الزيت عاودتها خشيتها من أن تعيش حياة تشبه حياة أمها تقلا. تقنع نفسها أن ذلك موقت ريثما تنهي صونيا تعليمها. سنة واحدة وتحصل على شهادة البكالوريا. ماذا لو تزوجت صونيا. من سيساعد أختيها لوريس وبريجيتا؟ تنسى هذه الهواجس ما إن تسمع بريجيتا تستظهر غيباً درس التاريخ بينما تنفض غطاء الصوف فوق المصطبة.

تذكر كم ساعدها وجود متري معها في دار المعلمين. لا لأنها فقدت والدها للتو بل لأنها استغربت الناس من حولها.

في آخر كل شهر كان معظم الطلاب يقصدون المطاعم الشعبية احتفاء بالمنحة الشهرية. في البداية كانوا يلحون عليها لترافقهم ثم امتنعوا بعد أن

فشلوا في استدراجها. لم يكن بامكانها أن تصرف قرشاً من المنحة على نفسها. تراهم من زجاج المقهى الشعبي. على الطاولة أمامهم صحون الخضار والحمص والكفتة المشوية. تحبّ رائحة الفحم يحمّص قطع الدهن التي تختلط ببخار العرق. حتى عند الصباح تواكبها هذه الرائحة في طريقها إلى المعهد.

كان متري في المعهد مختلفاً عن الشاب المتحفّظ الذي تراه في الضيعة. لديه شلة من الأصدقاء الذين يقومون معاً بالنشاطات نفسها. يوزعون صحيفة على التلاميذ وعلى المارة في الشارع. هم منغمسون باستمرار في نقاش سياسي. يشاركون في المظاهرات. يدخلون في مشادات كلامية مع الناظر والمدير في كل أضراب. رغم بعدها عن المسائل التي تشغل متري كان يناديها كلما لمحها لتنضم اليهم. بداية كانت تبقى صامتة ثم أحبّت رفاقه الريفيين مثلها. نسيت ثيابها الرثة ويديها اللتين اخشوشنتا من العمل الشاق وفرك الثياب والقدور. لم تكن تشاركهم في اجتماعاتهم الحزبية لكنها كانت تساعد في توزيع المناشير والنشرات التثقيفية للكوادر. أكثر من كان يضحكها علي شحاده الذي يحكي عن أبيه، الذي، رغم فقره، تزوج أربع نساء وأنجب عشرات الأولاد. يقول إنه ينسى أسماء أخوته لا لكثرتهم فقط بل لتقارب أسمائهم «عوض عوضين حسن حسين حسنين حسني حسّان حسنا حسونه...»

حين تتذكره تنسى أنه مات في أول الحرب في الشياح.

تقول لبريجيتا بأنها ستساعدها بعد توضيب البيت بالمراجعة لامتحان الرياضيات. تتململ بريجيتا محاولة التهرب. تقول إنها درست جيداً للامتحان الفصلي. تعلم ماري أن بريجيتا صادقة لكنها لن ترتاح إلا بعد أن تختبرها بنفسها. لربما كان حظها أفضل. من يدري قد تدخل الجامعة.

لا تتدخّل بدروس لوريس لأنها متفوّقة. تستعير لها من الكتب القليلة

الموجودة في مكتبة المدرسة. تراقب النظرة في عينيها وقد لانت. صمتها يذكّر بوالدها. كأنه ولد أخرس ولم يتعلّم إلا كلمات قليلة. تذكره مقرفصاً أمام الشتول ولفافة التبغ تحترق بين شفتيه، يتركها في فمه لتنطفئ وحدها. لم تسمعه يوماً رافعاً صوته. قبل الضوء يخرج إلى الحقل مع أمها ولا يعودان إلا أول العتمة. شتاء يعمل في كل ما يعرض عليه. في المعصرة. في نقل المواد لورشة عمار. قبل موته كان يعمل في ورشة بناء الكنيسة الجديدة. منذ بداية الحرب توقّف العمل على بنائها. من يتبرّع الآن والحرب دائرة.

الكنيسة القديمة ما عادت تتسع للمصلين. الآن يقيم الخوري قداسين خصوصاً بعد استقرار بعض العائلات البيروتية في الضيعة. أعداد المصلين تتزايد والكنيسة تضيق بهم.

ماري لا تقصد الكنيسة إلا في المناسبات. أمها لا تصرّ على بناتها لمرافقتها. تقول إنهن كوالدهن الذي عجزت طوال حياتها عن جرّه إلى قداديس الأحد. حتى صلاة «أبانا الذي في السماوات» لا يعرفها.

جارتهم الآتية من بيروت تطلب أن تستعير مطحنة البن لنصف ساعة وتردّها على الفور تقول. تنظر ماري إلى زوجة ملحم المتلفعة بروب الصوف، ترتبك. تعلم أن أمها حريصة على أغراض البيت. منذ شهرين استقر جيرانهم في بيتهم الصيفي المحاذي لهم. وهم مذّاك لا يكفون عن استعارة أغراضهم. كل ليلة يمتلئ بيتهم بالزوار كأنهم لم يتهجروا ولم يفقد زوجها عمله في أحد فنادق الأسواق التجارية. الموسيقى والضحكات تمنعهم من النوم. لو كانت أمها هنا لما ارتبكت لقالت إنهم أعاروا المطحنة لأحد.

كثيراً ما تقارن ماري بينها وبين البنات من عمرها. فتجد أنها غريبة بشكلها وبأحاديثها.

زينب الوحيدة التي حاولت أن تتقرّب منها حقاً. في البداية من أجل تسهيل لقائها بمتري ثم تحوّلت مع الوقت إلى صديقة. يوم شذبت لها زينب حاجبيها خجلت ماري من رفع رأسها والنظر في عيون الناس. ظنّت أنهم كلهم سيلحظون ما فعلته. أربكها كيف ستواجه زملاءها في العمل. لكن أحداً لم ينتبه. وحدهن تلميذاتها تهامسن وتبادلن النظرات المبتسمة. احمرت خجلاً ولم تعرف كيف تنهي حصتها. كأنها واقفة عارية بينهم.

المدرسة مقفلة منذ يومين. القذائف التي سقطت في الطرقات أخافت الأهالي. نيران الاشتباكات في البلدة القريبة قد تطالهم.

يتوقّف المطر. تفتح الشباك لتهوئة الغرفة. تبعد بيدها بزّاقة تزحف فوق افريز النافذة. تردّ على تحية امرأة مارة. لا تميّز من هي. كلهن يتشابهن في اللباس والمشية. بعد عمر معيّن يصبح الأسود لباسهن. أمها الوحيدة التي قطعت فترة الحداد. تلبس ما تعطيها إياه أم جاك.

- 16 -

ساعات مرّت وكارلا لم تنبس بكلمة. على الحواجز رأت مسلحين يشربون الشاي ويأكلون المناقيش. بدوا سعداء كأنهم يعيشون يوماً مميّزاً. تبادلوا النكات مع السائق. سألوه ماذا في صندوق السيارة غير القنابل. لوهلة أجفلتها النبرة الحادة. لم يطلبوا منها أوراقها. الشاب الذي يرافقها يحمل ورقة مهمة حزبية. عندما علمت من سيرافقها تردّدت ولم تسألهم كيف تثق بشخص غريب. في واحد من الأحياء رأت ولداً أصغر من ابنها روبير يحمل رشاشاً ويصوّب باتجاه كلب أعرج. ليس مشهداً غير مألوف. لكنها في هذه الشوارع التي لا تعرفها تترقب الخطر وتراه يحيط بها.

تتجاهل النظرات وتشدّ المعطف الأسود حول جسمها. تتكوّر في المقعد الخلفي ملتصقة بالباب. يضيّفها السائق سيجارة. تشكره مدعية أنها لا تدخّن. الشمس طالعة لكن جسمها يرتعش من البرد. تندم لأنها جاءت. ماذا لو لم يلاقها ابن عمها؟ ليست معتادة على أن تواجه الأمور وحدها. حتى تدريس الأولاد كان انطوان من يشرف عليه. في البداية جرّبت ووجدت أنها عديمة الصبر. يقول أنطوان أنها تكرّه الأولاد بالتعلّم لكثرة ما تصرخ فيهم. الاجتماعات المدرسية، دفع الأقساط والمعاملات المصرفية، حتى شراء الأغراض، مهمات يقوم بها أنطوان أو الخادمة. الخادمة تقصد اللحام والبقال، توقظ الأولاد صباحاً. تنتظر قدومهم من المدرسة في مدخل البناية، تحممهم، ترافقهم إلى أسرتهم. الآن لا تعلم ماذا حلّ بالخادمة. الجارة تطوّعت لايوائها إلى حين عودتهم إلى البيت. لم تعلم أنها ستغيب لشهرين. ترتبك إذ تتذكرها. ماذا لوكان عليها أن تدفع لها تذكرة السفر. لم يخبرها أنطوان شروط توظيف سونيلا. أو أنه فعل ولم تكترث. حتى لو تمكّنت من بيع السيارة وبعض أثاث البيت. إلى كم من الوقت سيكفيهم ذلك. ابن عمها قال لها على التلفون ألا تتأمل كثيراً. الناس يبيعون ما لديهم بأزهد الأثمان. من يشتري في وقت يستطيع أن يحصل فيه على كل شيء بالمجان أو بالسرقة؟ أخبرها أنه أصلح السيارة وبدّل الزجاج الذي حطمته الرصاصات، وأنها الآن تبدو خارجة من الشركة لتوها. حتى أنه وجد لها شارياً. لا ينقص إلا أن توقع عند كاتب العدل، ستبيع السيارة بموجب وكالة. عندما اعترضت على سعرها، قائلة إن السيارة من الشركة جديدة عمرها أقل من سنتين. ردّ إن عليها أن تكون ممتنة لايجاده شارياً. السيارات أكثر من الهَمّ على القلب وبالمجان في المنطقة. من معه مال يحرص عليه ولا يصرفه فالدنيا حرب. أبو أنطوان قال لها أن تتكّل على الله وتبيع، ذلك أفضل من أن تترك السيارة مركونة بلا

رقيب. قد تسرق أو تصاب بقذيفة. ثمنها سيغطي تكاليف سفرتها واقامتها في كندا.

حتى السفر لم تقرّره من تلقاء نفسها. استمرّ أهلها يتصلون بالأقارب لاقناعها. بعثوا برسالة ثانية. سألوها عن مخططاتها لحياتها ولحياة الأولاد وهل هي عازمة على البقاء عند حمويها؟ طوال حياتها لم تضطر إلى أخذ أي قرار. كانت الابنة الوحيدة بين أخوين. دلّلها الجميع ونفّذوا رغباتها بمقدار ما سمحت به ظروفهم. لم يعانوا الفقر لكن كل شيء كان محسوباً بدقة. في المدرسة لم يضغط أهلها عليها. اكتفت بالقليل من الجهد. كانوا فخورين بها لأنها أفضل من أخيها اسكندر الذي رسب عدة مرات. سجّله والده في المهنية لتعلّم المحاسبة لكنه رسب أيضاً فأتى به إلى الكاراج ليعلّمه تصليح السيارات. أراد له مهنة نظيفة لا تتطلّب كل هذا التعب. أخوها سالم حصل على شهادة البكالوريا بعد أن رسب في امتحاناتها لأربع سنوات في سبع دورات. ما أبعده عن التفكير بالدراسة الجامعية. تقدّم لامتحانات المدرسة الحربية لم يُقبل فانضم هو الآخر إلى والده في العمل.

كأنها لم تعش طوال عمرها في بيروت. لا تذكر أنها رأت هذه الأنحاء لا في طفولتها ولا في شبابها. تذكر الحمرا جيداً. كان لأنطوان صديق يسكن قريباً من مستشفى الجامعة الأميريكية حيث يعمل. تعرف كورنيش المزرعة والروشة والمنارة. تحبّ منطقة الأسواق.

الركاب في السيارة ينزلون قبلهما. كلما اقتربوا من المعبر ازدادت حدّة الأصوات. قفزت مرات كثيرة ظناً منها أن الرصاص يستهدفهم. السائق يحاول ضبط ابرة الراديو ليسمع نشرة الأخبار. لا يطلع إلا وشيش. مرافقها يسحب من كيس ورقي سندويشاً يدعوها لمقاسمته إياه. رائحة الخيار واللبنة تفوح وللحظة تقوى على رائحة الكاوتشوك المحروق. أضحكها

أن يحمل زوادة كأنه في رحلة. تنتبه له لأول مرة. ساقاه النحيلتان بدتا أكبر من جذعه، له لحية خفيفة تركها دون تشذيب. جنبه جريدة مطوية عكف طوال الطريق على تصفحها وقراءة ما فيها. ذكّرها ذلك بخبر مقتل أنطوان الذي نشرته صحيفة النهار. رغم أن حمويها لا يجيدان القراءة احتفظت أم أنطوان بالجريدة التي أحضرها زوج برناديت. تنظر إلى صورته المنشورة قرب الخبر وتبكي.

تمشي كالضائعة بين السواتر الترابية والأكياس. التراب الرطب لطّخ سكربينتها. أكياس تتطاير وتعلق بشعرها. تطفر الدموع من عينيها. لا تراه بين الوجوه القادمة باتجاه المعبر. لا تعتاد أذناها أزيز الرصاص وخرطشة الرشاشات. عجوز في مشاية بلاستيك ينبش مكباً لم تجمع نفاياته منذ زمن. يسحب قميصاً بمربعات حمراء وصفراء. يرفعه أمام عينيه ثم يضعه تحت ابطه. ينظر نحوها بعينه السليمة. العين الثانية زرقاء فاتحة لا يظهر بؤبؤها. سيارات متفحمة في الزاروب.

صوته يناديها بعث فيها فرحاً. ردّت عليه بلهفة فاجأته. لم تعترض عندما اصطحبها إلى بيته. لكنها عندما رأت زوجته ندمت. كأنه باغتها باحضارها.

في اليوم نفسه قصدا كاتب العدل وباعت السيارة.

طلبت أن يوصلها إلى بيتها. كان كل شيء فيه على حاله. ثياب النوم ملقاة كيفما كان على الكنبات. أكواب جفّ الحليب المترسب في كعبها. نمل تجمع عند حواف المجلى. أدراج منبوشة ومفتوحة في غرفة النوم. جلست في المطبخ تنظر من الشباك المسدود بأكياس رمل. سيكون عليها أن تفرغ البراد والخزائن قبل أن تشحن غداً إلى المستودع. لم تسمع ما قاله عن رهن البيت.

انطوان رأى البيت وحده أول مرة. أحبّ اطلالته وحديقة البناية وهدوء

الحي. عندما زارت البيت هي كان قد وقّع الأوراق مع المصرف.

كانت على خلافه تتمنى أن تعيش كالآخرين فتذهب إلى المطاعم والمسابح في أيام العطل وتسهر كجيرانها في أحد الملاهي. ثم لماذا لا يسافرون إلى أي مكان كالآخرين. عندما تسأله يجيب أنه ينتظر طوال الأسبوع يوم عطلة ليرتاح من الناس ومن الزحمة. ينسى أنها على خلاف زياراتها لأهلها وللحلاق والأسواق لا تفعل شيئاً. يقول لها أن تتسجّل في الجامعة لأن ذلك سيشغلها ويفيدها. كأنها الجملة التي تشعلها فتجافيه لأيام. «أتراني غبية ودون مستواك؟» تسأله وكل ما فيها يرتعش غضباً. تتذكّر ذلك وتتمنى حقاً لو أنها تسجلت في الجامعة. لربما وجدت الآن عملاً تعيل بواسطته أولادها. متري اقترح عليها أن تعلّم الفرنسية بما إن كل المدارس تعاني من صعوبة في ايجاد معلّمين لهذه المادة.. لم تقل له إنها لا تجيد منها إلا القليل. امّحى كل شيء من ذهنها. لم تكن تفهم مسائل الرياضيات التي يطلب من كاميليا حلّها. عندما تسألها تجيبها إن عليها الانتباه في الصف والاعتماد على نفسها.

لو تنام في سريرها وعندما تفتح عينيها تجد أنطوان هنا مستغرقاً في النوم. الهالات السوداء تحيطان بعينيه كأنهما نظارتان. كانت جاين تمرّر اصبعها فوقها وتسأله «ما هذا بابا؟» يجيبها بقصة عن كونه كان سابقاً ببغاء ثمّ حوّلته ساحرة مهضومة مثلها إلى أب ونسيت أن تمحو الهالات حول عينيه.

القصف الذي انفجر فجأة أبعدها إلى الحمام جهة الدرج. هناك اعتادوا أن يختبئوا. لم تدر إن كانت الانفجارات أقوى من العادة. أم أنها بسبب غيابها لشهرين نسيت تلك الأصوات. انفجار آخر وصراخ قوي جهة الدرج. تفتح الباب وتهرع إلى الطابق السفلي دون وعي. تجد نفسها محاطة بالوجوه التي تعرفها. كانوا صفر مذهولين حولها. قالوا

إنهم لم يعلموا بشأن عودتها. قبل أن يصلوا إلى المستودع دوى انفجار آخر. صاروا كأنهم جسم واحد يصرخ ويبكي في الآن نفسه. لم يعرفوا أن القذيفة أصابت غرفة نوم في البناية قربهم. أحسوا أن بنايتهم تسقط فوق رؤوسهم ويطمرهم ردمها. الهدوء يدوم لدقائق يتبعه قصف أعنف. تسمعهم يحكون عن اقتحام الشرقية وعن معارك الفنادق. ماذا لو علقت هنا ولم تتمكن من توديع أولادها. تخفي دموعها متأملة رسوماً وخطوطاً رسمها الأولاد على حيطان الملجأ. لم ينزل أنطوان أبداً إلى الملجأ لا هو ولا أبو ادوار جارهم في الطابق. لكن ما إن يسمع قصفاً حتى يرسلهم إلى أسفل نصف نائمين.

في اليومين التاليين لم تترك الملجأ إلا لوقت قصير. أرادت أن تتصل بأحد الرقمين اللذين أعطيا لها. لكن الخطوط مقطوعة تماماً. قالت لها جارتها بأن تجرّب من تلفونهم لكن النتيجة نفسها. في الملجأ تجلس في الزاوية المخصصة لهم. ثياب نوم، وعلب حليب، ودفاتر تلوين. كتاب علوم لروبير. علبة فيها أدوية ومراهم. وسائد وفرش مطوية. تنظر إلى سونيلا وقد تعوّدت على العائلة الجديدة. هَمٌّ آخر انزاح عن ظهرها وإلا كان عليها أن تدفع تذكرة عودتها إلى الهند.

- 17 -

يمسك روبير يد كاميليا بقوة. لا تقول له إنه يوجعها. في اليد الأخرى كيس وضع فيه كتبه. وكذلك كاميليا. جدتهم قالت إن لا داعي لشراء حقائب بما أنهم سيسافرون بعد عودة أمهم.

ينظر إلى الزهور التي ملأت الحقول. يرى جبوب زعتر لم تُقطف بعد،

سيدلّ جدته عليها قبل أن يسبقهم أحد ويقطفها. اعتادوا الآن على طعم الأعشاب(هكذا كانوا يسمونها) وباتوا يعرفون أنواعها ويساعدون على قطفها.

المدرسة الموقتة التي يذهب اليها روبير مع أخته لا تشبه في شيء مدرسته القديمة. صفوف ضيقة عارية الأرض والجدران. لا ملاعب فيها. ينحشرون جميعاً تحت سقيفة ضيقة عندما تمطر. أو يتمشون في الصحو فوق طريق ترابية تحيط بها البيوت من كل جانب. في الصف يشمون رائحة الأطعمة التي تعدّ. غالباً ما تكون متشابهة. إن كثر الملفوف فرائحته ستدغدغ أنوفهم. عندما يمرّ بيك آب منادياً على السمك يعلمون مسبقاً أن رائحة السمك المقلي سوف تحرّك شهيتهم وتشتّت انتباههم.

المدير نقولا أخبر جده إنهما متفوقان. لم يقل روبير لجده أن الدروس أسهل بكثير هنا. أفرحته النظرة الجديدة التي يرمقه بها. أيام المطر يأتي فان يوصلهما مع غيرهم من التلاميذ. أعطاه جده مالاً احتياطياً يبقيه معه لمثل هكذا ظروف. في الصحو يمشيان لنصف ساعة قبل أن يصلا إلى مشارف «المروج». هكذا يسمي الناس المكان الذي يسكنه جبرايل وعائلات قليلة من أبناء عمومته. بعضهم يظنّ « المروج» ضيعة. لا يعرفون أنها أرض تابعة للقرية المجاورة حتى لو كانت بعيدة عنها.

ما إن يصلا حتى تستقبلهما جاين بالهتافات. كأن عودتهما مفاجأة لم تتوقعها. منذ مرضت خفّ وزنها حتى صار بامكان روبير حملها والركض بها محمولة فوق ظهره. في الأيام التي تلت سفر كارلا مرضت والتهبت الشعب الرئوية لديها. صديق متري كالعادة كان يتفقدها أكثر من ثلاث مرات ويأتيها بأدوية من مركز النجدة الشعبية. هند تنيمها قربها ليلاً. تخشى عليها من الحمى ومن الهلوسات التي تجعلها تصرخ وتبكي. تداوم على وضع الفوط المبللة فوق رأسها وبطنها. منذ مرضت اعتادت على النوم

قرب جدتها. لا تغفو إلا حين تمسك بذراعها. تسأل عن أمها مراراً في اليوم الواحد. تحرص هند على اعادة الكلمات نفسها حرفياً لتطمئنها. إن بدّلت كلمة، ترى نظرة الشك والخوف في عينيها. تسألها أين كندا تجيب أنها بعيدة. يريها روبير إياها على خريطة في كتاب الجغرافيا لكن ذلك يزيد حيرتها. مرّة سألت إن كان والدها أنطوان في كندا أيضاً. لم تتمكن هند من الرد عليها. تردّدت ولم تعلم إن كان عليها ان تصحبها مع الأولاد إلى الخشخاشة للصلاة. لكن من أين تجد القوة لفعل ذلك. جبرايل يذهب وحده. زرع هناك سرواً ورياحين وزنابق قال إنها المفضلة عند أنطوان.

بعد المدرسة يساعد الأولاد على قدر استطاعتهم في أعمال الحقل. بات بامكان روبير أن ينكش دون أن يتعب بسرعة. يميّز الأعشاب الضارة عن غيرها. كما يعرف عندما تبدأ الأمراض بضرب المزروعات. تعلّم التطعيم ونصب الأعمدة لتعربش عليها بعض المزروعات. تبدّلت لهجته البيروتية الصرف. ما عادت الفرنسية تخالط كلامه.

يخاف روبير عندما يرى جده متعباً يمشي بثقل وغير قادر على أن يستقيم. لو كان أقوى لحمّل الصناديق على ظهر الحمار بدلاً منه. يزعل لأنه يفشل مراراً وتكراراً في تقطيع الحطب. يرى جده يفلع الخشب بضربة واحدة من الفأس.

جاين تقلّد أخوتها فتأكل ما يأكلون لكنها تكتفي بالقليل. تتأملها هند بطرف عينها. لا تحاول أن تلحّ عليها لتأكل وإلا امتنعت نهائياً. تخاف النظر اليها. كأنها نبتة صغيرة تلوّحها الريح. المرض أفقدها الكثير من الوزن. تغمّس لقمة الخبز في جاط اللوبياء بزيت. ترفع لقمتها وليس فيها إلا صلصة البندورة. تسقطها فوق ثوبها قبل أن تصل إلى فمها. تنظر كاميليا إلى جاين. تقطع رغيف المرقوق تضع فيه جبنة بيضاء وزيتوناً ونعناعاً. تقسمه إلى جزأين. تأخذ جاين السندويش الصغير. تأكل مثلها قضمات

متناهية الصغر. لا تتعجلها كاميليا رغم جوعها.

عوّدتها على أن تحمل لها شيئاً كلما عادت من المدرسة. أحياناً تحتار. ماذا تجلب من المدرسة؟ لكن جاين تفرح بأي شيء: طبشورة، قلم، أوراق بيضاء لترسم عليها، علكة. مرّة أعطتها علبة سردين فارغة وجدتها في الطريق، قالت لها ستضعان فيها تراباً وتزرعان البصل. أغرقتها بالماء فزعلت لأن النبتة لم تعش. بعد ذلك علّمتهما هند على زرع البصل والنعناع وشتول البندورة في الحوض. صارتا تعلمان متى تحتاج إلى سقاية. تقوم كاميليا بأعمال كانت تثير قرفها سابقاً، كأن تجمع روث البقرتين والخروف وتكنس القن لتجمع السلح في خربة بعيدة بعض الشيء عن البيت. روبير يساعد جده لاحقاً في توزيعها على الشتول والشجرات لتغذيتها. مع بدء الصحو يذهبون مع جدتهم لقطف الزعتر البري والخبيزة والقرص عني ولسان الثور والهندباء البرية. تصيح جاين لجدتها بسعادة ما إن تجد شيئاً منها. غالباً ما تكون عشبة برية لا تؤكل لكنهم رغم ذلك يهنئونها على شطارتها. عندما تبكي جاين مطالبة بأمها يحاول الجميع الهاءها، ينصبون لها في شجرة الزنزلخت أرجوحة. أو تمشّيها هند قائلة: سنقوم بنزهة وحدنا.

التقط روبير بلبلاً. أعطاها إياه. التمعت عيناها وسألته إن كان هو عصفورها حقاً.

ساعدوا جدهم كلهم في صنع قفص كبير من قصب. أول شيء صارت تفعله جاين عندما تفتح عينيها هو تفقد البلبل. يقف فوق كتفها عندما يخرجونه لتنظيف القفص. تحادثه ساعات. تسمعها هند تخبره عن كندا. مرّة سألته إن كان يعرف والدها. لتسهّل عليه أضافت إن أباها كبير وقوي جداً وحلو ويشتغل في المستشفى ويصحّح المرضى. ألا تعرفه تسأل البلبل مراراً وتكراراً.

في المدرسة اعتاد روبير أن يبحث عن كاميليا في الفرصة. عندما يراها بين رفيقات صفها يبتعد ثانية ليعود إلى حيث الصبيان. رغم كون المدرسة مختلطة لا يقف صبي مع فتاة أو يحكي معها. الأكبر عندما يفعلون يرمقهم الناظر بغضب، فيعودون إلى حلقتهم.

أحياناً يشتاق روبير إلى مدرسته القديمة. كان يحبّ فريق كرة القدم والتدرّب صباحاً عند الخامسة والنصف. يتذكّر حماسته عندما يتغلّبون على فريق سيدة الجمهور لأنهم أكثر من يخشون في المنافسات. كان والده يوصله أيام التمرين لا الأتوكار. يشتري له في الطريق كنافة كما يحبّها مغمّسة بالقطر تذوب الجبنة فيها وتمغط. كان يضحك أبوه وهو يراه يأكلها. يسأله: «ألا تضجر من الكنافة؟» هو لا يضجر بالطبع حتى لو أكلها كل يوم.

أول مجيئهم إلى «المروج» كانت تسألهم جدتهم عن الأطعمة التي يحبونها لتطبخها لهم، خصوصاً وأن جاين تكاد لا تأكل شيئاً. زعل من كاميليا عندما قالت إنه يحب الكنافة. رمقها بعتب فسكتت على الفور.

- 18 -

الحبيب متري

انتظرتك طوال ساعتين. وقفنا في البرد نحدّق في المفرق الذي تطلّ منه. لم تأت.

أكتب لك بسرعة الآن قبل أن يأتي أخي أحمد. لو حدست أنك لن تأتي لذهبت إلى بيتك. حتى اللحظة الأخيرة توقعت أن تطلّ منادياً «زنوبه».

ضجرت من الحذر. حتى في البيت أتلفّت يميناً وشمالاً. أتكلّم همساً. أخشى الناس وأشكّك بنواياهم. صار ذلك طبيعة فيّ. عندما تقول لي أمي شيئاً عادياً أردّ عليها بعدائية وأسألها عن مقصدها. أحسّ أن العالم بكامله يترصدني. أخاف من أن أضحك لأنه يحدث لي بعدها أمر سيئ. أليس هذا ما يحصل دائماً؟ لا تقل إنها صدف عادية. الكون كله ضدي.

لا أدري كيف تزعل مني. إنها المرّة الأولى التي لا تأتي فيها للقائي. سألت ماري ألف مرّة وأكدت لي أنها أعلمتك. تزعل مني على ما لا أختاره؟ ربّما خطئي أنني أخفيت الأمر عنك. لم أقصد إلا اراحتك من همّ اضافي. أعجز عن جعلك تفهم ظروفي. أخطأت ماري بإخبارك. كان عليك سماع ذلك مني. أنا لم أتغيّب عن المدرسة الخميس بهدف تهيئة نفسي لاستقبال الناس. كيف يخطر لك أنني سعيدة؟ ما همّي عمره وماله؟ لكنّ شجاري مع أبي وأخي أمرضني. قضيت الليل أفكّر بما عساي أفعل. للحظة فكّرت بالهرب إلى بيتك وليحصل ما يحصل. لكنني جبنت. أعرف جيداً ما هم قادرون على فعله. لو تسمع ما يقولونه. أخي رفع صوته بي كالمجنون. كل الجيران سمعوه. ولولا أمي لكان ضربني. يقول إنني صرت في الواحدة والعشرين، ماذا أنتظر. أم أن في بالي أحداً ما؟ وأنهم صبروا كثيراً عليّ وعلى دلعي. هذا غير متعلّم وفلان كبير في السن وذاك مطلّق مرتين... كان ينظر إلى أبي ويردد «أكيد في بالها شيء تخفيه. مم يشكو هاني؟ متعلّم أكثر منك وغني وسيعيشك كملكة. بصراحة لا أعرف ماذا يرى فيك؟» أسكتته أمي لكنها ليست أحسن منه.همست لي «اشكري ربك صبحاً ومساء على هذا الحظ» قلت إنني لا أعرفه. صرخ «ماذا تقولين؟ كيف لا تعرفينه؟». قلت إن رؤيته من بعيد لا تعني أنني أعرف عن أخلاقه.

لم أقل شيئاً بعد ذلك. بم سينفعني. سبق ووافقوا على الزيارة. رغم خوفي كنت أحسّ أن الأمور لن تسير كما يتمنّى أهلي. لماذا سيختار واحدة

في عمري في حين ألف بنت أصغر مني قد تعتبره عريساً استثنائياً. كما لا أظن أن حديثي قد أعجبه أو أعجب والدته قريبة أبي.

متري حبيبي. ألا يكفي ما يصنعه هذا العالم بي؟ لولاك لما نهضت صباحاً ولما رأيت نور الشمس. كيف يخطر لك أنني قد أحتمل أن ينظر إليّ أو أن يلمسني غيرك.

اليوم وجدت صعوبة بالغة في اقناع أحمد أخي ليوصلني عند ماري. لوكان حسن في البيت لما تمكنت من القدوم. الأيام تبدّله نحو الأسوأ. لم يكن ينقص إلا هذه الحرب. أبي يصدّقه ويوافقه على كل آرائه وكذلك حال مهدي وعبّاس. حسين أراح رأسه وابتعد. لكنه هو الآخر يتجنّب مواجهة حسن. يكتفي بقلب عينيه امتعاضاً وتبادل نظرة تواطؤ معي. عندما أقول له أن يأخذني معه إلى بيروت أطبخ له وألتحق بمدرسة هناك، يدعي أنه يتقاسم السكن مع رفيق له والمكان بالكاد يتسع لهما، ثم يقول: هناك الحرب.

حين أهرب إلى بيت أختي ماجدة لا أجد عزاء. أراقبها غارقة في أعباء تفوق قدرتها. أصغر منّي ولديها أربعة أطفال في بيت تتقاسم غرفه مع سلفها وعائلته. أضيق بالشجار بين الأولاد أو بينها وبين زوجة سلفها. هكذا وجدت نفسي أعود إلى البيت ثانية. لكن أتعلم ما الذي يجعلني أحتمل؟ أنني سأراك وأضمّك وأقبّل عينيك وأنسى أنّ هناك وقتاً وعالماً خلف الباب.

الوقت يكاد ينفد. عذراً على سوء خطّي. كما قلت لك أكتب بسرعة. ها أحمد يطلق زموره. لا تقسُ عليّ ولا تزعل قبل أن تسمع ما لديّ لأقوله. أراك في المدرسة يوم الاثنين. انتبه لنفسك.

- 19 -

نغمات العود تبتعد تدريجياً حتى يكاد لا يسمعها. يسكب كأساً دون ثلج. قدماه تعجزان على حمله إلى المطبخ ليأتي بقنينة ماء. فارس غفا جالساً على طراحة في الزاوية. رأسه محني إلى جهة اليمين ينظر ميشال إلى متري وبطرس يتحدّثان. لا يدري من أين لهما القوة على مواصلة كل هذا الكلام. لا يفهم من حديثهما إلا كلمات تتبعثر دون معنى «تل الزعتر السوريون كمال جنبلاط.» طنين يتواصل في أذنيه. زاده الشرب صمتاً منذ علم من متري أنه لم تصل أي منحة باسمه شعر أن كلّ شيء عبثي بلا طعم. كل الأحلام التي حملته بعيداً عن هنا تلاشت. هذه السنة الثالثة على التوالي التي يعدونه فيها بمنحة. لا يهم إن كانت في الطب أو الهندسة، المهم منحة. يرى المنح تذهب إلى غيره. منح إلى الاتحاد السوفياتي إلى رومانيا وألمانيا. ما يزعجه حقاً أن كثيرين بينهم مجرّد أصدقاء للحزب. ليسوا مثله منتسبين إليه. لم ينتقلوا من بيت إلى آخر لبيع جريدة الحزب. لم يسمعوا شتائم الناس. لم يسهروا في نوبات حراسة. لم يتطوعوا في مراكز للمهجرين. لم يعملوا مرافقين. يحمرّ وجهه بسبب غضبه الداخلي. يحسّ بالألم في فكيه المشدودين.

في الواحدة والعشرين ولا يزال يأخذ مالاً من أمه. الثانوية التي تطوّع فيها لتعليم الكيمياء للصف الأول الثانوي تعطيه بدل نقليات من صندوقها. وعده متري أن يدبّر له مدرسة تدفع له راتباً شهرياً. المدارس تعاني من نقص في اختصاصات معيّنة. يحاول أن يمشي من وإلى الثانوية. لا تبعد أكثر من أربعين دقيقة. لكن ماذا يفعل أيام المطر.

يشرب من كأسه. العرق بات خفيف الطعم. شربوا قنينة النبيذ التي أتى

بها جواد مسلماني. ثم من العرق الذي يقطره والد بطرس بنفسه.

يستمرّ جواد بالغناء وحيداً. في بداية كل سهرة يرجونه مراراً ليغني لكنه لا يقبل، ثم بعد كأسين لا يتوقف. كأنه يصير داخل عالم لا يراه غيره. لا يهتم لهم منغمسين في نقاشاتهم. حتى عندما يفتحون الراديو متنقلين من اذاعة إلى أخرى يستمر بالدندنة. هم اعتادوا عليه. لذلك إن أرادوا سؤاله أو الاستعلام منه عن رفاقهم في الجبهة يفعلون في بدء السهرة.

الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل. يفكّر ميشال بالنهوض لكنه لا يقوى. سينتظر متري ليترافقا، ليس متأكداً من توازنه مع أنه معروف عادة بقدرته على تحمّل المشروب. ليس كحسيب الذي لا يترك سراً إلا ويكشفه بعد الكأس الأولى. كانوا يظنون أنه يفعل ذلك لاضحاكهم لكنّهم اكتشفوا لاحقاً أنه ينسى كل ما فعل وكل ما قال في اليوم التالي. «زيدان أنذهب؟» يسأله متري فيما يودّع الآخرين الذين سينامون عند بطرس.

رفاقه يسمونه «زيدان» لا ميشال. الأولاد في المدرسة كانوا ينادونه «ميشال ورده». تسمية كانت تغيظه وتدفعه للبكاء ولمعاداة الأولاد. الكل في الضيعة يعرفه بهذا الاسم. لا لأن أمه ورده قوية بل لأن والده هجر أمه وميشال لا يزال في الثانية من عمره. تولّت وحدها تربيته. بعضهم قال إن والده لحق أرتيستاً مصرية وهو يعيش معها بالحرام ولديه أولاد منها. آخرون قالوا إنه سافر إلى استراليا مع أرملة أكبر منه بعشرين سنة. تعرّف إليها وهو يعمل سائقاً عند ابراهيم برتي. منهم من يقول إنه في السجن لأنه طعن شخصاً في خلاف اثر خسارته في لعبة القمار. في البدء بحثت عنه ورده وقصدت حي السريان حيث استأجر غرفة مع ثلاثة آخرين من الضيعة. قالوا إنهم لم يروه من شهرين. لم تجد له أثراً لا في السجون ولا في المستشفيات. قصدت كل من يسكن بيروت من أهل الضيعة. كأنه تبخّر.

عملت قاطفة لقاء مونتها من الزيت والقمح والعنب. كما باعت البيض. لكن كم ستبيض ثلاث دجاجات. أخوها أقرضها ثمن بقرة لقاء تنازلها عن حصتها في ميراث والدها. هكذا صار اسمها «ورده بياعة الحليب» مع الوقت صار لديها ثلاث بقرات. الجبن البلدي الذي تعدّه لا أحد تذوّق أطيب منه. بعد سنوات توقّفت عن التنقل من باب إلى آخر لتبيع اللبن والحليب، صار هناك دكاكين تشتري منها ما تعدّه، خصوصاً الجبن. الناس يسمونه «جبن ورده».

كانت ورده رغم انشغالها صارمة في تربية ميشال. لم تسمح له بالتغيّب طوال النهار كرفاقه للعب في الحقول والساحات وصيد العصافير بالدبق. تناديه وهي تعمل ليسمّع درسه. تقول إنه لم يحفظ جيداً. دائماً غير راضية. لم يعرف إلا بعد العاشرة أنها لا تقرأ ولا تكتب. تعجب كيف تمكّنت من خداعه طوال هذه السنين.

في سنين مراهقته عندما زادت حدّة شجاراتهما، صار يفكّر بوالده. رسم له صورة خيالية يلجأ اليها كلما تعب أو تشاجر مع أمه. يتصوّره كالأستاذ بيار مدرّس الرياضيات يرتدي بدلة وحذاء لامعاً. شعره مصفف ولامع لا تبن ولا قش بين خصلاته. لا يشبه الفلاحين بأقدامهم وأياديهم الخشنة والمشقّقة، ولا في رائحة ثيابهم التي تفوح منها رائحة العرق والبهائم.

يحاول ميشال أن يسير مستقيماً لكنه يترنّح ويفقد توازنه. يسنده متري. يسيران وسط صمت تام. يرفعان أقدامهما بحذر كي لا توقظ خطواتهما النائمين. القمر البدر مختف خلف غيمة. يتهامسان فتخرج الكلمات متعثرة من فم ميشال. الهواء البارد يوقظه. يرخي قبضته المشدودة. يسمعان صوت انفجارات بعيدة. يجلسان في العتمة على افريز أمام بيت ميشال. يهبّ الهواء محمّلاً برائحة زبل البقر. الهواء يخشخش أوراق التينة.

-«ألا زلت زعلان؟»

- « أكيد زعلان. أيّ مستقبل لديّ هنا؟ لا عمل لا جامعة أدخل اليها. لا مال لأذهب إلى الجامعة اللبنانية في بيروت. هل سأتكل على أمي وآخذ مالها. إلى متى؟»

- «لا تكبّر المسائل. سأجد لك مدرسة تدرّس فيها. من يدري قد يُفتح في منطقتنا فرع للجامعة في هذه الأثناء فتدخلها.»

-« ما يغضبني أنني أستحقّ أكثر من الذين يعطونهم منحاً. سمعت أنهم يدفعون ثمنها. إن كان الأمر كذلك فليقل لي أبو صقر بدلاً من أن يكذب عليّ سنة بعد أخرى.»

سمعا خطوات ورده في الداخل. قامت حين تناهى إلى مسامعها همسهما. خرجت ووقفت في ثوبها الذي جعده النوم. نظرت إليهما ثم رفعت بصرها إلى النجوم الوامضة في السماء. قالت شيئاً عن صفو الطقس والصحو. سألتهما إن كانا يريدان أكل «طلامي بزعتر» ستبدأ بالخبز بعد قليل. قال ميشال إن الوقت لا يزال باكراً. ردّت إن عليها انهاء الخبز قبل أن يحين موعد اطعام البقرات وحلبها. فكّر أنه لم ينتبه قبل الآن ليوم أمه الذي يبدأ قبل الفجر حتى. يعلم أنها تنهض باكراً لكن ليس إلى هذا الحدّ. كأن متري حزر بما يفكّر فقال:« كلهم هكذا. ها جدي عجوز ومضطر للعمل. من يعيل هؤلاء الأطفال؟ باستثناء الرسالة القصيرة التي وصلت من زوجة خالي لم تبعث شيئاً. اقترب الصيف ولم تأت. »

- 20 -

قطّبت هند حاجبيها ووقفت في المرج تنظر بامعان إلى الطيفين

البعيدين. لا يمكن أن تخطئهما مهما ضعف بصرها. أسرعت إلى الموقد تحاول اشعال الحطبات فيه. تنفخ على الأوراق اليابسة لاذكاء النار. الهواء يذري الرماد في عينيها. تقترب كاميليا وتقول «جدتي أنا سأحرّك اللبن» تضع هند الصحون فوق الطبلية الواطئة بانتظار أن تسخن الطبخة.

أول وصولهما قاما كلاهما بالحركة نفسها. جلسا عند طرف الصوفا وخلعا الحذاء. غبار أبيض غطى الجلد الذي عكفت على صبغه وتلميعه قبل ليلة.

تأمّلت جبرايل يأكل صامتاً ورأسه محنيّ فوق صحنه. توقّعت أخباراً لا تسرّ. انتظرت أن يبتعد الأولاد بعد الأكل لتسأله عن المقابلة مع ريّس الدير. أخبرها إنه لم يعد لديهم قسم داخلي بسبب الحرب. قابل أسئلتها المتواصلة بالصمت. أو اكتفى بكلمة. مساء فقط بينما كانت جالسة على الافريز تصلي. قال انه سجل روبير في مدرسة الرحمة. ردّت بارتباك «أليست ميتماً؟»

غضب مفاجئ ملأ جسمه بالكهرباء فرفع صوته: «ماذا تريدين أن أعمل. مدرسة أنطوان لا تقبل الداخلي بسبب الحرب. صارت للأغنياء. لا نقدر على أقساطها. ثم كيف يذهب اليها كل يوم؟»

سكتت وتأمّلت حبات السبحة بين يديها. لكنه تجاهل زعلها وأكمل كلامه بصوت عاد اليه هدوؤه: «الرهبان شبان الآن. لا أحد منهم اهتمّ عندما قلت إن والد روبير تخرّج بتفوّق من مدرستهم. لمّا قلت له إنه صار لاحقاً طبيباً جراحاً. احزري ما كان رده: برافو... برافو. ثم قال لي إن هناك الكثير من الارساليات والأديرة التي تستقبل الأيتام لكن ليس مدرستهم. ربما كانوا قديماً يخفّفون التكاليف على المعوزين، لكن التعليم الآن مكلف: رواتب وأنشطة وتحديث الصفوف. ثم وقف وقال إن لديه مواعيد كثيرة. لا أستطيع أن أخبرك كم استصعبت وقوفي في مكتبه. لم يكلّف

خاطره ويقول تفضلوا اجلسوا.»

ابتلعت هند دموعها، لا تريد أن تزيد عليه الثقل. العتمة حملت معها نسمات باردة. قال إن مديرمدرسة الرحمة طلب تأمين بعض الأغراض والثياب لروبير. سيقول لبرناديت أن تطرّز اسمه عليها، لكنه صراحة لم يفهم السبب. هل يخافون أن يسرق أحدهم ثياب الآخر. أفهمته هند أن السبب هو التفريق بينها بعد الغسيل.

-«تعبت اليوم؟» سألته.

-« ليس التعب لكن الحاجة إلى الناس بعد هذا العمر»

-«جاء اليوم أبو صبحيٍ وقال أن لا نحسب حسابه بعد الآن بصناديق العنب. لا يجد لها مشترياً. العنب في الحسبة أكثر من الهَمّ على القلب قال. وهو أرخص من عنبنا وأطيب. قلت له إننا سنتفاهم إن كان السبب هو السعر لكنه أدار ظهره مردّداً «الله يرزق».

-«التعب يذهب هدراً. السوق يغصّ بأحسن فاكهة ولا أحد يشتري. قيل لي إن سعر كيلو العنب في بيروت أكثر من ثلاث ليرات. هنا نبيعه بالمجان.»

-«الله يدبّر. ماذا في يدنا ولم نفعله؟»

تسلّلت جاين وجلست بينهما. انتبهت هند إلى أنها ارتدت الثوب الذي أرسلته أمها. كل يوم تفعل ذلك. لا ينفع قول جدتها بأن تخبّئه لحين دخولها المدرسة أو لارتدائه إلى الكنيسة. بقّعته بالعنب وبالتراب.

على عكسها لم تقبل كاميليا أن تجرّب الثياب. عندما سألتها جدتها، لم تردّ أحنت رأسها كأنها لم تسمع السؤال. فكّرت هند بداية أن السبب هو تفضيلها السراويل على الأثواب. قالت لها أن تجرّب بنطلون روبير بما أنه لم يناسب مقاسه وستقوم بتضييقه إن احتاج ذلك. لكنها لم تلق منها أي ردّ فعل. عندما يأتون على سيرة أمها لا تشارك في الحديث. كما لم تكتب

أي كلمة في الرسالة التي بعثوها لها مع شاب من جباع سيسافر إلى كندا. جاين رسمت لها مرجاً وأشجاراً وعصافير، روبير كتب لها كلاماً على لسانه وعلى لسان جَدَّيه. حتى حين حاولت هند أن تخبرها عن الظروف الصعبة التي عاكست أمها ومنعتها من الحصول على أوراق قانونية حتى الآن، تظاهرت بعدم الانصات.

هند لا ترى أحداً يشبه أنطوان ككاميليا. النظرة الذكية نفسها. اللون الأسمر نفسه والعينان السوداوان. تشبهه في ايماءاتها أيضاً. عندما تخجل يطرف جفن عينها. وعندما تزعل تفرك باطن كفها دون توقّف. استغربت تحوّلها السريع. كأنها في أقل من سنة تجاوزت طفولتها لتصبح كبيرة حقاً. لكنها ما إن تراها تلعب على البيدر مع الأولاد وتتشاجر معهم حتى تنتبه إلى أنها لا تزال طفلة. تحبّ رفقتها وتعمل دون شكوى كأنها نشأت طوال عمرها بين الحقول. تتسلّق الأشجار لتطال الفاكهة العالية. ضربات مطرقتها فوق كيس الزعتر أقوى من جدتها. تنقي البرغل، وتسطح التين في الشمس، وتعدّ ربّ البندورة. لا تذكر هند أن بناتها كن بمهارتها. قليلة هي المرات التي رأت إحداهن في الكروم. كأنهن نشأن في المدن، كانت تقول لهن عندما تضيق بكسلهن.

- 21 -

لا يفتح متري الشمسية عندما يبدأ المطر. ينظر إلى أعلى. الغيوم تتراكض في السماء. يتلقى حبات المطر على وجهه. ليت المطر يغسل قلبه، يفكّر. جزمة الكاوتشوك التي انتعلها تزلق فوق التراب الموحل. يتمسك بصخرة عند جانب الطريق.

يرى الفدائيين يغطون الشاحنة بشادر بني. يلوّحون له من بعيد رافعين رشاشاتهم. يرفع يده متمنياً ألا يكون أبو الفهود هناك. ليس بسبب ضيق الوقت، فهو في عطلة ولا يدري كيف يجعل الوقت يمرّ أسرع. لكنه أحياناً يضيق بالنقاشات السياسية. منذ استقروا في الضيعة حُرم من لقاء زينب خارج المدرسة. أخوها يقول إنه لن يسمح لها بزيارة ماري وقرب بيتها مركز لفتح. كالعادة خضعت دون أن تلقى احتجاجاتها أي صدى عند أحد من أهلها. تقول إنها كحجارة الداما التي ينقّلونها على هواهم.

يحزنه أن يتذكّر كيف بدأت تنحُل مؤخراً. ذراعاها خسرتا استدارتهما. تبدوان رفيعتين كقصبات يابسة. فقد وجهها لونه الخمري. عيناها أيضاً ذبلتا كأنها لم تنم من شهور. يقسو عليها دون أن ينتبه. تبكي ما إن يعترض أو يقول إنه لا يستطيع تحمّل هذا الوضع الشاذ إلى الأبد. رسائلها تملؤه أسى. كم يفتقد مرحها السابق. الشيء الوحيد الذي لم يتمكّن حسن من فرضه عليها بعد هو الحجاب. قالت أمها لتوقف ابنها عند حدّه: «هذا أمر تقرّره مع زوجها لاحقاً.»

الفدائيون جعلوا مؤخراً عدداً من المنازل الفارغة مراكز لهم. بعض سكان بيروت أجّر بيته في الضيعة بايجار رمزي، أو حتى من دون مال، كي لا يحتله مهجرون أو أيّ منظمة. لكن أكبر قاعدة لهم هي في «المروج». ليس السبب قلة السكان فقط بل توفّر المغاور والكهوف. أخبره جده أنه يراهم ليلاً ينقلون اليها أسلحة ومضادات. ينظر إلى الجيب العسكري يتجه نحوه بسرعة. يناديه السائق دون أن يخفّف من سرعته « رفيق متري كيف حالك؟».. يقود الجيب فوق الحصى متمايلاً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار غير آبه بوعورة الدروب والجلول التي يقطعها. يخفّ المطر ويتحوّل رذاذاً. يسير في قادومية كي لا يمرّ قرب المركز.

يجدهم في غرفة الشتاء حول الوجاق. يسأل عن جاين فيقولون إنها

نامت عند عمّتها برناديت. تنظر هند إليه. يعلم أنها لن تسأله عن روبير. لكنه يحدس من ملامحها مقدار خيبتها. ينظر إلى جده «متأسف لم أجد من الشباب أحداً ليعيرني سيارته لأجلب روبير. إن شاء الله الأسبوع القادم سأتدبّر سيارة»

-«لم يأت منذ خمسة أسابيع. أكيد اشتاق للبيت» يقول جبرايل بصوت مخنوق، بينما يداه المرتجفتان تخطئان في لفّ السيجارة. كاميليا تواصل الكتابة فوق دفترها. تنهض ما إن تسمع جدتها تعرض على متري فطاير بسبانخ. يقول إنه غير جائع. رغم ذلك تضع فطيرتين كبيرتين فوق صينية معدنية أمامه.

-«ألا يزال الشباب يأتون عندما تخبزين؟ سأقول لمسؤولهم إن كانوا يواصلون ازعاجك.»

-«لا يا ابني. بم سيضايقونني؟ كلهم أولاد صغار. أكبر من روبير بقليل. يحنّون ربما إلى لقمة طيبة تذكرهم بأهلهم. هم لا يطلبون، أنا من يلحّ عليهم ليأكلوا. من يومين أهدونا كيس طحين فيه 25 كيلو وعلبة زيت ذره كبيرة وسكراً.»

-«صحيح يا متري أن واحداً من الفدائيين سَكِر ودقّ باب بيت بونصار لأنه يحب إحدى بناته؟»

-« هناك واحد سَكِر لكنه قوّص عالياً بالكلاشينكوف. وآخر اصطدم جيبه بحائط بيت بو نصّار. لكنه لم يكن سكران كان يسوق كالأخوت.»

سحب من جيب الجاكيت الداخلية علبتي بسكويت اشتراهما لكاميليا ولجاين. قلّبت كاميليا العلبة الصغيرة بين يديها. تأكّدت أنها «دبكة»، النوع الذي تحبّه. خبأت حصة جاين داخل «النملية». قالت خجلة إنها ستأكل حصتها مع روبير في الأسبوع المقبل. ارتبك متري ثانية. أحسّ أنه لم يسعَ حقاً لاستعارة سيارة. هند حضّرت لروبير سلقاً محشياً بأرز وحمص كما

يحبّه وحاكت له جوارب من صوف ليلبسها في نومه.اشتكى في زيارته الأخيرة من شدة البرد ليلاً.

الماء ينقط في الدلو الموضوع وسط الغرفة. منذ صغره يذكر أن هذاالسقف يدلف. النار تبعث في جسمه نعاساً. يوقظه الرعد من ذهوله. يتذكّر كم كان يحبّ قضاء الوقت هنا. يشرب النبيذ مع جدّه جبرايل. حلاوته تثقل على معدته. يخبر جده إن هناك سوبرماركت كبيراً سيشتري الجبن البلدي ودبس العنب والكشك من عندهم. ميشال زيدان يعمل الآن في هذا المحل وقد أخبر صاحب السوبرماركت أنها بضاعة باب أول لا غشّ فيها. الجبن من حليب البقر لا العلب.

-«ألا يشترون العرق؟ الصيف الماضي قطّرناه. ليس هناك أسلس منه. لدينا أيضاً الكثير من الخل. وهناك بضع تنكات زيت زيتون»

-«لا أظن هذا السوبرماركت يبيع عرقاً. سأسأله عن زيت الزيتون. أما الخل فتعبئته في القناني وكلفة نقله أكثر من قيمة بيعه. تعب دون طائل.»

ساعد متري جده في نقل كيسي تبن. عبّأ له جدّه قنينتي عرق واحدة لأهله وأخرى له. عندما خرج أحسّ بالبرد بشكل قويّ رغم أن الريح سكتت. أول شيء فكّر به هو زينب. صحيح أنها تصف له أيامها في الرسائل لكنه لا يزال يجد صعوبة في أن يحزر ما تفعله. هل تجلس معهم أم تنزوي متظاهرة بتصحيح امتحانات لتكتب له.

يأخذ طريقاً أطول لكنها على الأقل ليست سالكة إلا للمشاة. يدخل بين جلول الزيتون. المطر غسل أوراقها فشعّ لونها الأخضر. يمرّ ببيت سكانه في بيروت. يعجب كيف لم يحتلّه أحد بعد. المصطبة امتلأت بالأوراق اليابسة. الأصص قلبها الهواء فوقع منها التراب. عصفور يطير من أمامه صافقاً بجناحيه الموشّحين بأحمر قان.

- 22 -

يلفّ غطاء الصوف فوق جسمه، يقاوم رغبته في التبوّل. النوّاسة في الممرات لا تبدّد خوفه. نهاراً يجد أن هذا الخوف غير منطقي ولا تبرير له. عندما تحلّ العتمة تتبدّل الأمور. حتى بعد أن أقصوا طوني إلى غرفة بعيدة ظلّ يرتعب من أن يلتقيه في الممر. ماذا لو خنقه ولم يستيقظ أحد على صراخه كما في المرة الأولى. رغم أن طوني ضعيف ويصغره سناً يكتسب في نومه قوة جبارة. «أبونا شربل» حاول أن يطمئنه. قال «يروبص» وهو لا يؤذي عادة. حتى بعد أن عرف قصته ظلّ يتجنبه. أشفق عليه صحيح، لكن خوفه السري منه استمرّ.

يحاول أن يحشر قدميه في الخفين. يسير متلفتاً في الممر الطويل. يلعن هذا البرد الذي يوقظه مرات لدخول الحمام. لم يقل لجدته إن الجوارب التي حاكتها له كبيرة جداً وتنزلق من قدميه حتى وهو في فراشه. حاول ربطها فأحسّ أن الربطات تشدّ عليه وتوقظه. ينام مرتدياً كنزته الصوف. لا يذكر أنه أحسّ يوماً ببرد كهذا. في عزّ الشتاء كان يتدرّب وهو يرتدي قميصاً قطنياً خفيفاً وشورتاً.

يغمض عينيه وهو يرى الظلال المستطيلة تتراقص فوق الجدران.

يتذكّر حلمه بينما عيناه تأبيان الاغفاء ثانية. رأى نفسه في بيتهم في بيروت. ليس بيتهم تماماً لكنه كان جالساً في غرفة التلفزيون على الكنبة العريضة المقلّمة بالكحلي والأحمر جنب أختيه وأمه وأبيه. مكان التلفزيون شجرة بلوط كبيرة ينظرون جميعهم إليها. يهبّ الهواء فترتعش الأوراق نافضة حبّات مطر عليهم. الغرفة لا سقف لها مفتوحة على الفضاء ولا جدران تحيط بها. أرضيتها من الحصى المائل إلى الأحمر الذي يتبدّل

لونه في النور النافذ من بين الأغصان المتمايلة. في الحلم كانوا سعداء. حاول أن يسترجع تفاصيل البلاط ونقشات البورسلين في الحمام أو في المطبخ فلم يستطع. صار البيت في تفاصيله يختلط ببيت جده.

يحاول أن ينام. لديه غداً امتحانات فصلية في العلوم واللغة الفرنسية. يريد أن يحصل على أفضل معدل ليس في شعبته بل في كل الشعب. تفوقه يسهّل عليه أموره في الدير. الرهبان يعاملونه بتسامح أكبر. يوكلونه بمهامهم أحياناً في الاشراف على الأصغر بين التلاميذ الداخلي. ينوب عن «أبونا سمعان» في قاعة الدرس المسائية ويجيب عن أسئلة التلاميذ. حتى من هم أعلى منه يجيبهم إن استطاع. في الصفوف يتابعون الدروس نفسها مع تلاميذ القسم الخارجي أولئك الذين يدفع أهلهم كلفة تعليمهم. هؤلاء لا يخرجهم أحد من الصفوف للمساعدة في المطبخ قبل الغداء أو لتنظيف الحمامات وطي الغسيل وغيرها من أشغال الدير. لا تعتبر أي حصة بالنسبة اليهم غيرمهمة، يتابعون ساعات الرياضة والرسم والموسيقى. «هذه موادّ بلا معنى لا يفوتكم شيء في غيابكم عنها» يقول الرهبان. بعض التلاميذ يتمنى لو ينادى عليه ليستغني عن حصّة الفرنسي والرياضيات. قلة من تلاميذ الداخلي يكمل تعليمه في الصفوف الثانوية. معظمهم يتجه إلى الصفوف المهنية. يصنعون الكثير من الأشياء في المشاغل. لدى الدير صالات عرض يحبّ الناس الشراء منها لأنها أرخص. اضافة إلى المفروشات يصنع التلاميذ راديوهات فيها مكبّرات صوت. خلّاطات وأدوات مطبخية من سكاكين وأوان من قصب وخزف ملوّن. مؤخراً يبيعون بعض المونة خصوصاً النبيذ لأن كروم الدير شاسعة الامتداد. التلاميذ القدامى قالوا أن هذا «الريس» الجديد للدير يحبّ المال.

عندما يتذكّر والده، لا يستطيع أن يسترجع هيئة واضحة له في ذهنه. يحاول أن يجد صورة يعرفها مختلفة عن تلك المعلقة في صدر الدار.

يكتب رسائل لأمه ينتهي به الأمر بتمزيقها. لا يحب أن يقرأها أحد لا راهب ولا أحد رفاقه الأربعة في الغرفة. كما يخشى أن يحكوا قصصاً عنه وعن عائلته في غيابه. يتجنّب أن يأتي على ذكرهم. يبقيهم لنفسه فقط.

راجي يشخر ويتكلّم في نومه فيتقلّب الآخرون في أسرتهم. عندما يتوقف عن الغمغمة والشخير يهدأون. كأنه يحرّكهم بخيوط.

لم يشعر أنه غفا إلا حين أيقظهم الجرس المعهود. المياه الباردة لا توقظ تماماً الأجساد الصغيرة. يتوجهون للصلاة وهم يفركون أيديهم استعداداً لبرودة القاعة الواسعة.

مصارينه تقرقر بسبب الجوع. يردّد الصلوات بشكل تلقائي مفكراً بالفطور الذي سيكون قطعة خبز تغمّس بشاي مز. قالوا إن السكرمقطوع وعلى كل واحد الاكتفاء بملعقة واحدة.

في البداية كان يكره طعام الدير. الآن يأكل كل شيء حتى اليخاني المطبوخة بلحم معلّب. أطعمة بلا طعم، لا يعرف ما يسبح في مرقها، لكنه يأكلها. زعلت جدته لأنه يشرب شاياً مراً. حضّرت له بعض السكر ليأخذه معه. تظاهر بنسيانه. إن أخذه عليه تسليمه «للأبونا». حين يعلم أنه يخفي شيئاً سيعظه بشأن أهمية العطاء والمشاركة ومحبّة الآخر.

أيام الأعياد يسمح لهم باللعب بكرات يصنعونها هم. ينقسمون إلى أحزاب يتحاربون بقطع خشبية أو بنقيفات. مرة أطعموهم حتى سمكاً مقلياً. الكبار بينهم قالوا هازئين « أكيد هناك من تبرّع بها مجاناً أو أنهم تكرّموا علينا بها لأنها تكاد تفسد».

عندما ترقّى «الريس» سمح لهم أن يجلسوا في القاعة لمتابعة مصارعة حرّة على تلفزيون اسرائيل. أيام الجمعة تكافأ مجموعة من التلاميذ الداخلي لأسباب مختلفة فيسمح لهم بمتابعة الفيلم العربي. لا يحبّ أن يكون من بين المجموعة. لكن هناك دائماً من يختاره من الرهبان. قد لا

يتجاوز عددهم الخمسة. يجلسون مرتبكين بانتظار انتهاء الفيلم. كأن ذلك الاستثناء عقاب لهم. سيتجنبهم رفاقهم بعدها. لن يريدهم أحد في فريقه عندما يلعبون. يسكتون إن رأوهم قد اقتربوا والأسرار تُخفى عنهم.

تلاميذ الداخلي لا يمكن إلا أن يميّزوا عن تلاميذ الخارجي. ثيابهم التي يحصلون عليها من التبرعات الى الدير تجعلهم يبدون كشبان من عقود سابقة، أو أكبر من سنهم ببنطلونات رسمية لا تتعدى الكاحل. يرتاح روبير أنه ليس من فئة الذين فقدوا أهلهم وأقاربهم في مذابح الجبل ولا ممن لا عائلات يعودون اليها في العطل. لا أحد يعطيه هو ثياباً. جدته اشترت له ما يحتاجه. يرى أنه يشبه تلاميذ الخارجي في هيئته وفي ملاءمة سنه لصفه. معظم الداخليين أكبر من صفوفهم بسنوات. يكون بعضهم أطول من الأساتذة.

رفاقه الذين يشاركونه الغرفة أكثر قرباً اليه من الباقين. اعتاد عليهم مع مرور الوقت. هناك طفل من الصغار في السابعة من عمره يدّعي أنه قريب روبير. عرفه من قاعة الدرس المسائية. كان ينزعج بداية عندما يحدّق بعينيه الواسعتين إلى وجهه أو يركض ليمسك يده ما إن يلمحه في الملعب أو في قاعة الطعام. المعلمات أيضاً ينادون روبير عندما يعجزون عن تهدئة شادي. يقولون له: « قريبك لم يقبل اليوم أن يجلس في مقعده» أو ينادونه عندما تنتابه نوبات صراخ فجائية.

بعد العطل التي يقضيها عند جديه، يستقبله شادي بلهفة. يركض نحوه يمسك ساقيه بقوة توجعه. يقول «الأبونا»: « في غيابك طيّر عقلنا قريبك وشغلنا به أكثر من كل التلاميذ».

ما عاد يصحّح لأحد حين يقولون إنه قريبه. الأدوية التي يعطونها لشادي تهدئه أحياناً. لكنه يصير أيضاً بليداً كأنه نائم وهو مفتوح العينين. بات يحمل له شيئاً في كل مرة. أشياء بسيطة من بيت جده: حبات من التين

المجفف أو الزبيب أو بضع حبات من الجوز. لكنه اكتشف أنه لا يأكلها، يخفيها في جيوبه ثم يخرجها لاحقاً ليريها لرفاقه متباهياً أنها من روبير. بعد تعفّنها في جيوبه استدعاه «الأبونا» وقال له بلهجة جافة إن شادي ليس سويّ العقل تماماً وما يعطيه قد يفرح الآخرين فلِمَ يضيعه سدى؟ في نومه كان وجه شادي يختلط بوجه أخته جاين. حلم يوقظه مفزوعاً. يغمر رأسه بالغطاء كي لا يسمعه رفاقه يبكي.

ينظر إلى ورقة الامتحان. يقرأ الأسئلة غير مصدّق سهولتها. كان بامكانه الاجابة عنها دون أن يتعب هكذا في المراجعة. يأخذ وقته في الكتابة وفي رسم الجهاز الهضمي. يستخدم المسطرة لرسم الأسهم. يسمع رفيقه جوزيف يناديه. ينتبه الأستاذ فيرفع رأسه عن الورقة التي يصححها غاضباً ويسأل من يتكلّم. يعود السكوت التام. لكن جوزيف يعاود مناداته. يحمرّ وجه روبير. ينظر الأستاذ بعينين تقدحان شراً. «هل أنت من يتكلّم روبير؟» ينفي بصوت مخنوق.

يعلم جوزيف أن روبير لن يجيبه ككل مرة. لكنه لا ييأس من المحاولة. يظن أن معاداته السابقة له قد نفعت. ينتهي روبير من الامتحان سريعاً.

قبل أن يبدأ بتلميع مقاعد الخشب في الكنيسة. يجلس متأملاً الأيقونات المتوزعة فوق الجدران. حاول أن يرسم مثلها لكن الأقلام التي معه تخرج ألواناً باهتة بلا حياة. يحبّ الصمت هنا. قلما يحظى بمثله في الدير. الخشب القديم يحدث أصواتاً كأن روحاً خفية تتواجد قربه. تصدر مفاتيح البيانو نغمات متسارعة بينما يمرّر فوقها الفوطة. يحدّق إلى دوائر الزجاج في السقف. يرى قرص الشمس أصفر باهتاً. يفكّر أن جوزيف سيحرّض عليه كل رفاقه في الغرفة وسيبقى كالغريب بينهم لأيام. عليه أن يصبر. ما هي إلا شهور ويرسب جوزيف. لن يكون في صفه السنة المقبلة. ربما هو أيضاً لن يكون هنا. ستأتي أمه وتأخذهم إلى تلك البلاد الجميلة.

- 23 -

عندما تدخل ماري قاعة الصف تجد فيها اثنين قد سبقاها. لم يلتفتا لحظة أزاحت الكرسي لتجلس. كانا مشغولين عنها بحديث لم يصلها منه إلا ضحكات مكبوتة. يضع الشاب يده من حين إلى آخر فوق كتفها أو يقلب كفها متأملاً راحتها كأنها تخفي داخلها شيئاً مبهراً.

لا تدري لماذا هما يقفان مستندين ألى النافذة المغلقة. عندما انتبها لها، احمرّت كأنها اقتحمت مكاناً محرّماً عليها.

خفضت عينيها فوق دفترها. قرأت المحاضرة الأخيرة دون أن تفهم شيئاً. لم تدر إن كان عليها أن تخرج وتنتظر في الممر. لكنها لا تريد أن تجازف. في مرّات سابقة تكبّدت عناء المجيء دون أن تجد مكاناً تقف فيه داخل القاعة. أعداد المنتسبين إلى الجامعة هائل. الكل نجح في الشهادة. كيف لا والكتب مفتوحة أمامهم ينسخون منها الأجوبة. أحزنها أن يضيع تعبها هكذا. أن تساوى بأولئك الذين لا يعرفون ايجاد الاجابة رغم الكتب التي بحوزتهم.

احتارت في أي اختصاص تتسجّل. ودّت أن تكمل في اختصاص علمي. وجدت أمامها خيارات لا تناسبها. فرع الجامعة في صيدا خصّص للآداب وكليات نظرية أخرى. أخيراً قرّ رأيها على فرع التاريخ. سيفيدها ذلك في مهنتها أكثر من الحقوق أو علم النفس. لا تتمكن دائماً من حضور الصفوف، خصوصاً الصفوف المتأخرة. بعد الخامسة عصراً لا سيارة أجرة في الموقف. سيمون رفيقها سابقاً في دار المعلمين وعدها أن يمرّر لها المحاضرات التي فاتتها. حتى الآن لم يفعل. تراه في الجامعة كلما أتت لكنه لم يدخل قاعة الصف إلا في بداية السنة. تلتقي في الجامعة بكثيرين

تعرفهم من دار المعلمين. الدولة سهّلت شروط التقدم لامتحانات الشهادة فامتلأت الجامعة بطلاب من كل الأعمار والفئات. ارتاحت في جلوسها ما إن بدأ التلاميذ يتوافدون ضاجين إلى الصف. سيكون بامكانها أن تسمع وتكتب. في البيت تعاود نسخ ما كتبت بخط مرتب وتراجع ما ورد في المحاضرة. يحيّرها أحياناً أن تجد المعلومات مكرورة.

تتحاشى النظر إلى من يحيطون بها. تنتظر وصول الأستاذ ليحلّ الهدوء. الوقت يمرّ دون أن يأتي. الجوع يؤلم معدتها. جاءت مباشرة إلى هنا دون أن تأكل. الضجيج يشعرها بدوار. أحياناً يتغيب الأستاذ ولا يبلّغهم أحد. ينتظرون لأكثر من ساعة ثم ينصرفون.

لم تنتبه لسيمون يقترب ليهمس لها أن الأستاذ لن يأتي. سألها لماذا لا يذهبان إلى الكافيتيريا. تبعته دون انتباه فهي عادة ترفض. إنها المرة الأولى التي تذهب فيها إلى الكافيتيريا. معظم التلاميذ يداوم هناك لا في قاعات الدرس.

لافتة كتب عليها بخط اليد « كافيتيريا».

تتبعه إلى طابق تحت الأرض يشبه مرآباً. تعلم أنهما وصلا من الضجيج الهائل والروائح. يربكها أن تختلف هكذا عن الفتيات. تحبّ تلك الكنزات الواسعة الأكمام والبنطلونات الضيقة التي يرتدونها. جاكيتات الصوف المحاكة بصنانير عريضة. ستحوك مثلها، تفكر. لن تكلّفها كثيراً وأخواتها سيساعدنها في الحياكة. لماذا عليها أن تكون كأمهم. كم تكبرهم؟ كثيرون هنا أكبر منها. تتساءل ما الذي يضحكهم هكذا. تشم رائحة الجبن الذائب فوق السخّان. يسألها سيمون إن كانت تريد قهوة مثله. توافق متمنية شراء سندويش من جبنة القشقوان.

يحاذران تدافع الطلاب بينما يتوجهان إلى مكان في الزاوية الشمالية. انتظرا أكثر من عشر دقائق واقفين ليجدا مكاناً لهما. جلسا ألى طاولة

تجمّع حولها مجموعة من الطلاب الذين مثلهم يشربون القهوة. نظرت أمامها وتأملت الدخان يطلع خيطاً أبيض رفيعاً من غليون فوق الطاولة. أصابع طويلة تفرغ التبغ بأداة معدنية ثم تعيد تعبئته بتبغ يملأ رئتيها برائحة عطرية. ترتبك لشدة قربها من هذا الشاب الغريب. لم يلتفت عندما جلسا قربهم. أمامه صحف ومجلات أجنبية. الفتاة قربه تثني رأسها لتستند إلى كتفه فيما يواصل نقاشه مع شاب آخر قبالته. يلتفت إلى الفتاة جنبه بين الحين والآخر، يرفع يدها إلى شفتيه ويقبل راحتها. تجد ماري ذلك غير مألوف. لكن ما أدراها هي بهذه المسائل. لم تعش إلا قصصاً سرية.

«هل حصلتِ على المحاضرات الناقصة؟» تستغرب سؤاله كأنه نسي وعده بتأمينها. لا ينظر إليها بينما يكلمها. عيناه تجولان بحثاً عن نادية. دائماً يكون برفقتها.

-«لا أعرف بعد أياً من التلاميذ. أفكّر باستعارة بعض المراجع لأقرأها. هل تعتقد أنها متوفرة في مكتبة الجامعة؟»

-«لا أدري لم أدخل إليها. لم تتعبين نفسك؟ سمعت أن الأساتذة سيؤمنون المحاضرات مطبوعة لقاء بدل مقبول».

رائحة النقانق والبطاطا المقلية تجوّعها أكثر. تشرب جرعة من القهوة المرة علّ طعمها الكريه ينسيها الخواء داخلها.

تتذكّر أول مرة أكلت فيها نقانق. كانت المرة الوحيدة التي تقصد فيها مطعماً. رغم فرحة التخرج والاتفاق على اقتسام الفاتورة ظلت متوجّسة. ماذا لو كلفها ذلك أكثر مما تحمل. لا أحد قريب منها لتطلب منه اقراضها مالاً. كانت ضربات قلبها تتسارع وهي ترى النادل يفتح قناني النبيذ والبيرة. شربت البيرة دون انتباه. شيء من الارتخاء واللامبالاة سرى في جسمها. انتبهت فجأة لجمال البحر يضرب بأمواجه السياج الصخري. أخذها الضحك وضجيج الأحاديث. كانوا في معظمهم دون العشرين. تناسوا

قلقهم من التعيين في منطقة بعيدة عن بلداتهم وقراهم. يومها تذوقت النقانق التي تسبح في صحن من الزيوت وعصير الحامض. أحبّت البيرة وصوت فيروز تغني «على جسر اللوزية». نسيت تحفظها لحين وضحكت مثلهم على نكات لم تفهمها.

الجوع يصوّر لها أطباقاً تدور في رأسها وتحتار ما بينها. إنه يوم الجمعة. على الأرجح الطبخة هي مجدرة. تذكّرت والدها. أول مرة أعدت أمهم معكرونة مع الثوم والبقدونس المقطع فوقها. ظلّ والدها يكرّر«الله يسلّم إديكِ يا تقلا على هذه الطبخة.» تعلّمتها من أم جاك. تضحك تقلا حين يطالب زوجها بالمعكرونه وتقول:«اعدادها أبسط ما يكون تكرم عيونك».

أفرحها أن يطالب بها هي التي اعتادت منه أكل كل شيء دون كلمة. علّمتها أم جاك أن تعد المعكرونه لا أن تشتريها من الدكاكين. صنعها أسهل من صنع المغربية.

الزحمة بدأت تخف حولهم تدريجياً. تنظر إلى الأصابع الطويلة تمرّ في خصلات الشعر الملساء. أظافر اصفرّت من التدخين. رائحة عرق خفيفة تشمّها كلما تحرّك الشاب فوق كرسيه.

الأصوات التي انفجرت فجأة حرّكت الطلاب باتجاه الباب كأنهم كتلة واحدة. في لحظة فرغت الطاولات وانقلبت الكراسي وأحدثت قوائمها الحديدية صوتاً أقوى من القذائف. سبقها سيمون إلى الخارج. ناداها فيما صفوف من الطلاب تفصلهم قائلاً إنه ذاهب إلى الضيعة فقد وجد من يأخذه. عجبت بأي سرعة خلا المكان. مشت مسرعة في الطريق المحاطة بالشجر وبيوت قديمة. لا صوت في حدائقها. وحدها الرشاشات والانفجارات وزمامير السيارات. تسمع الصفير وتحتار أين تختبئ. زعلت من سيمون. كان بامكانها الذهاب معه إلى بيته لو دعاها. ضيعته قريبة من صيدا. عندما يقوى الصوت تقرفص خلف سيارات مركونة. أمام

كاراج مغلق احتمت بجدار كي لا تصدمها الجيبات العسكرية المنطلقة بأقصى سرعتها. جسمها يرتعش كأنها دجاجة مذبوحة. لو أنها تعرف أحداً هنا. كلما تقدّمت باتجاه موقف السيارات زادت حدة الانفجارات. سيارة اسعاف تمرّ بمحاذاتها، يطلق أحد المسلحين منها رشقاً فتقع أرضاً وتتطاير أوراقها بعيداً. الدم يسيل من ركبتيها. أمام أحد المراكز الحزبية يسألها أحد الحراس عن وجهتها.

-«لا ليس بامكانك الذهاب جهة الشاكرية. الاشتباكات عنيفة هناك.» يقول.

أين ذهب الناس وكيف اختفت السيارات. تجتاز الشارع وتركب في بوسطة رغم علمها أنها متوجهة إلى صور. المهمّ عندها ألّا تكون في العراء. تقف مع الواقفين. روائح فظيعة تفرزها الأجسام الخائفة حولها. لا ترفع رأسها إلا عندما تنطلق البوسطة. الواقفون يتأرجحون ويسقط بعضهم على الجالسين من الركاب. السائق يسرع كأنه يقود صاروخاً. عند جسر سينيق نزلت من البوسطة. لم تفكّر كيف ستصل إلى الضيعة. المهم بالنسبة اليها أن تبتعد عن صيدا. ستمشي إلى أن تجد سائقاً عجوزاً أو ربّما مرّ من تعرفه. لو مشت ساعات لن تهتمّ الآن. حولها بدأت العتمة. تسمع جرارات الحديد في المحلّات تقفل الواحد تلو الآخر. عندما حاولت أن تسير وجدت أن قدميها لا تطيعانها. لم تعرف كيف توقف بكاءها. كأن جسمها لم يعد جسمها ولا تملك أي سلطة عليه.

- 24 -

الوقت جاوز منتصف الليل. جلس روبير في فراشه وقد لفّ حول

جسمه غطاء الصوف. البرد لا يزول. لبس كنزتين وسروالاً داخلياً طويلاً تحت بنطلون البيجاما وجوارب صوف لكن الصقيع رغم ذلك ينخر عظامه. كان منشغلاً بالتفكير بما حصل في اليومين الأخيرين. ما إن تأخذه غفوة حتى ينتفض كأنه وقع فيفتح عينيه.

قام جوزيف من فراشه شبه نائم وتوجّه حافي القدمين إلى الحمام. عندما عاد كان الرعد قد انفجر ونوّر البرق المتلاحق الغرفة. سأل روبير «ما بك؟ لماذا لا تنام؟» جفل ولم يجب. أمل أن يحكي معه. لكن جوزيف استغرق في الشخير ما إن لامس رأسه الوسادة.

سحب روبير من تحت فراشه قلم الباركر. تلمّس معدنه الفضي ثم أعاده إلى مكانه. لم يسمع كلام جدته التي قالت له ألا يأخذ قلم والده إلى الدير. ربّما سرقوه منه. لا يكتب به لا في الصف ولا حين ينجز فروضه. يخشى أن تراه الأعين. حتى «الأبونا» سيصادره مدعياً إنه سيحفظه له في الأمانات. ليس هناك مخابئ تعصى على تلاميذ الداخلي. لولا جواسيس الرهبان لما تمكّن أيّ أبونا من اكتشاف أمر سرقات المشغل. سامي حدّاد كان يصلح الأدوات الكهربائية لتلاميذ الخارجي بسعر رخيص خفية عن الرهبان. ويبيع لحسابه الشخصي أدوات يصنعونها في المشغل. وشاية أحد الجواسيس كشفت تجارته.

لكل «أبونا» جواسيسه بين الداخلي. عادة ينكشف أمرهم بسهولة. أحياناً يكون أحدهم أشدّ احتيالاً من غيره فيصعب كشفه. بعد حملة التفتيش التي خضعوا لها، بات العديد منهم يتجنّب روبير. شكّوا في أمره. وكيف لا يفعلون عندما يكون بين المكافئين دائماً. ألم تسند إليه مع خمسة آخرين مهمة تزيين شجرة الميلاد في صالون الدير؟ من سيمثّل دور يوسف زوج مريم العذراء هذه السنة؟ كانوا يسخرون مرددين «طول الشبر ويعطونه دور يوسف وهو بالكاد يكون بحجم يسوع الطفل.» تفوّقه صعّب

عليه الأمر أيضاً. « لا أحد يحبّ الشاطرين». يقولون له. المشكلة سببها الرهبان الذين جعلوه مثلاً. يخفي أمر علاماته. حتى عندما يسأله جداه عنها، يجيب بصوت خافت مكسور كأنه ارتكب إثماً.

الذين كانوا رفاقه انصرفوا عنه بعد أن طالت قاماتهم ونبتت ذقونهم. عندما يقوى عليه الخوف يبدأ بتمتمة الصلوات كما علّمته جدته. شيئاً فشيئاً تبتعد الأشياء التي يخافها ويغفو جالساً في فراشه حتى يرنّ الجرس.

بعد الصلاة، تدافعوا لدخول المطابخ للترويقة. لا حباً بقطعة الخبز المحمصة مع القليل من اللبنة والشاي الأسود المرّ الطعم، بل لأنّ حماوة الأفران تدفئ أجسادهم المرتعشة. اليوم دوره في أعمال الجلي والمساعدة في المطبخ. ما يعني تحمّل الماء البارد طوال اليوم. بما أنه يوم عطلة سوف تكثر طلبات الرهبان، «أبونا سمعان» يحبّ النمورة والريس يحب العصافير المقلية مع السماق ورشة زعتر وغيره يطلب كبة بصينية. أطعمة لن يتذوّقوا منها شيئاً لكن مهماتهم ستزيد. هو سيجلي أكثر من المعتاد. ستدوّخه رائحة الأطعمة التي ليس مقدّراً لهم تذوّقها.

بين الطبّاختين الهرمتين يفضّل العمل تحت أمرة أولغا. رغم عصبيتها تضحكه بتعليقاتها اللاذعة. تسخر من جشع الرهبان. من نهمهم وحبّهم لبطونهم وبخلهم، تحكي عن العائلة الكبيرة التي تعيلها، والأفواه التي تطعمها. تشكو من رفضهم أيواء أحفادها. تسأل « أليسوا مسيحيين هم أيضاً؟ أيجب أن يفقدوا والدهم كغيرهم ليقبلوهم؟ والدهم يوم يعمل وعشرة يعطّل. من يحتاج معمرجيّاً في الحرب؟ من معه مال ليفكّر بالعمار؟» تستمرّ في الأكل طوال تواجدها في المطبخ بحجة تذوّق الطعام.

أحياناً تعطي روبير قطعة من حلوى التصقت بكعب الصينية أو تصنع كرة صغيرة من الكبة النيئة قبل مدها في الصينية وتحشرها في فمه قبل أن يراهما أحد. لا يرفض ما تطعمه إياه حتى لو كان لا يستسيغ طعمه. أرسلته

إلى الحديقة ليقطع بعض النعناع. عادة يحبّ هذه المهمات. الجلوس وحده عند طرف الجلّ وتأمل الثلج على رؤوس الجبال. يجمع بعض البزاقات السارحة فوق شتول السلق والخس. خضارها قوي بعد أن بللها المطر. تحت شجرة الحامض تساقطت حبّات الحامض الصفراء. جمعها في طرف كنزته.

يتخيّل كندا بلا البرد الذي قرأ عنه. ملامح أمه صارت في رأسه شبيهة بالصورة التي في عرسها. الصورة التي يراها منذ صغره في بيتهم وعند جديه. ماذا لو لم تعد لاصطحابهم؟ يرتجف طرف عينه بقوة ما إن تخطر هكذا أفكار على باله. يبعدها ناظراً إلى ملعب التنس البعيد. يسمع وقع الطابة على خشب المضرب. التلاميذ الخارجي يأتون للتدرّب مع الأستاذ حتى يوم العطل. هكذا كان هو يفعل في مدرسته القديمة.

أكثر ما يفتقد كرة القدم. ذلك الحماس الذي يغلي في عروقه. كلما جرى شعر بتعب أقلّ. حتى ساعة الرياضة هم محرومون من المشاركة فيها. يقفز حين يحسّ باليد فوق كتفه. حزر أنه حنّا حوراني قبل أن يلتفت. اقشعرّ بدنه، وأسرع في ابعاد يده. هبّ راكضاً إلى المطبخ. لم يتوقف لا للمّ ما وقع من باقة النعناع ولا ما تدحرج من حبّات الحامض. ضحكة «حنّا» تتردّد في العراء خلفه. منذ أسابيع وهو يتنقّل بحذر بسببه. يراه أمام الحمام الذي يدخله، في الكنيسة التي يلمّع خشب مقاعدها، ينحشر قربه في الصلاة في المطبخ حتى ليلاً بات يحاذر دخول الحمام. يخشى أنفاسه الرطبة فوق رقبته. نظرته القاتمة التي تنظر إلى أعماق عينيه. لا يعلم لماذا يخافه هكذا. أبسبب الألقاب التي تطلق عليه أم لأنه محمي من «أبونا» قزحيا؟ «لا أحد يطاله» يخبره جوزيف. لديه أشياء لا يملكها أحد بين الداخليين. بعضهم رآه يدخّن في البورة خلف الكنيسة.

التلاميذ يؤلّفون عنه قصصاً متضاربة. مرّة يكون بندوقاً وأبوه الفعلي هو

قزحيا. ومرة أخرى يحكون إن والده قتل أمه ليحصل منها على مال ليقامر وليشرب. وفي مرات يقولون إن أمه مصرية وهي صاحبة الريس. لا يثق بهذه الخبريات منذ تيقن أن بعضهم يظن الأصوات المنبعثة من تلفزيون الرهبان زوّاراً يأتون آخر الليل لارتكاب أشياء فاحشة. هكذا تحوّل صوت نجلاء فتحي إلى صوت غانية متهتّكة تزور الرهبان في العتمة.

لا يدري لماذا يبقى صغيراً. الياس وفادي ودانييل كلهم في مثل سنه لكنهم طوال القامة، أصواتهم خشنة تثير الريبة والرعب في نفس حنا. يتحاشاهم حنّا ويختار الصغار مثله ليفزعهم. يناديه «الأبونا» مع أربعة آخرين للمساعدة في افراغ شاحنة. تعترض أولغا مدعية أن ذلك سيؤخّر موعد تقديم الغداء. يتظاهر «الأبونا» أنه لم يسمعها.

مع مرور الوقت لا يعود يشعر بالريح الشمالية الباردة. العرق يسيل فوق رقبته وتحت أبطيه. رائحة الأجساد حوله تقوى، الشاحنة لم يفرغوا إلا نصفها رغم مضي أكثر من ساعة. يحسّ حريقاً في ذراعيه وكتفه. ألم في أسفل ظهره. لكنه لا يتذمّر. يقول له فادي إنها كراتين بلا قيمة ليس فيها ما يستفيدون منه. عادة ينشلون منها إن كان فيها أطعمة، علبة تونة أو سردين أو قطعة جبن. لكن من يحمّل شاحنة من الكتب المتعفنة؟ رغم أنها مغلقة رائحة الغبار والعفونة تزكم أنفاسهم وتجعلهم لا يتوّقفون عن العطس. يكوّمون الصناديق في المدخل المسقوف لينقلوها بعدها إلى الأقبية المعتمة. يقول «الأبونا» إنها قيّمة هّربوها من دير قديم قبل أن تحرق. «الأبونا» يحكي عن الكتب وهو يكاد يكون أميّاً. يضطهده الرهبان لسذاجته وتوكل إليه عادة أصعب الأعمال. روبير يحبّه. أحياناً يساعده في أعمال البستنة فيحكي «الأبونا» عن عائلته وأمه التي ماتت في المجاعة وهي ترضعه.

-«كيف هو والدك. أهو جميل مثلك؟» تسأل أولغا. يتظاهر بعدم

سماعها ويركض جهة النار لينزع الزفرة عن وجه طنجرة اللحم.

-«كادت تفور.» يقول متمنياً ألا تعود إلى استجوابه. يراها تحشر لقمة قلية لحمة في فمها. تبتلعها دون مضغها. حتى طعامها تأكله على هذا النحو. تزدرده بلمح البصر. كأنها تخشى أن يراها أحد فيسرقه منها. لا تطيق الطبّاخة الثانية جانيت. تعملان في المطبخ نفسه لكنهما تقاسمتا المهام منذ هددهما الريس بالطرد. كل منهما تعمل في زاوية بعيدة عن الأخرى. غالباً ما تهمس له بأنها رأت جانيت تسرق سكراً وأشياء أخرى تخفيها في ثيابها. يعلم أنهما كلتيهما تفعلان ذلك. خصوصاً وإن الكثير من السلع مفقود من الأسواق، وعندما يتوفّر بعضها يكون سعره غالياً جداً.

من الشباك الذي يقف قبالته ليجلي يرى الجلول المتدرجة نزولاً نحو الوادي. الهواء اقتلع السقّالات التي رفعت عليها الشتول. حائط الدعم تدحرجت حجارته وتبعثرت. يرى عصفوراً مرتجفاً يقف على الأفريز محتمياً من حبال المطر. ينظر إليه ثم ينقر شيئاً أمامه رافعاً رأسه باتجاهه. شكيب يتناول منه الصحون ليجففّها. أصابعه احمرّت وانتفخت أطرافها من برودة الماء.

يأتي جوزيف راكضاً. يقول إن «أبونا» قزحيا يريد منهما النزول فوراً إلى المستودع الشرقي، المياه تسّربت إليه وتكاد تصل إلى أكياس الطحين. تتمتم أولغا لاعنة قزحيا « قل له إن غداءهم اليوم ليس قبل الرابعة.»

- 25 -

تفتح زينب عينيها. للحظة نسيت أنها ليست في بيتها. على الفرش

الموزّعة في أرض الغرفة تبين لها وجوه أولاد أختها هانئة. أختها ماجدة جالسة مثلها عند طرف الصوفا. رأسها مائل بقوّة. تخشى أن ترفع البطانية الصوف لتغطي جذعها المكشوف. أقلّ حركة قد توقظها. لم تنم منذ يومين. صوت المؤذّن يرتفع عالياً. تحبّ سماع الأذان في بيتهم أكثر. يكون الصوت بعيداً غير هدّار. تتململ ماجدة وينتفض جسمها بقوّة فتفتح عينيها «بسم الله الرحمن الرحيم» تقول وتنهض. تسمع زينب الماء ينزل من الحنفية. تتأمّل أختها ملتفّة بالأبيض تركع وتقوم مراراً. السجادة تآكلت أطرافها وتمزّقت. المطر غيّب صوت تمتماتها. تستغرب هذه الأمطار التي لم تتوقّف من أسبوع.

تشربان الشاي ساكتتين. لكن ماجده تبدأ بفرك ساقيها مؤرجحة جذعها إلى الأمام ثم إلى خلف. هي على هذه الحال منذ ثلاثة أيام. لولا زينب لما أكل الأولاد. الناس يأتون على مدار النهار. بعضهم ليستطلع آخر معلومات عن مصطفى زوج ماجده، وبعضهم يجد في هذا تسلية له. يستقبلون الناس ويعيدون إخبار المعلومات نفسها. ذهب منذ الصباح الى البقاع ليشتري جرّاراً ولم يعد. لم تعترض زينب عندما ناولتها ماجدة منديلاً أبيض كبيراً لتلفّ به شعرها المكشوف. هذا يريحها من النظرات التي تحدّق بها كأنها تجلس عارية. حتى أهلها استغربوا الأمر. حسن أخوها ابتسم حين وقع نظره عليها. خافت أن يظنّها قد تحجّبت أخيراً. سارعت لتقول على مسمعه أن عدداً كبيراً من الشيوخ أتى، واحتراماً لهم غطّت شعرها. تحمرّ كلما سمعت شتائم بحقّ المسيحيين الكفرة. تحسّ بأن الهوّة تزداد بينها وبين متري. يقول أحد شبّان حركة أمل إن الخاطفين قد يكونون زعران أرادوا سرقة ماله. تتحمّس زينب فجأة لتؤكّد أن هذا منطقي. إحدى الجارات تأتي حاملة دلو حليب، قالت إنه للأولاد. كل الجيران يأتونهم منذ اختفاء مصطفى بأطعمة، طبخة ما أو بضعة أرغفة مرقوق أو أي شيء من الخضار

التي زرعوها. الأولاد لا يفهمون ما يحصل. يلعبون فرحين بالانتباه غير المُعتاد الذي حصلوا عليه. الكل يريد تقبيلهم أو اعطاءهم العلكة أو حبّات السكر نبات. حين يرتفع صوت ماجدة لاسكاتهم تسارع زينب إلى أخذهم إلى الغرفة الثانية. تحاول استدراجهم إلى مراجعة دروسهم لكنهم يتهربون متحججين بأنهم في عطلة. تحكي لهم القصص. تشتتها يضجرهم مما تحكيه. عليهم دائماً تذكيرها إلى أين وصلت في السرد. ينسلّون ثانية إلى حيث الناس أو يبتعدون للّعب مع أولاد عمهم. يغوصون في الوحول وفي برك الماء التي تجمعت. يرتفع سعالهم فتهلع أمهم. «لا ينقصني إلا المرض وتكاليف الأطباء لتكتمل معي» تقول، ناظرة بلوم إلى زينب.

تتمنى زينب الآن أن تعود إلى بيتها. سئمت النوم جالسة على كنبة وسماع ورؤية كل هؤلاء الناس. انشغالها لم يبعد فكرها لحظة عن متري. لا تدري كيف تحتمل عطلة أحد عشر يوماً. زعلت لأنه في دورة تدريب على السلاح. قال إنهم يتدرّبون لكن ذلك لا يعني أنه سيقاتل.

التقته في أوّل أيام العطلة في سيارة استعارها. توقف في طريق ترابية. يسلكها الناس في طريقهم إلى حقولهم باكراً وفي عودتهم عند المغرب. كانت تسير لملاقاته وعيناها لا تهدآن في محجريهما. ماذا لو رآها أحد؟ غطّت رأسها بمنديل للتمويه. قالت لأمها إنها ذاهبة عند أختها. رغم علمها بأن ماجدة أختها لا تزورهم في مثل هذا الوقت ظلّت متوجّسة. ما إن دخلت السيارة حتى راحت تنظر إلى الساعة كل بضع دقائق. زعل متري وسألها إن كان مضجراً إلى هذا الحد. ضمّته. دموعها بللت ياقة قميصه ولطّختها بالكحل. لم تستطع أن تتمالك نفسها. قالت إنها لا تريد العودة إلى البيت. لمّا سألها إن كانت جادة سكتت. كان يقبّل وجهها ويديها فيما عيناها مذعورتان تستطلعان الطريق. تقفز عند أي حركة. قال شيئاً عن رغبته في التعرّف إلى أخيها حسن إذ لديه رفيق يعرفه. صرخت ناسية

حذرها. ولم تهدأ إلا بعد أن أقسم بأنه لن يفعل إلا بموافقتها.

تدقّ سلفة ماجدة الباب وتدخل حاملة طفلتها الرضيعة على خاصرتها. نسيتا خلافاتهما منذ اختفاء مصطفى. تنظر بطرف عينها إلى زينب كأنّ لديها سرّاً تخشى الأفشاء به أمامها. تحشر ثديها، الذي كشفت عنه بسرعة، في فم طفلتها لتسكت بكاءها. تقبل عليه الطفلة بلا حماس. تفلت الحلمة محرّكة يديها وقدميها لتتملّص من قبضة أمها. تنهرها وتعيد الحلمة إلى فمها تقول«الله يلعن الأولاد وخلفتهم.» تشيح زينب ببصرها بعيداً. تكره عادة النساء في إرضاع أولادهم أمام الجميع. تنهض إلى المطبخ حيث تجمّع الكثير من القدور والصحون والفناجين. الماء ينزل بارداً. تجفل لملمسه. لكنها الطريقة الأفضل للخلاص من سماع فاطمة. تسمع أختها ماجده تقول بصوت مجروح. «حرام عليك يا فاطمه ألا يكفي أن الرجل مخطوف؟ ألا يكفيك أن أولاده يمكن أن يتيتموا؟ والله حرام. الغرباء لا يمكن أن يكون قلبهم قاسياً هكذا».

لا تسمع ما تهمس به فاطمة. تسمع أختها تردّ بما يشبه الصراخ:«لا أريد منكم شيئاً... الأقارب عقارب بجدّ. عندما يرجعه الله سالماً سيكون بيننا حديث آخر».

-«لا مصلحة لنا في قول ذلك. أتظنين أن أخاه من لحمه ودمه يمكن أن يطلق عليه هذه الأشاعة لو لم يكن متأكداً؟»

تترك زينب الجلي وتعود إلى الغرفة بعد أن أيقظ الصراخ الأولاد. تسأل عمّا هناك. لا تردّان. تكمل فاطمة كلامها: « ماذا كان يفعل بزياراته المتكررة برأيك إلى البقاع؟ انقطعت الجرارات والشتول والبزار من منطقتنا حتى يذهب إلى البقاع كلّما دقّ الكوز بالجرّة.»

لكنّ ماجدة لا تستسلم بسهولة. تدافع مدعيّة أنه يذهب إلى البقاع لأن كل شيء هناك أرخص. ثم أي زوجة تكون إن صدّقت هذه الاشاعات فيما

زوجها يتعرّض ربّما في هذه اللحظات لضرب مبرح؟

تنقّل زينب نظراتها بينهما علّها تفهم فتبادرها فاطمة « أنت عاقلة ومتعلّمة. قولي لها. عقّليها. أخوه محمد ذهب بنفسه إلى ضيعة الفاكهة وعلم أن مصطفى بخير وأن كل ما في الأمر أنه وضع عينه من فترة على فتاة وتزوجها بالحلال. أيام ويعود إلى بيته.»

المفاجأة أسكتت زينب لا لأن الأمر لا يحدث حولها باستمرار بل لأنها لم تعتقد أن مصطفى من هذا النوع من الرجال. كيف ذلك وهو يشتغل سبعة أيام دون راحة إلا في أيام المطر.

كانت ماجدة تلطم وجهها وساقيها. عويلها أخاف الأولاد فشاركوها البكاء دون أن يفهموا ما يحدث. « بعد كل الشقاء الذي تحمّلته يتزوّج عليّ؟ ويتركني فوق ذلك أقلق عليه وأترجّى فلان وفليتان؟ »

_«كل الرجال هكذا. انظري حولك. ليس هناك امرأة دون ضرة أو أكثر. الله يسترنا الدور دورنا لاحقاً. أبوهم قبلهم تزوّج أكثر من أربع مرّات.»

كلامها يزيد من بكاء ماجدة التي راحت تقول «ليته مات لبقي مقامه عالياً في نظري.»

لم تعرف زينب كيف تخفّف عن أختها. رفضت ماجدة الذهاب معها عند أهلها. قالت إنها تعلم ما سيقولون لها. عليها تقبّل مصيرها من أجل أولادها فمن سيعيلهم. أقسمت أنها لن تساعده بعد الآن. ستبقى في البيت أسوة بكل النساء وليعمل وحده على جراره وفي حقله، أو ليجعل الست العروس الجديدة تعمل وتتشقق يداها وتسوّد الشمس وجهها.

ما عادت زينب قادرة على البقاء عند أختها. تحججت بضرورة إخبار أهلها بأن مصطفى بخير قبل أن يقوم أخوتها باتصالات أخرى ويسوّدوا وجههم، بلا طائل. لكن ماجدة تمسّكت بيدها، رجتها أن تبقى قليلاً.

كانت زينب تنظر إلى أختها وتفكّر أنه يستحيل أن يحزر أحد أنها شابة في العشرينات. تبدو كمن جاوز الأربعين.

الأولاد جلسوا متربّعين فوق الحصير يتأملون أمهم بقلق. الصغيرة تسلّقت بقدميها الصغيرتين الصوفا لتستقرّ في حضن أمها. أغمضت عينيها واضعة ابهامها في فمها. حاولت زينب أن تجد كلمات تواسي بها أختها. لم تجد. لا تحبّ أن تكذب عليها وتقول لها عكس ما تفكّر. لأنها لو كانت مكانها لتركت زوجها. قامت إلى المطبخ ووضعت ابريق الشاي على النار. كانت تعدّ سندويشات لبنة وزعتر عندما دخلت ماجدة: «ما بك يا زينب حرام كل هذا الزيت وكل هذه اللبنة تهدرينها. أضع ربع هذه الكمية في الرغيف.» ثم أزاحتها لتمسح الزيت واللبنة على أرغفة أخرى وتلفّها منادية الأولاد واحداً واحداً.

مع تقدّم ساعات الصباح توقّف المطر وسطعت الشمس بقوة. استغربت زينب عدم مجيء أحد لزيارة بيت أختها. عندما قالت ذلك. عادت ماجدة إلى البكاء: «الست فاطمة أم أخبار تكون فضحتني أمام الجميع. ربما عرفوا بالخبر قبلي.»

-« لماذا تظنين أنك فُضحت. لم تفعلي شيئاً. هو من فعل.»

- 26 -

ينتظر جبرايل في المرج أمام البيت قدوم ملحم. أكثر من ساعة مضت ولم يبن لسيارته أثر. يعود للحظة إلى الداخل حيث أوقدت هند كانون فحم. يتدفّأ ماداً يديه فوق الجمرات ثم يخرج ثانية. لا شيء سوى صوت

الريح تلاعب أغصان شجرة الزنزلخت. ترشّه بما علق عليها من قطرات ماء. ينزل قبعة الصوف فوق أذنيه. لا يهتمّ عادة بالبرد لكن منذ باتت جاين تمرض وهو يرقب تبدلات الطقس بحذر. يشقّ السعال صدره. ينحني طاوياً نفسه ليتحمّل الألم. ثمّ يضرب قفصه الصدري بقبضته.

تأتي هند تقف جنبه. يقول لها إن الريح شمالية سامة اليوم. يرى غيوماً كثيفة جهة الغرب. يتمتم شيئاً عن كذب ملحم ومواعيده. تسأل إن كان عليها أن تحضّر كيساً من اللوز اليابس. يقول: « لا، لم يتمكّن من بيعه». منذ أيام حضرا تنك الزيت والزيتون وأكياس الصنوبر والجوز ومربى السفرجل. زعم ملحم أن لا أحد أراد شراء المربّى. اضطرّ إلى بيعه بسعر متهاود كي لا يعود به. لكن ما عساهما يفعلان بكل تلك الكمية من المربيات. ظنّا أن انقطاع السكر سيساعد على بيعه.

جزء من الموسم باعه جبرايل للسوبرماركت التي يعمل فيها ميشال ورده. ملحم يأخذ المحاصيل منه ومن غيره ويبيعها في الأشرفيه. عمل يرتزق منه بعد أن فقد عمله في منطقة الفنادق. استحصل على أوراق ليمرّ على حواجز الفلسطينيين وغيرهم. يدعي أنه يوزّع عليهم قسماً من البضائع التي يحملها. لا أحد من الفلاحين يعترض حتى ولو شكّ في صدقه. ربح قليل أفضل من بقاء الغلّة كاسدة. «طلعت الشّمس وهذا الكاذب لم يظهر بعد» يقول جبرايل.

يأخذ نفساً عميقاً وهو يسمع هدير السيارة. يعودان إلى الداخل بعد أن اطمأنا لوصول ملحم. حفظا عاداته. نصف ساعة يقضيها في الدردشة مع الفدائيين في مركزهم ثم يأتي. يستطيع الآن أن يأكل لقمة قرب النار.

رائحة الحليب توقظ البنتين من نومهما. جاين تجرّ نفسها نصف نائمة لتستلقي فوق جلد الخروف وتنام ثانية متقوقعة على نفسها. تسرع هند للفها ببطانية الصوف. كاميليا تجلس متربعة ملتصقة بكانون الفحم.

شعرها مبعثر تغطي خصلاته جبينها وعينيها. تكشح الشعر عن وجهها كأنها تطرد ذبابة. لا تسألها جدتها إن كانت تريد أن تأكل مع جدها. تضع أمامها كاسة حليب واسعة. تغطّس فيها كجدها الكثير من خبز المرقوق.

يسألها جدها: «ألم تتأخرا على المدرسة؟».

-«اليوم عطلة».

دائماً ينسى. لا يحفظ الأيام. تضحك عندما يسألها ثانية: « أليس اليوم الخميس؟». أحياناً يفعل ذلك عن قصد. يحبّ أن يرى ابتسامتها الكبيرة. «أأنا مثلك تلميذ في المدرسة لأعرف الأيام؟»يقول. جاين تشارك في الضحك حتى لو لم تفهم السبب.

تضحك أيضاً عندما يعيد بعدها لفظ كلمات بالفرنسية. يفعل ذلك عندما تخطئ جاين في حفظ ما تحاول أن تعلّمها إياه كاميليا. مرّة عليها حفظ العد ومرّة أخرى أيام الأسبوع أو الأشهر بالفرنسية. صحيح أن لفظه سيئ لكنه صار يبالغ في تحريفه ليراهما تتغرغران هكذا في الضحك. تناديان جدتهما لتسمعه بدورها ظناً منهما أن هند تفوقه مهارة بالفرنسية.

ينادي ملحم ما إن يصل إلى المصطبة: «بو أنطوان. ألا تزال نائماً؟».

- نائم! صار الوقت ظهراً. لماذا تأخرت؟ علينا الانصراف إلى أشغالنا.

يقول شيئاً عن البنزين المقطوع. لا يسمع جبرايل تتمة حديثه وينشغل بتحميل السيارة. تسترق جاين النظر خجلة. يراها فيناولها حبّة أفندي قدّم له الفدائيون بعضها. ترفضها رافعة كتفها غير مكترثة لاصراره.

يقف ملحم مراقباً، يكتفي بتوجيه التعليمات: « ضعها في الصندوق. اربطها بالحبال... اسندها إلى الباب». يواصل انحناءه لمسح ما علق بحذائه من وحول.

بعد ساعة انطلق ملحم على مهل. على سطح السيّارة صناديق غطيت بالشادر البني. من بعيد تبدو شاحنة صغيرة تتمايل بما تحمل. تبتعد على

مهل. يعود جبرايل إلى وقفته في المرج. الطريق هادئة. رغم علمه أنّ شاكر لن يأتي بروبير قبل الظهر يظلّ شارداً في البعيد مترقباً. هند حضّرت له زلابية. لم يقل لها إن أنطوان ابنهما هو من يحبّها لا روبير.

الشمس بانت واهية بين غيوم سوداء. قرفص جبرايل ليجمع الحلزون الذي يفسد الخسّ بنقر ورقاته الخارجية. الخلد عاد إلى جلّ السبانخ والهندباء. عندما رآه عمر أحد الفدائيين الصغار يشقى في القضاء على الخلد قال: «عم جبرايل رشق من الكلاشنيكوف وأقضي لك على سلالته.»

لا يدري كيف يرسلون صغاراً بسن عمر وحتى أصغر إلى القتال. يسمعهم يسردون لروبير حكايات عن بطولات خرافية تضحكه في سرّه. يفكّر أنهم مجرّد أطفال.

كان صوت الرصاص يفزعهم بداية. اعتادوا الآن على سماعه. يعلمون أن الفدائيين يتسلون باطلاق النار على أهداف: صخرة بعيدة. سرب طيور عبر. علب تنك فارغة. غيمة في السماء.

حين كثرت الخنازير البرية باتوا يصطادونها. يأتون بها إلى هند. تنظر إلى جسد الحيوان المهشّم. لا تقول شيئاً عن الشظايا التي ستفسد لحمه. تقطع الأجزاء السليمة. تطبخها روستو مع خضار. أو تشويها. ترسل لهم منه. معظمهم يَقْبِل على أكله. يقولون إن هند إن طبخت خشباً سيصير طيباً من يديها. «الله سيسامح.» يقولون عندما يذكّرهم أحدهم أنه لحم خنزير.

يقف جبرايل حين يقوى الطنين في أذنيه. يمشي على مهل باتجاه البيت. يجلس على حجر بسبب الدوخة القوية. ينتظر أن تخفّ قبل أن ينادي أحدهم ليناوله حبّة للضغط. طوال عمره لم يشكُ إلا من ألم المفاصل. الآن كثرت أمراضه وأدويته. كاميليا تذكّره بها. ليس معتاداً كهند على تناولها. كان أنطوان يأتيها بكيس كبير. أدوية للكوليسترول، للضغط، والنقرس، لوجع الرأس. لطالما افتخر أنه قبل قلع أسنانه لم يتناول إلا حبة

أسبرين من حين إلى آخر. كلّ ما يحتاجه موجود في الطبيعة يقول. أعشاب لمداواة الجروح ولوجع البطن والرشح وآلام المعدة والمصارين. لا يصدّق عندما يقول أنطوان إن الأعشاب أيضاً قد تسمّم وتضرّ الجسم إن أخذت دون علم ودراية. «نحن نشربها أباً عن جد.» يردّ جبرايل معانداً.

كثيراً ما يرى ابنه في أحلامه. يكون صغيراً وكبيراً في الآن نفسه. الصورة التي تقوى على غيرها هي حين كان في عمر روبير. لكنه يحكي معه أحاديث غريبة. يسأل عن أولاده. يقول فيما قسمات وجهه تتغضّن إنه زارهم ولم يتعرّفوا اليه. جاين اختبأت خلف أمها وكاميليا مرّت بمحاذاته كأنها لم تره. روبير بقي جالساً على الكنبة يقرأ جريدة برزت صور أنطوان على كل صفحاتها. صور نعي على الأرجح. لكن روبير كان يقلب الصفحات بلا مبالاة. غمره جبرايل فرقّ جسم أنطوان حتى صار ضعيفاً. نبّهه إلى أنه لا يجدر أن يمسّه هكذا. المرض في عظامه يجعلها تتهشّم عند اللمس. استيقظ فزعاً والطنين ضجّ في أذنيه حتى طلع الفجر.

- 27 -

حبيبتي زنوبه. أكتب لك جالساً على مصطبة بيت. لولا التدريبات ما كنت علمت بوجود هذه الضيعة أو باسمها فهي قليلة البيوت. تتدرج المنازل من أعلى تلة لتتوزّع على السفوح حتى تصل إلى أسفل واد تتكاثف فيه أشجار سنديان وصنوبر وحور. البيت الذي تنام فيه مجموعتنا في الوادي. المصطبة التي أجلس عليها مسقوفة بألواح تنك. في الليالي الأولى استمرّ الحارس بايقاظنا. أخافه صوت الهواء يحرّك الألواح ويصفر بين الأشجار. لزمنا وقت لنألف هذه الأصوات. الليلة أنا موكل بالحراسة مع

رفيق آخر يتمشى الآن ليدخّن سيجارة في ظلّ دكة من الباطون. تقلقه بومة تنعق دون توقّف ولا يستطيع تحمّل صوتها. يقول إنها ستقتل أحدنا بفألها السيئ. يُضحِكنا تطيّره. العلم لا يبدّل على ما يبدو القصص التي رسخت فينا. بعض الرفاق مشى معه نهاراً بين الأحراج لايجاد البومة. اطلاق النار نهاراً ليس بمشكلة. اصطادوا دجاجتي أرض ولم يجدوا أثراً لبومة الليل.

في كل مكان وفي كلّ لحظة أتمنّى أن تكوني معي. تخيّلت أن هذا البيت الذي تعلو سقفه العرائش هو بيتنا. نختفي فيه هكذا بعيداً عن الأعين ولا يجدنا أحد. نتزوج ونعيش في أحد بيوت المهجّرين بعيداً عن أهلك وأهلي؟ مع الوقت، حين تهدأ النفوس، نرسل من يتوسّط للصلح. أرجوك لا تقولي لا. فكّرت طويلاً هنا ووجدت أنه الحلّ الأمثل. لماذا تخافين عليّ منهم. ألا تؤمنين بقوتي؟ أي رجل أكون إن كنت لا أشعرك بالأمان معي؟

التدريبات طويلة. أسوأ ما فيها أن المدربين من فتح شبه مجانين. يدربوننا مستخدمين الرصاص الحي. بعد إصابة فدائي وواحد من رفاقنا اختلف مسؤولنا معهم. بصراحة لم أخف على نفسي بل على ميشال. إن أصيب ستجنّ وردة ولن تسامحني أبداً. ارتحت عندما لوى قدمه. لم نكن نتدرّب حين قفز فوق حائط واطئ. قدمه تورّمت وبات يئن كلما مشى. لذلك أرسلوه إلى البيت. سأبعث الرسالة معه. آمل أن توصلها لك ماري سريعاً.

عندما وصلنا إلى الضيعة لم يكن قد مضى على تحريرها إلا ساعات. كانت فارغة تماماً من سكانها. حتى العجائز غادروها. معظم البيوت كان دافئاً. كان الحطب لا يزال مشتعلاً في مدافئها والطعام فاتر. الخزائن مشرعة كأن ساكنيها باغتهم الرصاص فحملوا القليل وهربوا.

أعطيت لنا أوامر صارمة بعدم لمس أي شيء من البيوت. لكننا شاهدنا بأم أعيننا السرقات تجري دون حرج. تمنيت ألا نجد أي أحد في البيوت

التي نفتشها. لم نكن وحدنا بالطبع. لم تبق دجاجة حيّة في أي قنّ. ليلاً وصل نبأ تحرير عشر قرى أخرى. فرقع الرصاص. امتلأت الضيعة بروائح الدجاج المشوي والعرق.

في كلّ بيت مونة من العرق والنبيذ الحلو الذي ذكّرني كثيراً بجدي جبرايل. قال لنا مسؤولنا أن نخفّف من الأخذ والردّ مع المقاتلين الآخرين من منظمات أخرى. لا يريد أن يموت أحدنا هكذا بلا معنى. لذلك غضضنا النظر مكرهين على التجاوزات.

نحن لسنا ملائكة. أرى الرفاق يستحلون أشياء من البيوت التي ندخلها: ساعة، قداحة، خواتم، وأشياء خفيفة يسهل حملها. بعد ساعات من وصولنا رأينا الشاحنات تحمّل الأثاث كلّه. الرث يحرق أو يحطّم. في اليوم التالي جاء دور الحنفيات والمراحيض والقساطل.

البيوت التي ننام فيها أعفيت موقتاً.

كان ميشال في الأيام التي مكث فيها هنا شديد الانفعال. يقول كلما رأينا السلب والنهب: «أصحاب هذه البيوت يشبهون أمي وأهلي والناس الذين نعرفهم. مساكين سيئو الحظ.»يزداد غضبه حين أفهمه أن ما حصل لهم هو نتيجة عقائدهم وأفكارهم السياسية. ربّما هم يحاربون ضدنا أيضاً. وأنه الآن يراهم مساكين في ضعفهم وينسى وحشيتهم وهم في عزّ قوتهم.

منذ فترة أحسّ بأن ميشال تبدّل. يتغيّب عن الاجتماعات. ينتقد الرفاق والمسؤولين. مرارته تقوى كلما حكى عن السنين التي هدرها بانتظار حصوله على منحة. أفكّر أن السبب قد يكون عمله. صحيح أنه دون مستواه وكفاءاته لكنه موقت. لا يصدّقني حين أؤكد له أن هناك منحة على اسمه من الاتحاد السوفياتي. ستصل أواخر أيار أو بداية حزيران على أبعد حدّ.

الغيوم تخفي القمر عنّا. فتزداد العتمة حولنا. لكن حين تنقشع أرى

خيالات الأشجار على بعد أمتار تحرّك أغصانها. كأنها تمشي نحونا بجزمات أثقلتها الوحول.

تذكّرت عندما رأيتك في المرّة الثانية. كان الطقس ماطراً. ما كنا نتوقع أمطاراً بهذه القوة في بداية تشرين الثاني. اصطدمت بك فيما نسارع كلانا لعبور بوابة المدرسة الضيّقة. انحنيت للم حقيبتك التي أوقعتها. ونظرت إليّ بلؤم واحتقار. نظرة لا أنساها. كنت طوال الساعات التي أشرح فيها أغالب الضحك وأكتمه. حتى حين عرّفتني ماري بك لاحقاً قلت بلا مبالاة: «سبق والتقينا». قلتها بنبرة عداء، ورمقتني كأنني حشرة مزعجة. لو لم أضحك حينها لربما بقيت تمقتينني حتى الآن.

هنا خسرت بعض الوزن. لا بسبب الجهد والتدريبات القاسية فقط، بل بسبب الطعام. فرحنا عندما علمنا أن بيننا رفيقاً خرّيج فندقية يعمل طاهياً في استراحة صور. عندما تذوقنا الفاصوليا التي أعدها متنا ضحكاً. قال له الرفيق أبو هيثم «أنا الجحش في الطبخ سأعدها أفضل منك. ما هذا الطعم المرّ في الصلصة؟ أهي صلصة بندورة أم تراب مجبول بالماء؟»

ردّ حانقاً: «ماذا أفعل لكم إن كانت البهارات قديمة؟» لكن كل أكلاته فاشلة. صرنا نتعاون لتحضير غدائنا. أما عشاؤنا فهو معلّبات مع خبز. أحلم هنا بفطائر البقلة والسمّاق التي تحضّرينها. لكنني لست زعلان من فقدان بعض الوزن. فقد سمنت بعض الشيء مؤخراً.

أرجو أن تكون الأحوال جيدة عندك. أعلم بأنك زعلانة مني. لكن كما قلت لك، لا شيء يدعو للقلق. أيام وتنتهي التدريبات ونعود للمدرسة. منذ الآن أتخيّل أنني أضمّك ولا أفلتك. ماذا تفعلين لو خطفتك بعيداً؟ أنا نصف مجنون كما تقولين. ذات يوم ودون أن أخبرك سأحملك بعيداً ولن أردّك وليفعل أخوك حسن ما يحلو له.

لا تزعلي. كل ما في الأمر أن كلّ نقطة من جسمي وروحي تتوجّع لأنك بعيدة. فكّرت أن التعب والتدريب القاسي سيلهيني بعض الشيء. لكن لا جدوى من الهرب. أنت الصورة الوحيدة التي أراها كلّما تنفّست. حبيبتي زنوبيا الجميلة يا ملكة قلبي، انتبهي لنفسك وتجنّبي الخلاف خصوصاً مع حسن. أحبّ أن أتخيلك ضاحكة، لا دامعة وشاحبة. لا تنسي تمزيق الرسالة بعد قراءتها.

- 28 -

ترك ميشال التعليم التطوعي في الثانوية. لا لأنه مجاني بل ليتفرّغ للعمل في السوبرماركت. يداوم اثنتي عشرة ساعة لا يرتاح خلالها إلا ليأكل بسرعة سندويشاً فيما يقلّب صفحات جريدة النداء. هو من يتفاوض مع تجار الجملة ومن يخلّص البضائع من الجمارك ومن يشرف على التحميل والتخزين. صحيح أن راتبه ضئيل، لكن صاحب السوبرماركت يعطيه ما يحتاجه من السكر والطحين والأرز بسعر الجملة. حتى حين ينقطع من السوق لا يبخل على عماله بمونة بيوتهم.

ما عادت أمه ورده تسأله عن تعليمه وسفره. هو نفسه ارتضى هذه العيشة. ليلاً يذهب برفقة ثلاثة من العمال. كلهم يركبون سيارة الفولسفاكن مع حيدر حويلي. ميشال يؤمن له تنكة بنزين من حين لآخر. السيارة رغم بطئها في الطرق الجبلية لم تقطعهم حتى في عز المطر. قبل أن يأكل لقمة يغتسل ميشال ويبدّل ثياب العمل، ثم يتمشى إلى بيت متري. حتى لو علم بأنه ليس في البيت يسير على الدرب متأنياً. أحياناً تلاقيه صونيا في وسط الطريق. لا يدري أي حجة تخترع، خصوصاً وأن أمها لا يخفى عليها أمر.

متري حدس ما يحصل بينه وبين صونيا. «أليست صغيرة». أغضبه هذا السؤال لأنها ليست صغيرة. هي في التاسعة عشرة ولا يكبرها إلا بثلاث سنوات. ما أزعجه هو أن متري لا يصارحه بما يفكّر حقاً. يتحجّج بمسألة العمر. لاحقاً نسي غضبه منه. لا يمكنه أن يزعل منه لوقت طويل.

لا يعرف كيف لم ينتبه لصونيا سابقاً. عندما قصد ماري ليسألها عن الأوراق التي يحتاجها ليتسجّل في الجامعة، أحسّ أنّه يرى صونيا لأول مرة. كانت مشغولة بحل مسائل في الكيمياء. جلست أرضاً وقد فتحت الدفتر والكتاب فوق الطبلية الواطئة. خجلت منه وشدّت على جسمها ثياب النوم البالية التي كانت ترتديها. كان شعرها يخفي جزءاً من وجهها. عندما جلس على الصوفا، قالت لها ماري ان تسأل ميشال عن درس لم تفهم شرحه في الصف، ثم قالت شيئاً عن عدم كفاءة من يتطوعون لسدّ النقص في المدارس. استدركت قائلة إنهم ليسوا كلهم بجدارته. هو لم يكترث. يعلم أن دروساً كثيرة رغم تحضيرها جيداً تبقى صعبة عليه فكيف يوصلها واضحة للتلاميذ؟ يعجز عن حلّ كل مسائل الفيزياء في الصف الأول الثانوي. صونيا تسمعه يشرح دون أن ترفع عينيها لحظة. كان يرى رموشها السوداء الكثيفة وخصلة من شعرها تنزل فتردها دون أن تنظر إليه. رائحة الدفء تفوح منها كلما تحرّكت. نار الوجاق حمّرت وجنتيها.

قبل صونيا أحبّ رفيقة في الحزب تكبره بأربع سنوات. اسمها وداد وكانت مسؤولة خليته لفترة. لم يكن الوحيد الذي أعجب بقوتها وبجرأتها. كثيراً ما دفعه ذلك إلى التطوع في أعمال ومهمّات يبتعد عنها غيره، علّها تلحظه. كان يراها تخرج برفقة مصطفى عيسى. رغم ذلك ظلّ يأمل. فيتطوع لنوبات الحراسة في المركز كي لا يفوّت عليه رؤيتها. حتى بعد أن انقطعت عن المجيء إلى المركز، بقي يترقّب عودتها غير مصدّق ما يسمعه بأنها تركت الحزب. لاحقاً علم أنها تزوجت مسؤولاً في

منظمة العمل وانتقلا للعيش في النبطية. بقي يراها في أحلامه. يحلم أنهما يتحادثان متقاربين يحسّ بأنفاسها الحارّة تلفحه، لحظة يقترب ليقبلها يستيقظ. يتكرّر حلمه بتبدلات طفيفة. أحياناً يكونان فوق مصطبة بيته، أو ليلاً خلال نوبة الحراسة، تكون مثله متكئة إلى الجدار تدخن معه السيجارة نفسها. يحسّ بالكهرباء تسري في جسده عندما تلمسه بأناملها. ما يعذّبه أن الحلم يرافقه طوال يومه كأنه حقيقة. حتى بعد أن بات يلتقي بصونيا، لا يزال يرى وداد لكن وجهها في الحلم يتبدّل لتصبح صونيا أو وجه امرأة لم يعرفها يوماً.

منذ أحبّها نسي موضوع المنحة. فقد حماسته للسفر. لكنه في لحظات يفكّر بأنه لن يفوّت عليه فرصة التخصّص. إن حصل على المنحة سيسافر. بأي فرع سيتسجّل في الجامعة هنا وليس فيها إلا الفروع النظرية؟ كلها اختصاصات لا تثير اهتمامه. يوفّر معظم ما يتقاضاه. يعلم أن المنحة وحدها لن تكفيه حتى ولو امتنع عن التدخين والمشروب. الكثير من الرفاق يأخذون معهم بنطلونات جينز لبيعها والحصول على مال اضافي.

ليلاً في طريقهم إلى البيت، يلعن في سرّه هذه الحياة. صباحاً بعد النوم يعود ليرضى بها.

لا يتكلّم طوال يومه إلا مع التجار والحمالين وسائقي الشاحنات. يخاف أن يعتاد مع الوقت ويقبل بهذا العيش. وحدها فكرة الحصول على منحة تهدّئه مجدداً. يؤجّل التفكير بتأثير سفره على علاقته بصونيا. صحيح أن لقاءاتهما خاطفة وقليلة لكنها لا تفارق عقله.

ليلاً، بينما تزحف السيارة على الطريق الجبلية، يتأمل الأنوار القليلة المتناثرة فوق التلال وفي الوديان. الألم في ساقه يقوى بعد الوقوف لساعات. مضت شهور على اصابته. رغم ذلك لم يشف. مثل قضيب حديد لاسع يغرز في كاحله ويسحب دون توقّف. على المقعد الخلفي

يغطّ سميح في نوم عميق. يلكزه صالح عند الحاجز. نسيم الليل يحمل رائحة البابونج والزعتر البري. يسمعون أصوات الراديوهات من البيوت. يرون الناس أمام منازلهم. الدكاكين لا تزال مفتوحة. يجلس في باحتها رجال حول طاولة يقذفون النرد. الناس أيضاً ينظرون إلى السيارة وركابها. لعلّهم يعجبون من بطئها وقوّة هديرها.

- 29 -

طمأنهم الطبيب أن هند ستستعيد قدرتها على الكلام. يلزمها بعض الوقت خصوصاً في سنها.

الفالج أصاب الجهة اليسرى من وجهها. التوى فمها، ارتخت عضلات الجزء الأيسر بما فيها عضلات العين. لعابها يسيل من طرف فمها المتدلي. تسير جارَّة قدمها اليسرى خلفها ككيس ثقيل.

خافت جاين بداية وامتنعت عن الاقتراب من جدتها. أما كاميليا فانصرفت إلى الاهتمام بإطعام الدجاج وإعداد اللبن واللبنة والجبنة، تطبخ ما تعلّمته من جدتها. تساعد هند في الأكل خصوصاً بعد أن عادت بناتها إلى عوائلهن. تهرس لها الطعام ناعماً وتطعمها إياه بكميات ضئيلة. تدرّس جاين التي يصفرّ وجهها كلما رأت جدتها.

مع الوقت عادت جاين لتقترب من هند جدتها. تثرثر جالسة قربها أموراً تتعلّق برفاق صفها وبالدمية التي اشترتها لها عمتها برناديت. تسأل جدتها: لماذا لا تغلقين فمك جيداً؟ افعلي مثلي. تريها كيف تطبق شفتيها جيداً. تعلّمها الكلام وتطلب منها أن تردده من بعدها. لكنها لا تسمع إلا

غمغمة غير مفهومة. لا تتوقّف إلا بعد أن يأمرها جدها بالابتعاد لتدع جدتها تنام وترتاح. لكنها تغيب لوقت قصير ثم تعود لتهزّ جدتها ولا تطمئن إلا بعد أن تفتح هند عينيها. تبتسم تأتي بكتبها وبدفاترها. تكرّر الدروس بصوت عال. تكتب على دفاترها أو ترسم بيتاً وثلجاً تقول إنه بيتهم في كندا. تجاهد هند لتفهمها بطريقة ما أنها تحبّ ما ترسمه، لكن محاولاتها تفشل ولا يخرج من فمها إلا حشرجة مخنوقة. بعد الظهر تحاول كاميليا أيضاً ألا تبقي جدتها وحدها. تعدّ معظم ما عليها طبخه وهي جالسة قرب سريرها. تتأمل الشعر الأبيض مبعثراً فوق الوسادة، الوجه المتغضّن، البقع البنية. تنظر إلى الجفنين المرتعشين الى الجلد المتهدل في الرقبة. تشيح بعينيها بعيداً. ماذا لو لم تنهض؟ تفرك لها يدها اليسرى بسبيرتو ووجهها بماء الورد كأن ذلك سيبعث الحياة مجدداً في الجانب شبه المشلول. تمرّر المنشفة الرطبة فوق العينين المغلقتين. رموش رمادية متفرّقة ترى منابتها المحتقنة. تدرس أيضاً قرب جدتها. ما إن تفعل ذلك حتى ترى شبح ابتسامة على الوجه السقيم.

خجل جبرايل عندما جاء مسؤول القاعدة برفقة طبيب أجنبي. لم يرد أن يقول له إن هناك طبيباً يتابع حالتها. تركه يكشف عنها ويقرأ الأدوية. تكلّم بعربية فصيحة محولاً كل شيء إلى مذكر. قال إنه سيرسل منذ الصباح ممرضاً لأن التدليك والتمارين ستسرّع شفاءها. فكّر بأن ذلك سيزعج هند، كيف ستسمح لغريب بأن يدلّكها حتى لو كان ممرضاً؟ ماذا سيقول متري؟

عندما لاحظ تردده. أردف مؤكداً أن الأدوية دون التمارين لا تفيد حقاً.

-لا داع لكل هذه المشقة. ردّد جبرايل خافضاً رأسه.

-أنتم جيراننا وفضلكم كثير. كرم الست أم أنطوان لا يكافأ مهما فعلنا. الله يشفيها لتقوم بالسلامة.

خفض جبرايل رأسه. ليته يصدّق تطمينات الطبيب.

حين يفتح عينيه صباحاً ينصت علّه يسمع خطواتها وقد سبقته كالعادة لتوقد الوجاق.

يرتبك كلما أراد مكالمتها. يرفع صوته مكرراً حديثه. لا يدري إن كانت عاجزة عن الكلام أم أنها غير دارية بما يحصل حولها. ترمش لتقول إنها سمعته أوتحرّك يدها اليمنى لتفهمه رأيها. لكنه لا يفهم، كاميليا تترجم له مقصد هند. منذ أيام ترفض أن يساعدها أحد في الدخول إلى الحمام. يلزمها وقت طويل في مشوارها هذا. تقطعه مستندة إلى عصا.

حضر الممرض بعد ثلاثة أيام. لم يعرف جبرايل ماذا يفعل. أدخله إلى غرفة النوم. لو كانت هند قادرة على الكلام لعاتبته دون شك. كذب عليها مدعياً أن طبيبها باسيل أبو رزق هو من أرسل هذا الممرض. التمارين استمرّت لأكثر من ثلاثة أرباع الساعة، سمع صرخاتها فهرع إلى الممرّض مستفسراً. قال إنّ الألم جزء من كلّ تدليك جيّد. شرح له عن أهميّة تنشيط العضلات كي لا تعجز لاحقاً عن استرجاع حركتها المعهودة. علّمها تمارين تقوم بها وحدها. استغرب جبرايل مواظبتها اليومية عليها. كانت جاين تشاركها بالتمارين وتقول ضاحكة: جدو، أنا وتيتا نقوم بالرياضة.

باتت الشمس تطلع باكراً. يحبّ جبرايل تلك الأشعة التي تدفئ رأسه وكتفيه فيما هو منحن فوق الشتول. ذات صباح عرض جبرايل على هند الجلوس في الخارج لتستفيد من حرارة الجو وكي ترى الجلول وقد ماج فيها الزرع الأخضر.

فيما يزرع في المرج أمام البيت شتول البازيلا سمعها بوضوح تقول:روبير. ظنّ نفسه واهماً أو أنه يسمع أصواتاً من رأسه. إنها تنطق بأول كلمة منذ أكثر من شهر. «سألت عن روبير؟» قال فيما صوته يرتعش. «روبير؟»

أجابت بوضوح: بلى، روبير.

منذ أكثر من شهر لم يأت إلى البيت. لم يرد له متري أن يقلق على جدته قبل امتحاناته الفصلية. السنة قاربت على الانتهاء وسيقضي ثلاثة شهور بينهم قال متري. لا داعي لينشغل باله. حين تبدأ عطلته تكون جدته قد بدأت تتعافى.

منذ زمن لم يشعر في أعماقه بمثل هذه الطمأنينة. سماعها تعود للكلام ولو ببطء أشعره كأنه في واحد من أحلامه القديمة. وسط حقل قمح أصفر لا حدود له يشقّ صفوف السنابل كأنه يسبح. يشبه الجلوس في الفيء عند طرف الجلّ لشرب ماء عذب في يوم حارّ. ترك الشتول جانباً وأسرع نحوها. تظاهر بعدم ملاحظة دموعها. كرّر: «الحمدلله على سلامتك يا هند كنت لا أطيق حياتي في غيبتك.»

لا يذكر الحديث الطويل الذي دار بينهما. كان هو يتكلّم وهي تجيب بكلمة. كأنه كان مخنوقاً وها هو يتنفّس من جديد. مرّ الوقت ولم ينتبه إلا بعد أن رأى جاين وكاميليا راكضتين باتجاه البيت. نظر إلى كاميليا. إلى قامتها التي طالت. إلى عودها الرفيع. كأنها كبرت فجأة ولم ينتبه.

لم يقل لهما شيئاً. ترك هند تفاجئهما بالقول: «ماذا ستطعميننا اليوم يا كاميليا؟»

التمعت عينا كاميليا وانحنت تقبّل رأس جدتها. أما جاين فقرفصت قربها طالبة منها أن تردّد اسمها:

« جاين، جانو».

طلبت أن تردّد اسم دميتها:

«كوكو؟»

ابتسمت كأن اختبارها نجح الآن. رمت حقيبتها وجلست في حضن جدتها. أسندت رأسها إلى كتفها وأغمضت عينيها ثم غفت.

- 30 -

طرق عنيف هزّ الباب كاد يخلعه من مفاصله. صراخ طفل يختلط بصوت نسائي: «أبو متري، أبو متري، أرجوك افتحوا لي أنا سميّة».

نهض الجميع بما في ذلك أخوة متري الصغار. ليست المرة الأولى التي ينتزع فيها متري من عزّ نومه. يقصدونه من قرى مجاورة عندما يخطف أو يعتقل أحد الشبّان. حتى حين هربت فتاة خطيفة لتتزوّج واحد من غير دينها سأله أهلها أن يساعدهم في ردّها. وجد أهله قد سبقوه وأحاطوا بزوجة الياس متى. صراخ ابنها الرضيع منعه من فهم ما تقول. حاولوا تهدئتها لكنها كانت تبكي وتندب سوء حظها. منذ أسابيع لم ينم زوجها في البيت. سمع بمداهمات جيش لبنان العربي لمنازل الجنود. لكنه اشتاق لبيته قالت. أممنوع عليه أن ينام في داره؟ ما هذه الآخرة. خلعوا الباب وكسروا القفل، سحبوا الياس من فراشه. لم يمهلوه حتى ليبدّل ثيابه.

أمسكت متري من كم قميصه: « أرجوك افعل شيئاً، ماذا لو قوصوه لأنه لم يلتحق بهم؟ ليشفقوا علينا. لسنا سوى أناس بسطاء. لا نفهم لا في الأحزاب ولا في السياسة.»

لم يقل لها متري أنه لا يعرف أحداً من جيش لبنان العربي. هدّأها واعداً باجراء الاتصالات اللازمة. قال إنهم ربما يحتاجونه بما أنه ميكانيكي ولن يؤذوه. كلامه لم يسكتها عن البكاء. راحت تقسم بأنهم طوال عمرهم لا يتحيّزون لا لهذا ولا لذاك. تعيد أقوالها كأن الخاطفين يختلسون السمع خلف الأبواب. أحاطت أم متري كتفي المرأة بحرام صوف. رغم الدفء كانت ترتعش في قميص نومها القطني. أخت متري أعدت شاياً بسرعة. أبو متري قال: « لا تخافي اتكلي على الله وإن شاء الله تسمعين عنه أخباراً

طيبة قريباً. لم يسبق أن سمعنا أنهم صفّوا جندياً لمجرّد أنه لم يلتحق بهم.» عادت إلى البكاء وقالت إنهم يسجنونهم وبعد ذلك لا أحد يعرف أخبارهم.

الكلام لم يكن يطمئنها، يرتفع بكاؤها وصراخ ابنها الخائف. كانت الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف فجراً. فكّر متري أنّ سُميّة ربّما تتوقّع منه أن يرتدي ثيابه ويخرج الآن للتوسّط لزوجها. لم يدر ما يفعل خصوصاً وأنها تستمرّ في قعودها على الكنبة ولا يبدر منها ما يدلّ على عزمها المغادرة قريباً. في المطبخ قال له والده أن يفعل شيئاً. أغضبه كلام والده. لا يحتاج لمن يقنعه. لكن ماذا يفعل؟ أيخرج في العتمة ويوقظ الناس؟ حتى لو أوقظ «أبو صقر» وأخبره القصة بكل تفاصيلها ماذا سيفعل إلا انتظار وقت مقبول للاتصال بالمعنيين.

تمنّى متري أن يعود إلى فراشه وينام قليلاً. الاهتمام بقضية الياس متى سيعرقل مشاريعه. البارحة ليلاً أعدّ خطة مع ماري ليتمكّن من المرور بزينب في المستشفى. لا يطمئن إن لم يرها. يعلم أنها مجرّد عملية بسيطة، لكنه يحتاج لرؤيتها ولو من بعيد. ستقوم ماري باخراج أخت زينب من الغرفة بحجة ما ليدخل هو ولو للحظات.

نسيم بارد يدخل من درفة شباك المطبخ. يرى الخزامى تتمايل مالئة الجو بعبقها. تعب شديد يثقل جفنيه فيغفو للحظات قبل أن يزعق الرضيع. تدخل أخته إلى المطبخ تقول له إن سميه تسأل عنه تريد أن تخبره معلومة ربّما تكون السبب في اعتقال زوجها. ينهض رغماً عنه. تبدأ بالكلام ما إن يدخل وتقول إن أسعد بو حبيب رفيق زوجها هرب مع عائلته بعد الانقلاب إلى الشرقية. «هل يظنون أن الياس مثله برأيك؟». تعود إلى القسم والبكاء بأنهم لا يعرفون حتى أسماء السياسيين. «بم أفادونا هم وأحزابهم؟» تسأل. يتنهّد متري وقد نفد صبره. ترمقه أمه بعتاب.

حلق ذقنه وشرب قهوة جالساً وحده في المطبخ. كان صوت الرضيع يأتيه من غرفة الجلوس فرحاً تتناقله أيدي أخوته، فيحدث أصواتاً جميلة أنسته عبء ما ينتظره. عرض عليه والده أن يستعير سيارة البيجو.

-«كيف تذهب إلى عملك؟ ليس هناك سيارات أجرة إلى النبطية.

أستطيع أن أتدبّر أمري كعادتي. سأذهب إلى صيدا مع جميل عند السابعة.

- لا خذها. ماذا لو اضطررت للتنقّل من أجل الياس؟

لبس على عجل وخرج من البيت قبل الخامسة. في الخارج ارتفع صياح الديكة ونهيق حمار غير بعيد عنهم. الضوء خفيف. تحت العريشة رأى بو جبور يشرب قهوته، بادره على الفور بينما يفتح باب السيارة: «ما بها سميّه سمعنا بكاءها، هل ابنها به شيء؟». رغم يقينه بعلم «بوجبور» بالشاردة والواردة أخبره بسرعة ما حصل.

قاد على مهل متأملاً القرى تستيقظ. رجال يسيرون خلف أبقارهم وثيرانهم، نساء جلسن أمام منازلهن يخبزن المرقوق، مصلّون يخرجون من المساجد وينتعلون جزماتهم وأحذيتهم الموحلة. دجاجات فالتة من القن تقطع طريقه مبقبقة، يدوس الفرامل بقوة كي لا يدهسها رغم أنه يقود ببطء.

لا يريد أن يصل في وقت مبكّر هكذا، خصوصاً وإنه يعرف بأن لا خطر على الياس متى. من يؤذي شخصاً مثله؟

لم يتزوّج الياس إلا بعد أن جاوز الأربعين. انتظر موت والده ليفعل. لم يجد امرأة تقبل أن تتحمّل قسوة والده وسلاطة لسانه. المصيبة التي نزلت بوالده بعد الزلزال الكبير لم تحسّن أخلاقه ولم تعلّمه شيئاً. ماتت زوجته وبناته الثلاث تحت الركام أما هو فقد سحن وركه وساقه. الياس نجا لأنه كان نائماً عند جديه. عاش الأب عمراً طويلاً شبه كسيح. يتقبّل الياس منه الشتائم واللعنات. الجميع كان يستغرب قوّة صبره. بعد وفاة أبيه تزوج ابنة

خاله سمية. كانت مثله وحيدة بعد أن توفي أهلها. رغم تجاوزها الخامسة والثلاثين لم يتقدّم أحد لخطبتها قبل الياس. كثيراً ما كان متري يراهما برفقة ابنهما يجرانه في عربة عند المساء عندما يدفأ الطقس.

لم يجد «أبو صقر» في المركز. أخبروه أنه ذهب في مهمة إلى صور. حصل توتر بين عناصر من أمل ورفاق لهم في الحزب. مثل هذه التوترات زاد مؤخّراً. تكلّم مع «أبو جمال» الذي أكّد له أن ليس هناك أي خطر على الياس. بعد اتصالات استمرّت حتى الظهر علم أن الياس محجوز في الثكنة لا كسجين بل كجندي. الكثير من الآليات يتعطّل وليس هناك إلا قلة من التقنيين. منذ شهرين لا أحد يقوم بصيانة آليات الجيش. قالوا إنه في آخر الأسبوع سيعود في مأذونية إلى البيت.

كان ارتباك متري يزداد كلما اقترب موعد زيارته لزينب. لم ينتظر قدوم ماري لملاقاته عند البوابة الفوقا. تمشّى ليلاقيها أمام بوابة الجامعة. رأى الكثير من الطلاب في طريقه. خاف أن يفوّت عليه رؤيتها، لكن من معرفته الوثيقة بماري يعلم أنها ستستفيد إلى آخر لحظة من وقت الامتحان. لا يمكن أن تخرج قبل انتهاء الوقت.

كان بعض الطلاب يتجادل بخصوص الأجوبة. آخرون اتكؤوا على سيارات متوقفة، يشربون شاياً أو قهوة ويدخنون. تحت شجرة الدفلى القريبة من المدخل رأى مجموعة تفترش الأرض وتشرب البيرة. حاول أن يجد مكاناً قريباً من البوابة، دون أن يزعج المجموعات القريبة منه.

كان يمجّ من سيجارته مجّات طويلة، الحرقة في معدته تؤلمه منذ الصباح. على خلاف من حوله كان يرتدي قميصاً بأكمام. في الصباح الباكر يكون الهوء بارداً في الضيعة. لكن هنا الحرارة لا تطاق. يحسّ بالعرق يسيل من كلّ مسامه. كان يهرب بنظره ليتأمّل بيتاً قديماً في الجهة الشمالية أمامه شجرة أكي دنيا علّق فوق أحد أغصانها قفص طيور. حاول

أن يحزر نوعها عندما أحسّ بيد تلامس كتفه. التفت فرأى ماري. بدت سعيدة. دون أن يسألها راحت تحكي عن سهولة الامتحان. اشتكت من الغش المفضوح في القاعات ومن الضجيج والفوضى. سألته إن أكل لأنها جائعة. أمامهما أكثر من ساعتين قبل زيارة زينب.

دخلا إلى مطعم للفراريج المشوية. تأمّل متري ماري تقطع الخبز لقمات كبيرة تدهنها بالثوم قبل أن تضع فيها الدجاج. كانت قد أنهت نصف الفروج عندما شبع متري. سألته إن كان لا يريد ما تبقى من الفروج. وانقضّت عليه بشهية قائلة إن هذا أطيب فروج مشوي تتذوقه. كانت تأكل كأنها جالسة وحدها في البيت دون رقيب. يداها اتسختا بالدهن. لم تكن مبالية برائحة الفم القوية التي سيتسبّب بها الثوم. فكّر لماذا يستغرب. كانت ماري عفوية دائماً لم تبدّلها عشرة الفتيات لا في دار المعلمين ولا في التعليم. ولا يبدو أن الجامعة ستغيّرها. عندما رأته يحدّق بها سألته إن كان هناك شيء على وجهها. أجاب «لا» مدارياً ضحكه.

- أريد أن أشتري هدية لزينب، ستقولين أمام أختها إنها منك. لكنني أحبّ أن أشتري لها شيئاً تحبّه حقّاً. لا شوكولا ولا ورود. عينها شبعت ورداً من حديقتهم. برأيك ماذا أشتري؟

- ثياب؟

- لا. أكيد لا. ما أدراني بالثياب؟ قد أختار ما لا يتناسب وذوقها.

- تحبّ أن تقرأ. كتاب ما قد يكون فكرة جيّدة.

- لا أعرف الكثير عمّا تقرأه.

- نرى لاحقاً في المكتبة.

في المكتبة سألت ماري عن الروايات. استفسر البائع عن عنوان الكتاب أو اسم المؤلّف الذي تريده. قالت إنها لا تعرف. لأنها تريد الكتاب هدية وليس لها. دلّهما على مكان عرض الروايات ليختارا. كانت كلها متشابهة

بالنسبة اليهما. أخيراً قرّ رأيهما على كتابين أعجبهما عنوانهما. الأول عنوانه: «لا تنبت جذور في السماء» والآخر عنوانه «مئة عام من العزلة». وجدا أن حجم الروايتين كبير ومناسب.

دخل بسرعة إلى غرفة زينب ما إن غيّب الممر ماري وأخت زينب. رغم وهنها التمعت عيناها لحظة وقوعهما على متري واقفاً بمحاذاة الباب. ارتاح لأن المريضة في السرير المجاور نائمة. وأمها مثلها تنعوس جالسة قربها على الكرسي. تسحّب بصمت وقبّل جبهتها. وجدها ساخنة. شفتاها ابيضتا وتشققتا، كأنه مضى عليها شهر في المستشفى لا بضعة أيّام فقط. شدّته من يده ليجلس قربها عند حافة السرير. كم تمنى أن يحمل جسمها الضئيل ويهرب بها بعيداً. سألها لماذا لا تأكل؟ قالت إنها ستفعل حين تغادر المستشفى.

ما إن سمع صوت ماري، وكانت ترفعه عن قصد، حتى توارى. انتظرها في السيارة. خشي أن يلتقي أحد أخوة زينب إن وقف في الطابق الأرضي. كان الناس يخرجون من سياراتهم محملين بصواني البقلاوة أو بباقات الورد. بعضهم يسرع متهدّم الوجه.

أبعد سيارته قليلاً عن مدخل الطوارئ. أناس في ثياب النوم أو حفاة ينقلون قريباً صارخين. أحياناً يرتفع العويل والرصاص. شتائم تطلق باتجاه السماء.

- 31 -

يتقلّب روبير في فراشه متأملاً من خلال الكوة العالية السواد ينقشع

ليصبح رصاصياً. في الغرفة لم يتبق إلا جوزيف. الآخرون رحلوا بعد انتهاء سنتهم المهنية. جوزيف مثله ينتظر انتهاء العام الدراسي. ليس له أهل يذهب إليهم. سيبقى كالعادة في الدير. يقول إنه لا يذكر أمّه. تركته في عهدة جديه بعد أشهر على وفاة والده. مات في ورشة عمار بعد أن سقط عن السقالة. هو في الدير منذ صغره. في السنوات الأولى كان كالآخرين يقضي عطله عند بيت جده في قرية جون. الآن جده ميت وجدته خرّفت تضيع وتنام في العراء. لا تذكر لا أبناءها ولا اسمها. أحياناً تأتي واحدة من عماته في الميلاد. تحمل له طعاماً أو حلوى. يقول إنه لا يحبّ تلك الزيارات ويفضّل أن ينسوه كما فعلت أمّه وعمّاه. تركته وهو في الثانية من عمره. ما عرفه عنها سمعه من أقارب والده. يقول إنه لا يكرهها ولا يحبّها. لماذا يفعل وهو لا يعرفها؟

منذ رسالة أمه الأخيرة يفكّر روبير كثيراً بما أخبره إياه جوزيف عن حياته. كان يحسّ قبل ذلك أنه مختلف عن التلاميذ في القسم الداخلي وأنّ وجوده في الدير موقّت ريثما يسافر مع أختيه إلى كندا. استطاع دائماً أن يهرب في خياله إلى كندا. تحمّل كلّ شيء ظناً أنّ الأحوال لن تدوم هكذا. بعد الرسالة وسماع نقاشات جديه تبدّل العالم. صار يرى أنه مثلهم جميعاً. لا يتميّز عنهم بشيء. كل هذه الشهور كان يصدّق جدته عندما تزعم بأن رسائله ربما لم تصل لكارلا أمه. أو أنها لا تجد من ترسل معه رداً على الرسائل. تحكي عن الغربة وصعوباتها عن غلاء المعيشة هناك. وهو يصدّق. الرسالة قلبت عالمه. إنّهم لا يحتاجون لرجل يحميهم. كيف تخطب غريباً وتتخيّل أنهم سيحبونه؟. لن ينوب أحد عن والده أنطوان. سمع جده يقول إنه لن يرسل أحفاده للعيش مع غريب ليتحكّم بهم. جدته ارتفع ضغطها واتهمت جده بأنه محدود التفكير. سألته: «أتظن أننا سنعيش للأبد. هل سنخلّد؟ لن يحبهم أحد كوالدتهم».

عندما تبرعت عمته برناديت لتربية جاين غضبت جدته أكثر وقالت إنها لن تدع الأولاد يخسرون كلا والديهما. الأولاد يجب أن يعيشوا مع أمهم. قالت بحزم. متري أيضاً وقف إلى جانب جدته. بعدها لم يفتح الموضوع. لم تصل أيضاً رسالة أخرى.

أهمل مراجعة دروسه مؤخّراً. كان يجيب عن أسئلة الامتحانات شارداً. عندما يسأله أحد التلاميذ عن الطريقة التي حلّ بها مسألة ما. لا يعرف بما يجيب. كأن آخر كتب بدلاً منه. لم يفرحه الريس حين أبلغه بأنهم سيرفعونه صفين.

عندما يجد وقت فراغ يركض في الملاعب بأقصى سرعته لكن رأسه يستمرّ في التفكير. لا يرفض أي عمل يوكل به. حتى خوفه من حنا تلاشى. عندما طلبت منه جدته أن يكتب ردّاً لوالدته تهرّب، لجأت إلى متري ليكتب ويطمئن والدته على الجميع.

ينهض جوزيف غافياً ويتجه إلى الحمام. الضوء يصل رمادياً مائلاً إلى الأزرق. يجلس روبير في فراشه. ثم ينهض. يبدّل ثيابه ويرتّب فراشه. يغرق جوزيف في النوم كأنه فاقد للوعي. يغمغم في نومه. ما إن يضع رأسه ثانية فوق الوسادة يسأل راجي عن الجرس ناسياً أنه رحل إلى البقاع عند عمّه منذ أكثر من عشرة أيام.

الترويقة نفسها. بعد أن أصبح عددهم قليل يُسمح لهم بشرب كوب آخر من الشاي. شادي يترك مكانه حيث الصغار ليجلس قرب روبير. يعطيه روبير قطعة الجبن فينظر شادي حوله ملتمع العينين. ثمّ يمسك كم روبير يشدّه بقميصه فينحني نحوه. يهمس كلاماً غير مفهوم. لا يسأله روبير أن يعيد كلامه. يعلم أنّ شادي يفعل ذلك لا لقول شيء. كما حين تنتابه نوبات صراخ حادّة دون إنذار. كان يخبر روبير عن أمه كيف تعدّ له النمورة التي يحبّها. يقول إن والده العسكري قوي يستطيع أن يرفعه عالياً

بيد واحدة ليطال السقف. أخته الكبرى جانيت، شعرها طويل وهي كبيرة كروبير يقول رافعاً ذراعه ليشير إلى طولها. استغرب روبير كونه داخلياً. كان يظنّه قريب أحد الرهبان الذين توسّطوا له. لم يشكّ لحظة بصدق شادي. حتى علم أنه الناجي الوحيد من عائلته خبّأه والده على التتخيتة داخل خابية زيت فارغة. أخته التي أخفيت بين الفرش المرصوفة لم تنج. حين وجدوه كان لا يزال في الخابية يرتجف من البرد بعد أن أمضى أكثر من عشرين ساعة هناك قرب خزان الماء. لا أحد في الدير يناديه باسمه. يشيرون اليه بالمجذوب والصغار ينادونه «الواوي» بسبب صياحه ليلاً. دسّ قطعة الجبن في جيبه. قال له روبير أن يأكلها. فتح قبضته فبانت الجبنة وقد معست.

في الصفّ كان الجميع قد وصلوا قبله. تأخّر في أعمال مسح المطبخ بعد أن أضطرّ لانتظار اثنين من الرهبان كانا يفطران كنافة بجبن. كانت الطباخة تبتلع ريقها وتدعو أن يغصّا. وهو ينظر إليها مرعوباً من أن تُسمع تعليقاتها.

رائحة الخلّ عالقة بيديه المحمرّتين. يستخدمونه في الجلي والمسح بدلاً من المطهّرات. في الأقبية كميات هائلة منه. يمزح التلاميذ قائلين إنهم ذات يوم سيقدّمونه لهم بدلاً من الشاي. من الشباك قربه لمح «أبونا» قزحيا يقتلع الأعشاب بين شتول البندورة. النسيم يوقع الأوراق التي وُزِّعت عليهم. تسود فوضى الضحكات فيصرخ الأستاذ بهم. إنه امتحانه الأخير هذه السنة. يناديه جوزيف من آخر الصف. يلتفت نحوه على غير عادة. كيف يخطر له أن يسأله. أيتوقع أن يهمس له أجوبة التاريخ الطويلة. يبتسم له ثمّ ينصرف للكتابة دون حماس. يخرج دون أن يراجع أجوبته.

لم يكن قد وصل «أبونا شربل» إلى المكتبة حين دخل اليها روبير. نظر إلى الكميات الهائلة من الكتب القديمة التي عليه المساعدة في فرزها.

رائحة الرطوبة والعفونة أقوى من البخور الذي يُحرق في الأرجاء منذ الصباح. خاف أن يلمس شيئاً قبل وصول «الأبونا». طبيعة الرهبان الشكّاكة تدفعه إلى الحذر دائماً. وصل الراهب حاملاً كمشة كرز راح يأكل حباتها الحمراء القانية باصقاً بزرتها في راحة يديه. بعد أن انتهى طلب من روبير رمي البذور خارجاً. جلس على مقعد خشب واطئ. قرفص روبير قريباً منه حاملاً فوطة لمسح الغبار. كان عليه أن يمسح كل كتاب ويناوله «للأبونا» كي يعاينه ويقرّر مصيره. معظم الكتب مهترئ الصفحات. بعضها مكتوب في لغات غريبة كالسريانية والآرامية. الروايات مطبوعة في بدايات القرن. رائحتها تقتل. نوبة من السعال أمسكت به. شعر أنه يختنق. أعطاه كتباً مدرسية قال له أن يراجع دروسها بما أنه سيُرفَّع صَفَّين. قال له أيضاً أن يحتفظ ببعض الروايات والكتب. البؤساء، قصّة مدينتين، جزيرة الكنز، مسرحيات لموليير، نسخة من العهد القديم مطبوعة عام 1889، حياة القديسة برناديت، كتاب من قصائد ألفها راهب ومكتوبة بخط اليد. وكتب أخرى دينية قال له أن يستفيد منها بدلاً من أن تُرمى. رغم سوء حالتها مسح روبير عنها الغبار وفكّر أن أخته كاميليا ستفرح بقراءتها. ليس لديها ما تقرأه. عندما يكون في عطلة تقرأ في كتبه وتعيد القراءة مراراً وتكراراً.

- 32 -

كان جبرايل قد جلس في فراشه الممدود على الأرض حين تعالى صوت الآذان بعيداً. سمع خوار البقرة في الزريبة. من الشبّاك العريض الذي يتركونه مشرّعاً اشتمّ رائحة الزنزلخت يحرّكها الريح. اعتمر قبعة الصوف. برد الصباح يؤذيه حتى في حزيران. قربه روبير تقوقع رافعاً

الغطاء فوق رأسه. لم تنهض هند بعد. ما إن تسمع صوت الماء حتى تفعل. تريّث قليلاً ليزول الدوّار الثقيل. صفير قوي أعقبه انفجارات هزّت أركان البيت. وجد أنه ارتمى في لحظة فوق روبير. نظر إلى عينيه المفتوحتين تحته وقطعا أنفاسهما. دويّ آخر وصوت طائرة منخفضة. قرقعة قوية فوق رؤوسهم. في لحظات كان جميع مَنْ في الدار قد تجمّع زحفاً حيث جبرايل. جاين شّدت بقوّة على عينيها لتحكم إغلاقهما. غرزت أظافرها في زند جدّتها. الانفجارات تقوى. البهائم جنّت. يفكّر جبرايل أنها ستقطع رباطها وتتوه في الحقول. الكلّ يخبئ رأسه بذراعيه. تهاوت الأعمدة التي مدّت فوقها عريشة السطح. لكن أحداً لم يظنّ ذلك. كل منهم رجّح أن الغرفة المجاورة قد أصيبت. هند كالدجاجة أخفت رأسي كاميليا وجاين تحت إبطيها. عندما تحرّك روبير ليستطلع ما يجري من الشباك أجلسه جبرايل بقوّة آلمت ذراعه. دموع سالت فوق الوجوه دون صوت. مضادات أرضية انطلقت بعيداً عنهم. ظنوا أن الغارة قد انتهت. انخفضت الطائرات مجدداً. تكسّر زجاج النوافذ المقفلة. ابريق الفخار تدحرج عن الطاولة وبلّلهم بالماء. نظرت هند إلى نثر الزجاج وقد غطّى الأرضية. لم ينبس أيّ منهم بكلمة. سمع خوار الثور في الحاكورة خلف البيت. صراخ الفدائيين دفع جبرايل إلى الخروج لاستطلاع ما حدث. كان وسط المرج عندما انخفضت الطائرات وضربت هذه المرّة واحداً من الكهوف. قوّة الانفجارات رمته أرضاً فتمرّغ بتراب الجل المرويّ حديثاً. سمع هند تناديه مفزوعة وتطلب من روبير الراكض في أثره أن يعود. وجده يقف فوقه تماماً. قرفص قربه دون أن يجروءا على متابعة السير أو العودة. الذخائر داخل الكهف انفجرت تباعاً. غيوم سوداء غطّت الجوّ. لم يتمكنّا من رؤية المركز. الصراخ والشتائم ورشقات الكلاشينكوف باتجاه السماء. مدفع يطلق قذائفه نحو طائرات غيّبتها الغيوم.

السيارات وقفت على الطريق العمومية. نزل راكبوها ونظروا إلى أسفل. إلى الدخان الأسود قد أخفى المروج بكل ما فيها من بيوت وحقول. تقدّم روبير وجبرايل بحذر من المركز. أبعد جبرايل روبير بحركة من جذعه ليفهمه بأن يبقى بعيداً. « ولاد الشرموطة س...أمهات اليهود»

في صندوق الشاحنة رأى أجساداً مشوّهة. لم يعرف أكانوا جرحى أم موتى. رأى الصبي عمر يصرخ كالثور المذبوح «يُمَّه..يُمَّه» ساقه مقطوعة من منتصف الفخذ. وقف جبرايل مرتجفاً. تراجع كالنائم إلى خلف جاراً روبير بعيداً.

أقلعت الشاحنة بما تحمل مخلّفة غباراً كثيفاً. الفدائيون استمرّوا برشق الرصاص باتجاه السماء لاعنين الله واليهود والخونة.

عند الظهر كانت الذخائر ما تزال تفرقع عندما وصلت أديل إلى بيت أهلها.

- «اجمعوا أغراضكم بسرعة ستنامون عندنا اليوم» ثمّ راحت تبكي بصوت مسموع.

- قصفتم عمرنا. ردوني في منتصف الطريق. قالوا إنني سأموت إن أتيت خلال الغارة.

- اشربي بلعة ماء. الحمدلله نحن بخير. الغارة لا تستهدفنا نحن يا بنتي. الله يساعد أهلهم على المصيبة. تقول هند متذكّرة عمر الصغير.

تذكّرت عندما كان يجلس قربها وهي تخبز أو تطحن البن. يساعدها في حمل أكياس العلف. يخبرها عن أخوته الصغار، ويتباهى بقوته في المعارك التي يشارك فيها. هي تضحك كأنه يحكي لها أطرف القصص.

- 33 -

لم تنم زينب. داومت على مراقبة الليل من الشبّاك. أرادت أن يطلع الضوء بسرعة. كانت تسمع نبضات قلبها قويّة هدّارة. منذ خمسة عشر يوماً لم تر متري. كتبت له عشرات الصفحات. ستعطيه إيّاها اليوم. تخفيها داخل غطاء وسادتها.

تسمع حركة ماجدة تقوم للصلاة. منذ عودتها إلى بيت أهلها وهي شبه صائمة، تكثر من الصلاة والدعاء، تجهد نفسها في أعمال البيت. كأنها ليست عند أهلها. تأكل بخجل وتتحرّك بخفّة كأنها تخشى أن تُلاحظ. لامها والداها وأخوها حسن على عنادها وعدم تساهلها مع زوجها الذي لم يفعل في نهاية الأمر ما يغضب الله.

أصعب ما تواجهه افتراقها عن أولادها الأربعة. كلهم صغار. لا يفصل واحدهم عن الآخر أكثر من سنة. خيّرها زوجها بين أن تقبل بالضرة وبين أن يطلّقها. في ساعة غضب قالت له إنّ عليه هو أن يختار ما بينها وبين الضرة. لم يخطر ببالها أن يحرمها من الأولاد. كانت سلفتها تأتِي بهم خلسة لمقابلة أمّهم حين يذهب والدهم إلى الحقل. الخبر لم يخفَ عليه طويلاً فقامت خناقة بين الأخوين. الآن ترقب الطريق كلّ فترات الصباح. لكن أحداً لا يبين. تبقى سجينة الجدران على مدار النهار. رغم ذلك لا تسلم من ألسنة الناس. عندما تجلس مع أختها زينب لا حديث عندها إلا استرجاع حركات أطفالها وأقوالهم. تذكرهم فترتعش شفتاها وتبكي دون صوت. كأنهم أذكى وأطرف أطفال في العالم. عندما سألها أخوها إن كانت توافق على التوسّط للصلح مع زوجها، سكتت وبدت راضية. في الأيام التالية بانت مطمئنة لأوّل مرّة. لكنّ الردّ الرافض بعد أسبوع

أثقل عليها وصارت أشبه بالطيف لشدّة ضمورها. أمها تقول إنها لا زالت صغيرة وإنها ستتزوّج ثانية ويكون لها أولاد من جديد.

- «أليست أماً؟ كيف يخطر لها أنني قد أنسى أطفالي؟» تقول ماجدة شاكية أمرها لزينب. و

تفكّر زينب أنّ الوقت لا يزال مبكّراً لتنهض وتتحضّر للذهاب إلى صيدا. تستعرض ملابسها في رأسها. لا يقرّ رأيها على ثوب أو بنطلون حتى تغيّر رأيها. الأفضل أن تلبس ما لا يستدعي اعتراض أحد من عائلتها. لا تريد أن تُمنع في اللحظة الأخيرة. عمل حسن في بيروت منذ شهر خفّف عنها الضغط. صحيح أنها لا تستطيع الخروج كما تشاء، لكنها لا تشعر أن هناك عينين تترصدانها على مدار النهار. توسّط لحسن رئيس البلدية ليعمل حارساً لمصرف في المزرعة. صاحب المصرف أحد المغتربين الذين أثروا في أفريقيا. في بداية الأمر صار ينام عند حسين. لم يطل به الأمر حتى تشاجر معه. رأى في البيت قناني بيرة. قال له حسين إن لم يعجبك تدبّر لك مكاناً آخر، لن يختلف مع رفيقه بسببه، ثم بأي حقّ يفرض عليه ألا يشرب؟ من هو ليفعل ذلك؟ لم ينته الشجار على خير لأن حسن قال لأهله إن سلوك أخيه حسين متهتك لا يصلي ولا يمانع في مجالسة من يشربون الكحول، لا بل ربّما يشاركهم في السكر. هكذا امتنع حسين منذ ذلك الحين عن المجيء إلى الضيعة مردّداً أن لا أحد لديه الحقّ في أن يملي عليه أفعاله وأن على حسن أن يحترم فارق السنّ بينهما. تمنّت زينب لو يجد حسن ما يلهيه عن المجيء إلى الضيعة في آخر كل أسبوع، ويأتي حسين، الأخ اللطيف بدلاً منه. تحبّ القصص التي يرويها حسين عن أصدقائه، تحبّ أسماء الشوارع التي يذكرها وتتخيّل عالماً واسعاً وبنايات جميلة ومقاهي وطرقات تسير فيها بحريّة معانقة متري في كلّ لحظة. لا تفترق عنه ثانية. ولا تلتفت مذعورة كلما التقته.

كم تطلّب منها هذا المشوار من خطط. مشوار لساعات إلى صيدا. قالت إنها ستحضر عرس ابن عمّها لكن ليس لديها ما ترتديه لهذه المناسبة. عادة لا تذهب إلى هكذا مناسبات. لكن رغبتهم في أن يراها رفاق ابن عمها علّها تجد عريساً مغترباً بينهم دفعها لاستغلال الأمر. ستلتقي متري أمام أحد المحلات التجارية وستتبعه عن بعد ليذهبا إلى مكان ناء عن الأعين. لا تعلم كيف سيتدبّر مكاناً كهذا. تزداد ضربات قلبها كلما انقشع الضوء أكثر. لا تعود ماجدة إلى فراشها. تدخل المطبخ لتحضّر الشاي لوالدها قبل عودته من الجامع. رائحة حليب يفوّر على النار، تسمع دعسات أمها في الخارج. ما إن تمر بمحاذاة الحبق حتى تفوح رائحته في أرجاء البيت. تسمع أخوتها وهم يعودون إلى دفء فراشهم. حديث خافت يتبادله والداها.

شحرور يجرح الفضاء بصوته الحنون. لا تريد أن تنهض من فراشها تحبّ أن تبقى وحدها لتتخيّل لقاءها بمتري. ستضمّه ولمرّة ستنسى الناس. تتذكّر أصابعه المستديرة الثخينة، أظافره القصيرة التي يقضمها، رموشه السوداء الطويلة، العينين اللتين يتبدّل لونهما باستمرار. يفرح فيصبحان بلون العسل. عندما يفترقان تتلوّنان بأخضر ورق الزيتون. تحبّ أن تقبّل عينيه وتحسّ بارتعاشتهما تحت شفتيها. تدخل ماجدة الغرفة فتقطع أنفاسها. لا تريد أن يقاطع أحد أحلامها. تتناول شالاً من الخزانة وتخرج محدثة ضجة كأن لا أحد ينام في البيت. هي محظوظة أنّها تنام في غرفة مع ماجدة. أخوتها الصبيان يفترشون أرض الصالون للنوم لا تدري كيف يطيقون هذه الزحمة. عندما كانت ماجدة في بيتها الزوجي نعمت طويلاً بوحدتها في الغرفة. كانت رفيقاتها يزرنها بسبب هذه الغرفة، تخرج احداهن سجائر مخفية في ثيابها ويشرعن في التدخين آخذات مجّات طويلة. عند أي حركة تطفئ السيجارة في غطاء علبة تنك وتخفى تحت

السرير. لا تذكر لماذا كنّ يضحكن هكذا. كانت فاطمة أكثرهنّ جرأة. تحكي بأدقّ التفاصيل لقاءاتها السرية بصديق أخيها. تصف قبلاته، يديه وهما تتحسسان كل جسمها. تردّد عبارات الغزل التي يهمس لها بها. لا تبالي لهن وقد أخجلهن الوصف. كثيراً ما فكّرت زينب أن فاطمة تكذب. تؤلّف كل ذلك لتفلت من حياتها الصعبة.

كانت الغرفة واحة لهنّ. تمتلئ بقصص عن الوالد القاسي عن حبّ أستاذ في المدرسة، عن ظلم زوجة أب. في دار المعلّمين تبدّلت. رفيقاتها أيضاً كل واحدة سلكت درباً مختلفاً. عندما تلتقي بإحداهنّ ترتبك، لا تدري أي كلام تتبادله معها.

باستثناء ماري لا صديقة لديها. لا تريد إلا ما يربطها بعالم متري. تعرف كل شيء عن أخوته. رأت صورهم. تعرف خصال كل منهم وعلاماته ومشاكله كأنها تعيش معهم رغم أنها لم تلتق بعد إلا بأمه صدفة. كان لقاء قصيراً لم يتعد عبارات السلام، تلعثمت ولم تقل إلا الحمدلله حين سألتها أديل عن صحتها. أغضت متأملة أصابع يديها. تلك الدقائق بدت لها دهراً لشدّة ارتباكها. بعدها أرهقت متري وهي تردّد على مسامعه: «وجدتني بلهاء أليس كذلك؟ قل لي ماذا قالت لك؟». عبثاً يؤكّد لها أنها لم تخبره حتى. تشكّك في ما يقول ظنّته يراعي مشاعرها ويخفي عنها ما قالته أمه.

الشمس ترسم نجوماً فوق الملاءة. الأصوات تتزايد من حولها. تفكّر أنها لن تنهض إلا بعد خروج أخوتها ووالدها إلى العمل. هكذا لن تخضع لأسئلتهم. حتى بعد أن أذنوا لها بالذهاب إلى صيدا. لا شيء يضمن عدم تغيير رأيهم أو الطلب من ماجدة أو أمها بأن ترافقها. الفكرة أفزعتها. ماذا تفعل إن أرادت أمها مرافقتها؟

منذ بدء عطلة الصيف ما عادت تتحمّس للنهوض من سريرها. تبقى النهار بطوله في ثياب النوم. عندما ينادونها لتأكل تردّ سآتي ولا تفعل.

اليوم الوحيد الذي جالست فيه كل من زارهم هو يوم قُصفت المروج. الرعب قتلها. أرادت أن تسمع خبر الغارة. صحيح أنها سمعت الخبر ألف مرّة على الراديو، لكنها أرادت أن تتأكّد أنها القاعدة قرب بيت جديه لا المراكز المتوزعة بين بيوت القرية. أحزنها أن تتخيّل فزع متري على جديه وعلى أولاد خاله. عندما تجده متكدراً تقول له إنه يحمل الدنيا فوق أكتافه فلم لا يخفّف عن نفسه؟ الآخرون ليسوا قاصرين. نور الشمس يتراقص فوق عينيها المغمضتين ويلسعهما بحرارته. ترفع الغطاء ليغمر رأسها.

هدوء يحلّ فجأة. تنهض من سريرها. في المرآة رأت سواداً غامقاً تحت عينيها. ستخفيه بالقليل من البودرة.

تجلس فوق المصطبة قربهما. تشرب الشاي على مهل. العدس الذي تنقيه ماجده يكرج فوق الصينية. أمّها على غير عادة جالسة دون أن تنشغل بشيء. نظرت طويلاً إلى زينب ثمّ قالت لها ألا تختار لوناً داكناً لأنه لن يناسب بشرتها الغامقة.

منذ صغرها وأمها تشير إلى لونها الأسمر كأنه عيب، تقارن بينها وبين ماجدة البيضاء ذات الشعر الكستنائي. لتغيظ والدتها تقول لها «لم آت بلوني من عندي ورثته عنك.» اليوم لا تريد أن يحدث أيّ عائق توافقها على ما تقول. ما همّها أن تشتري ثوباً أحمر أو أصفر، المهم أن ترى متري. تبتسم له بينما تراه في مخيلتها. ابتسامة لا تفوت والدتها: «على غير عادة الست زنوبة راضية!»

يلزمها وقت لتشعل النار في موقدة الحطب في الحديقة. الآن وقد حلّ الصيف باتوا لا يستخدمون إلا الموقد. الغاز مقطوع باستمرار. تتفقّد سخونة الماء كل بضع دقائق. لا تريد أن تتأخّر. بعد أن تغتسل تختار بنطلوناً أسود وبلوزة بيضاء بأكمام وحذاء دون كعب. تدخل ماجدة. تسحب مالاً دسته تحت المناشف في درفة الخزانة. تسألها إن كان لديها مانع من أن

تشتري لنبيل ابنها سيارة تسير بتصفيق اليدين. قال إن إبن أم صبحي لديه منها. تريد أن تفاجئه بها حين تراه.

أكثر من نصف ساعة انتظرت مرور سيارة أجرة. تعلّقت عيناها بالطريق. عندما ركبت سيارة أخيراً راحت تتأفّف بصوت مسموع عند الحواجز وفي زحمات السير. حدّقت في عقارب ساعتها كلّ لحظة. ما إن وصلت السيارة إلى مشارف صيدا حتى ترجّلت. مشت نحو المكان بسرعة جعلتها تتعرّق. وقفت أمام المحلّ. لم تجد متري. وصلت قبل الوقت بأكثر من نصف ساعة. بدل أن تستغلّ الوقت بشراء ما تريد كي لا تعود خالية اليدين إلى البيت، تمشت في الشارع ذهاباً وإياباً. وقفت أمام الواجهات. تظاهرت بالتفرّج على الساعات وعلى العباءات والأحذية. عندما وضع يده فوق كتفها جفلت. زعلت لأنها فوّتت عليها رؤيته قادماً. ارتبكا كأنهما يلتقيان لأول مرّة وتصافحا كأنهما غريبان. مشت خلفه بعيدة عنه بضعة أمتار. لحقت به عندما دخل في بناية قديمة تقع في زاروب مكتظ، ملأه الأولاد بصراخهم وهم يلعبون وسط الطريق.

في المدخل احمرّت عندما حدّقت بها امرأة تكنس أمام عتبة بابها في الطابق الأرضي. تهدجت أنفاسها وتبللت بلوزتها قبل أن يصلا إلى الطابق السادس. قلبها يخفق فيما يتك المفتاح في القفل. تدخل خلفه مرتجفة كأن العيون تترصدها خلف الأبواب المقفلة في الطابق. تعانقا دون أن يتكلما. لم ترد أن تبكي لكن دموعها نزلت وحدها. قال إنه بيت أحد الرفاق. هو وزوجته يغيبان في العمل فترة قبل الظهر.

لا تذكر من البيت إلا فوضاه وستائره المخملية المثقلة بالغبار. لعب أولاد تملأ الصالون. ثياب مبعثرة فوق الكنبات القديمة. لم تنتبه للوقت ينقضي.

عندما تعانقا فوق ذلك السرير الغريب لم تحسّ أنها المرّة الأولى.

كأنه دائماً كان في أعماق روحها وجسدها. لم ترد أن يخرج منها. جسمها تعشّق رائحته.

في السيارة كانت تخفي عينيها بيدها ناظرة إلى الخارج. قالت له ليتني صغيرة فتبتلعني وأبقى داخلك لا يفرّقنا شيء.

الشمس تنحني باتجاه البحر. طعم الملح تحت لسانها تفسده رائحة المجارير القوية. تدسّ أنفها ببلوزتها البيضاء فتشمّ رائحة متري وتمتلئ عيناها بالدموع. تحسّ أن كل من ينظر إليها سيحزر. كلّ شيء محفور فوق وجهها وجلدها. ترى بائع سمك يمدّ نحوهم سمكة فضية كبيرة مردداً للسيارات العالقة في الزحمة إنها طازجة ولا تزال تفرفر. يفتح خياشيمها قائلاً: «مثل الدم انظروا». يقول السائق «إنهم غشاشون يدهنون الخياشيم باليود الأحمر»، يحكي عن سمك نهري تصيّده مرّة من العاصي. تغيب عنها كل أحاديثهم. عند مشارف البلدة تلمح والدها سائراً فوق بغلة محمّلة بقضبان يابسة وسلل من الفول الأخضر. تنحني كي لا يراها. ارتاحت لأنها ستصل قبله وقبل عودة أخوتها.

- 34 -

في فترة قصيرة جداً امتلأت القرية بنازحين من بيروت. من لم يجد له مسكنًا عمّر على عجل غرفة وحماماً. ارتفعت دور فوق البيوت القديمة. دكاكين جديدة فُتحت وصالون حلاقة نسائي وآخر رجالي. بدل اللحام الذي يذبح يوم السبت، بات هناك لحّامان يذبحان كلّ يوم عجلاً بلدياً. أنشئت تعاونية لبيع المنتوجات الزراعية والمونة. كثيرون يقصدونها من صيدا وبيروت والبلدات المجاورة. هكذا وجد جبرايل تصريفاً لمنتوج

الزيت والمعقودات والعرق والنبيذ والكشك واللبنة المكبوسة بالزيت.

لم يعتد بضع مئات من الساكنين الدائمين على مثل هذه الحركة والضوضاء. كأن القادمين في إقبالهم على السهرات لم يعيشوا حرباً. هذا ما كان يقوله القرويون.

فتيات في تنانير قصيرة وأحذية بكعوب عالية يتمخترن في الطرقات، شبان بشعور طويلة وقمصان مفتوحة يشربون البيرة جالسين على مقاعد الحجر اللصيقة بالكنيسة. أمهات مصففات الشعر يقدن سيارات ويدخنّ في العلن، يدخلن الكنيسة في قداس الأحد بقمصان مكشوفة وثياب غير محتشمة. سهرات رقص وغناء وشرب تطول حتى الصباح.

عندما بنيت المدرسة الجديدة كثيرون سجّلوا أولادهم فيها. على الأقل بإمكانهم متابعة دروسهم الثانويّة دون أن يضطرّوا إلى التسجّل في مدارس بعيدة. صاحب المدرسة دفع رواتب جيّدة لمعلّميه وتعاقد مع معلّمين من مدارس رسمية ومع طلاب لم ينتهوا بعد من تعليمهم الجامعي فامتلأت المدرسة بشبان يصعب التفريق بينهم وبين تلاميذ الثانوي. أرادت هند أن ينتقل روبير إلى المدرسة الجديدة لكن جبرايل قال إن الدير قديم ومعروف بمستواه الجيّد أما المدرسة الجديدة فلا أحد يعرف خيرها من شرّها. جاين وكاميليا تسجّلتا فيها. استطاع متري ان يتوسّط لدى المدير كي يحسم خمسين بالمئة من القسط. بالمقابل وافق على تعليم الرياضيات في الصفوف المتوسطة بسعر أقلّ من المعلّمين الآخرين. حمّس زينب لتعلّم معه ومع ماري فيها. لم تسأل أهلها رأيهم. أبلغتهم إنها ستعلّم ساعات اضافية في مدرسة خاصّة. لم يعترضوا ولم يعلّقوا على الموضوع. كان متري من قال لها إنّ الاكتفاء بتبليغهم يقطع عليهم طريق الرفض.

لم تحبّ كاميليا المدرسة الجديدة. بناؤها ضخم. جدرانها قاسية لم تورّق. من بعيد تبدو كالمصنع. الكبار يتدافعون فوق الأدراج فيوقعون

الأصغر غير آبهين. بقع الدهان ظاهرة فوق بلاط الصفوف. الجدران العارية صفراء شاحبة. الملاعب ضيّقة ليس فيها مقعد واحد أو شجرة.

لم تجد من تعرفه في بداية السنة. تبحث عن جاين في الفرص. تطعمها سندويش الزعتر كي لا تلوّث ثيابها بالزيت. تمشي برفقتها ممسكة يدها الصغيرة، تستمع إلى ثرثرتها وتسرّح لها شعرها المبعثر بأطراف أصابعها. أحياناً كانت ابنة عمتّها التي في الأول الثانوي تأتي مع رفيقاتها لتسلّم عليها. في المرّة الأولى عرّفت بهما على أنهما أولاد المرحوم خالها، كأن لا أسم لهما. تحاول كاميليا أن تتجنّبها بالاختفاء خلف عمود.

منذ صارت في الأول المتوسّط، زادت فروضها. تنجز معظمها في الصف عندما تضجر من الشروح المعادة وحين تتعبها الصور التي تكرّ في مخيّلتها. يقرع الجرس فتركض للبحث عن جاين. لا تدري سبب خوفها لكن ما إن تلمحها حتى تهدأ ضربات قلبها. العودة إلى البيت تخيفها أيضاً. ماذا لو قصفت الطائرات في غيابها. قد تخطئ هدفها وتصيب البيت. قد تفلج جدتها كالمرة السابقة. قد يموت جداها. تمسح دموعاً تسقط رغماً عنها فوق خديها. عندما تنتبه جاين وتسألها ما بها. تنحني نحوها وتقبّل أعلى رأسها. الليل أصعب عليها من النهار. تحلم بالطائرات تقصف. تسمع صراخاً فظيعاً. تعرف الصوت الذي يستنجد إنه والدها أنطوان لكنها مسمّرة في مكانها. تحاول الحركة دون جدوى. قد يتغير الصوت ويصبح جاين أو روبير. عندما توقظها كوابيسها تلتصق بجاين النائمة قربها تشمّ رائحة رأسها، تتلو الصلوات لكن الصور لا تغيب. تحاول العدّ أو تذكّر ما قرأته في الكتب التي أهداها إياها روبير. تكتب في رأسها رسائل لأمها. تعاتبها أو تذكرها بآحاد بعيدة كانوا يخرجون فيها إلى حديقة السيوفي. تجلس وتراقبهم يلعبون فوق الأراجيح. يرونها تبتسم لهم من بعيد. عندما تغمض عينيها تستطيع أن تسترجع رائحة سرير والديها ودفأه. كان يقول

لها «نور حياتي» فتبتسمّ وتغلّ فيه غير آبهة بذقنه النابتة وبمعانقته التي تؤلم عظامها.

قبل أن تصلا بمحاذاة قاعدة الفدائيين تحفّز جاين على الركض. تصلان لاهثتين. كأنهما تتسابقان وطائرة خفيّة قد تشقّ الغيوم وتفاجئ الجميع. تحاول أن تكشح هواجسها بعيداً. تتخيّل أنها حتى لو اختفى جداها تستطيع أن تهتم بالحقول والبهائم. ألا تظلّ جدتها تثني على شطارتها في رصّ الزيتون وفي صنع ربّ البندورة. حتى الصابون تعلّمت صنعه.

في العطل رغم اصرار جديها لا ترافق أياً من عماتها إلى الضيعة. يلمن غالبًا جدتها. يقلن إنها تسجنها في البيت بدلاً من أن تدعها تتسلى مع بنات عماتها. سمعت عمتها تيريز تقول: «ألا ترين كيف لا تجيد الكلام. كأنها خرساء. إما تعمل كأنها ابنة فلاحين أو تدفن رأسها في الكتب. والدها دكتور وليس راعياً!». تناديها حينها هند وتسألها أن ترافق عمتها لأن القرية مليئة بفتيات في مثل عمرها. لا تردّ كاميليا. تبتسم بخجل ثم تعود أدراجها لتنصرف إلى ما كانت تفعله.

في الأعياد عندما يمتلئ البيت بالعمّات والأزواج والأولاد تتوارى لتجلس بين أنقاض بيت تهدّم بعد الزلزال الكبير. تتأمّل الجدران التي لم يبق إلا بعضها، ترافق بعينيها حركة وكر نمل يشقى في نقل طعامه. تدعهم ينادونها مرّات للطعام قبل أن يأتي روبير ويمسك يدها ليجرّها إلى الاجتماع الصاخب.

تنتظر بلهفة عودة أخيها في العطل.كلّ يوم تحكي معه داخل رأسها. تخبره عن مدرستها عن جاين، عن الكتب التي تقرأها. تعرف أسماء التلاميذ الداخليين واحداً واحداً. تسأله عن شادي كأنه فرد من العائلة. يستطيع أن يضحكها بتقليده للرهبان، بتكراره لتعليقات التلاميذ والطباخات. معه تلعب، وتعود أختاً صغيرة.

- 35 -

يرى صونيا قرب مدخل الكافيتيريا. تسرع لملاقاته ما إن تراه. تبدو له مختلفة دون أن يكتشف السرّ.

تسجّل كلاهما في فرع الحقوق.هو لا يحضر الصفوف أكثر من مرّة واحدة في الأسبوع بسبب عمله. رغم فقدانه الأمل بالحصول على منحة ظلّ يحلم بها حتى بعد أن سافر كل الطلاب. الأمر أخجل متري كأنه المسؤول عن ذلك. اختلف مع «أبو صقر» الذي كان يؤكّد أن هناك منحة لميشال. تقبّل ميشال الوضع. علاقته بصونيا سهّلت عليه البقاء وإبعاد فكرة السفر عن رأسه كلياً. يأخذ منها كل المحاضرات. هي أيضاً تعمل قبل الظهر في المدرسة الجديدة وتقوم بمهام عديدة سكرتيرة، موظفة استقبال، مساعدة في قسم المحاسبة، أحياناً تنوب عن أستاذ غائب. عندما يقول لها ميشال إن المدير يستغلّها ولا يدفع لها بالمقابل إلا القليل، تقول إنه يسمح لها على الأقلّ بحضور صفوفها كلّها بعد الظهر. كثيراً ما يضطرّان إلى البقاء واقفين لكثرة الطلاب.

امتنع منذ شهور عن الذهاب إلى الاجتماعات الحزبية. كلامه يزعج كل أصدقائه المقربين. منذ قتل صديقهم أحمد رضا وهو يتجنّب النقاشات السياسية. حتى حين يبقى عند أحد رفاقه القدامى، في الغازية أو حارة صيدا أو الهلالية يتظاهر بالانشغال في شأن آخر كي لا يقول ما يجرحهم. يتركهم في تحليلاتهم ليذهب بعيداً في خياله.

منذ ثلاثة أسابيع جاء حمزة منيمنة الى عمله، رافقه إلى المستودع ثم جلس قربهُ وهو يدقّق في الفواتير، لم يكن من عادته أن يقصده. ليسا مقرّبين إلى هذا الحدّ. جمعهما الحزب وبضع سهرات مشتركة. لكن حين

راح يحكي عن أحمد رضا، فهم ميشال سرّ الزيارة. كان حمزه سيرافق أحمد إلى بيروت لكن سهره الطويل قبل ليلة واسرافه في الشرب أخّره عن النهوض إلى ما بعد الظهر. مساء علم أن حاجزاً لأمل قام بتصفية أحمد ورفاق آخرين عند حواجز في بربور والأوزاعي. قال إنه يعجز عن النوم حتى لو شرب قنينة ويسكي. أصرّ على أن يبيت ميشال عنده. قال إن اثنين من معارفه تزوّجا حديثاً والشباب اعتادوا على السهر في بيتهما في عبرا. عندما قال ميشال إنه لا يعرفهما حكى حمزة عن الزوجين المرحبين بكل الضيوف. ارتبك ميشال من إصرار حمزة ومن هذه الحرارة المفاجئة تجاهه. مساء وجد حمزة في انتظاره أمام المتجر.

كانت المرة الأولى التي يدخل فيها منزله. أمام العتبة أفريز حجري صفّت فوقه مساند وسجادة قديمة. لم يتوقّع أن تكون والدته الحاجة كبيرة السنّ هكذا. ظنها في البداية جدته. ربما حزر حمزة ما يجول في خاطره فأفهمه أنه الأصغر في العائلة وأن ابن أخيه من عمره وهو صديقه. ندم لأنه رضخ لحمزة، كان يبتلع طعامه بخجل منعه من رفع عينيه. فكّر بصعوبة أن يغمض له جفن في هذا المكان الغريب. شرب الشاي محدّقاً بالسبحة تكرّ حباتها بين يدي والد حمزة. ارتاح ما إن خرجا. الهواء المسائي رطّب الجوّ. من البساتين التي مشوا بمحاذاتها فاحت رائحة زهر الليمون. كانت ليلة جميلة. النجوم والقمر البدر أنارت عتمة الدروب الداخلية. دلّه حمزة على شقة مشعشعة الأضواء تقع في الطبقة الثانية. الطريق إليها ترابية. بضعة بيوت محاطة بجنائن تتوزّع في البعيد. بنايات لم يكتمل بناؤها تلاصق البناية التي قصدوها. ما إن اجتازا مدخل البناية حى تعالت أصوات الموسيقى. فوجئ ميشال بأكثر من خمسة وعشرين شخصاً داخل الغرفة التي دخلوا إليها. لم يعرف صاحبَيْ البيت. معظمهم جلس فوق السجادة أرضاً. صوت المطرب يخرج من آلة التسجيل مبحوحاً. نظر حوله فوجد

بعض الوجوه المألوفة. اختفى حمزة داخل البيت فاحتار ميشال وخرج من باب إلى الشرفة. وجد شاباً وفتاة جالسين أرضاً متعانقين. لم ينتبها له، رغم ذلك ارتبك وعاد إلى الداخل. حينها سمع حمزة يناديه ليعرّفه على الزوجين غسّان وماريا. بدوا له مرتبكين أكثر منه كأنهما ضيفان هنا مثله. بعد قليل قدّم له أحدهم كأس نبيذ. قناني مختلفة حملها الضيوف ووضعوها فوق طاولة في الزاوية. الدخان وخز عينيه كأنه يرى الجميع من خلف ضباب. سجائر تمرّر بين الجالسين في دائرة. يذكر أول مرة أعطوه فيها سيجارة حشيشة، أخذ مجة وهمّ بإطفائها في المنفضة حين تعالت الصرخات ألا يفعل. لم يفهم لماذا يدخنون كلهم من سيجارة واحدة أهو تقليد ما؟ لاحقاً علم أنها حشيشة. الآن يتظاهر بأخذ مجة لكنه لا يفعل، لا يعلم لماذا. ربما السبب «طنوس المطفي» كما ينادونه منذ صغرهم في الضيعة، يسمونه أسماء أخرى «الحشّاش» «المسطول». ما كان يعرف حينها شيئاً عن الحشيشة سوى أنها تحوّل الناس على شاكلة طنوس ذي الأسنان المهترئة الذي كلما مرّ لحقه الأولاد ورموه بالحجارة وبالأغاني الهازئة. حاول أن يتخلّص من انزعاجه. أكثر من التدخين ومن الشرب. أكل قضامة من صحن وُضع بينه وبين من يجلسون قربه. في البدء لم يتبادلوا أي كلمة. بعد بضع كؤوس باتوا يضحكون لأي كلمة أو طرفة. الأحاديث السياسية احتدّت وسمع شاباً ملتحياً لا يعرفه يشتم صاحب البيت متهماً إياه بالبرجزة والرجعية. زوجته ماريا كانت تغيب وقتاً في الداخل قبل أن تعود بصحون ملأتها بالخسّ والجزر المملح. أغطية العلب تحوّلت إلى منافض. لم يبد له البيت شبيهاً بما عَهدَه. مفروش بأقل ما يمكن من الأثاث. كنبة عريضة وأخرى قبالتها. وطاولة ملأوها بالكؤوس والقناني. لم يلحظ أي جهاز تلفزيون.

كل شيء كان يوزّع على الحاضرين الجالسين أرضاً. يدخلون بين

الحين والآخر ويعودون بوسادة أو شرشف من غرفة النوم. الجلوس أرضاً يبّس أطرافهم. الموجودون هناك تحوّلوا بالنسبة إلى ميشال كأنهم شخص واحد. ينظر فيرى خيالات دون أن يميّز ملامحهم أو وجوههم. هكذا نسي ارتباكه مغرقاً رأسه بضباب الكحول. بعد وقت حاول الوقوف للخروج إلى الشرفة. الهواء في الغرفة قلّ. قام بتثاقل. رآها تدخل من باب الشرفة فيما يهمّ هو بالخروج. استغرب أنه لم يلمحها قبل في السهرة. أتكون انزوت على الشرفة طوال هذا الوقت؟ لم يكن وحده على الشرفة. فتاة أخرى نائمة تشخر فوق البلاط مباشرة. قربها سيجارة تكمل اشتعالها. توجّ جمرتها في العتمة. عندما عاد إلى الداخل رأى الفتاة التي التقاها قبل قليل تجلس مكانه. لمّا رأته فهمت فاعتذرت وقامت لكنه بحركة أفهمها أن تبقى وتفسح له قربها. كانت كلما حرّكت رأسها تفوح منها رائحة التبغ وعرق خفيف. من طرف عينه انتبه لها. عينها اليسرى تبدو مشروحة بسبب جرح طويل عند طرفها. شعرها طويل ومتموّج. كانت ساقها ملاصقة لفخذه. كلما تحرّكت اصطدمت به، تسارع في الاعتذار دون أن تنظر ناحيته. كأن الكلمات تخرج من فمها دون انتباه أو تفكير. قميصها يرتج جهة القلب. يحسّ أنه رغم الضجيج يستطيع أن يسمع تلك النبضات. لم يدرِ ما الذي جعله ينسى ما حوله وينصت إلى الأصوات التي تحدثها بينما ترتشف من كأسها جرعات متلاحقة. بعد قليل استجابت لاشارة من ماريا فقامت ودخلتا معاً إلى غرفة أخرى. خشي ميشال ألا تعود أو أن يجلس مكانها أحد. فوضع علبة السجائر والكأس وصحناً تسبح فيه حبتا ترمس مكانها. خاف عندما طال غيابها. ما الذي يؤكّد له أنها ستعود؟ ربما دخلت لتنام. من تكون. لم يسبق له أن التقاها. قبل أن تعود لتجلس قربه. أحسّ بأن قلبه انتزع من صدره. كيف يخاف هكذا وهو لا يعرفها. رآها تعود وقد خلعت حذاءها وأبقت جواربها الزرقاء. كانت تمشي على

رؤوس أصابعها كأن الأرض مليئة بنثر الزجاج. تخيّل أنها ابتسمت له وهي تنحني لتتربع هذه المرة. لم يبعد ساقه. أحب هذا القرب. كل ما فيه ينتفض كأنه دجاجة مذبوحة. قاوم رغبته في ضمّها. أهو الشرب؟ ما الذي يحصل له؟ لامست يده بينما تسحب المنفضة لتضعها بينهما. لم تعتذر هذه المرّة نظرت إليه وابتسمت بحذر. يعلم أن وجهه اختنق بالدم، فكّر أنها ستلحظ أذنيه اللتين احمرتا بدورهما. سمع هذه المرّة أحدهم يناديها باسمها ويسألها عن ألبير. شعر بالغيرة تقتله. من يكون ألبير أهو حبيبها؟ هدّأ نفسه مفكّراً أن ألبير قد يكون رفيقاً أو أخاً. ظنّ أن الكحول وروائح الحشيشة قد أثّرت بعقله. وإلا كيف يجنّ ويتعلّق بفتاة لا يعرفها. حتى الاسم الذي سمعه لا يعقل أن يكون اسمها فمن يدعى «نونا» فجأة أحسّ أنه مختلف. لا يشبه من حوله لا في كلامه ولا في لباسه. الكل حوله مرتاح إلا هو. أحنى رأسه متأملاً اللون النبيذي في كأسه. رماد من سيجارته طفا فوق السائل الداكن. الدموع ملأت عينيه رغماً عنه. أحسّ بأنه ضعيف لا يملك أن ينسى هذه الفتاة بعد الآن. رفع عينيه نحوها. أسندت كوعها فوق ساقها فيما يدها الأخرى تمسك سيجارة لا فلتر لها. كأنها حدست أنه ينظر إليها. رأى جفن عينها ينتفض بقوة.رفعت رأسها سألته دون مقدّمات منذ متى يعرف أختها ماريا وزوجها غسّان؟ لم يدر كيف يشرح لها قصة مجيئه إلى هنا. قال بأن صداقة مشتركة جعلته يأتي اليوم. سألها بعد وقت عن اسمها. قالت:«نجمة». لم تسأله عن اسمه وهو ارتبك ولم يذكره. كانت تشرب بطريقة أدهشته. عادة تثمل الفتيات بسرعة أكبر من الشبان. أما نجمة فبدت له معتادة على استهلاك كميات من الكحول لا قدرة له هو على تحملّها. استمرّ يختلس النظر إليها. إلى أظافرها القصيرة الصفراء إلى رجفة شفتها، إلى يدها تنتزع التبغ العالق عند طرف شفتها أو تكشح غيمة الدخان. كأن جسمها يشتعل بكهرباء خفية. استمع اليها تسعل سعالاً حاداً آلمه. صوتها

مخنوق خافت النبرات. لم يجرؤ أن يسألها أو أن يفتح معها موضوعاً كما يفعل كل من يحيط به. استأنس إلى التصاق ساقه بركبتها وشعر أن قلبه عالق في نقطة الالتقاء تلك.

نجمة اسم قديم وغريب، لن يقول لها إن أمه أطلقت على إحدى بقراتها اسم نجمة. فكّر أن ذلك لن يعجبها كما لن تحبّ رائحة الأبقار التي عشقت ثيابهم وأثاثهم كأنها تطلع من أعماقهم. فرق شاسع بينه وبينها. أطرق حزيناً متناسياً الأغاني التي راحوا يرددونها «البحر غضبان ما بيضحكش أصل الحكاية ما تضحكش». قالت شيئاً عن الرطوبة والحرارة. سألته عن اسمه. ثم راحت تكرره كأنه أغرب الأسماء«ميشال...ميشال!»

- لم أتخيّل أن هذا اسمك. لا تشبه حاملي هذا الاسم.

سألها «كيف يبدون لها». قالت «لا أدري. هم مختلفون عنك. يناسبك اسم آخر.»

-أنت أيضاً تحملين اسماً غير شائع.

-إنه اسم جدتي لأمي. ماتت قبل ولادتي بشهرين. لكن الكل يناديني باسم «نونا» أنا أفضّل نجمة. لكن لا أحد لا في المدرسة ولا في الجامعة إلا ويناديني «نونا».

كرّر دون أن ينتبه «نجمة...نجمة».

رأى حمزة يترك مكانه وينهض متأرجح الخطى نحوه. تمنّى أن يناديه أحدهم فينشغل عنه. تقدّم متعثّراً وسأل ميشال بلسان أثقله السكر عن أخباره غامزاً جهة نجمة. احتقن وجه ميشال وتمنّى أن يختفي حمزه عن سطح الأرض. تظاهر بعدم سماعه، لم يفسح له أيضاً ليجلس قربه. تجاهل انتظاره ووقوفه. راح يتأمل جوارب نجمة الزرقاء التي رسم في أعلاها فراشات وأزهار. ارتاح حين سمع أحدهم ينادي حمزة. كانت نجمة تتكلّم مع فتاة قربها يعرفها من الحزب ولا يطيقها. ينفر من صوتها

العالي ومن ثقتها بنفسها. أراد أن يصبّ كأساً أخرى لكنه خشي مرّة أخرى أن يجلس أحدهم مكانه. فكّر أنه سيسألها ليعرف في أي جامعة تدرس. باستثناء اسمها وأنها أخت ماريا صاحبة البيت لا يعلم عنها شيئاً. عندما نهضت من مكانها شعر بأن روحه تطلع من بدنه، لا يريد أن يأتي أحد ليحتلّ مكانها. سارع لوضع أغراضه. ظلّ ينظر باتجاه الباب وقتاً طويلاً قبل أن يقطع الأمل من عودتها. تعب شديد حلّ عليه. فجأة ما عاد قادراً على تحمل الأصوات والوجوه. نهض إلى الحمام. لم يعرف وجهه في المرآة. بقايا قيء عند طرف المرحاض. روائح قوية تنبعث من المغسلة. وضع رأسه تحت الحنفية وخرج مبتلاً ينقط منه الماء. فكّر أنه قد يلتقيها خارجة من احدى الغرف الداخلية لكن الأبواب موصدة ومعتمة.

قال إنه سينساها. لا بدّ أن الكحول أثّر على عقله. لا يمكن أن يدوم ذاك الشعور.

ظلّ يراها في أحلامه ليلة بعد أخرى. زار حمزة. أراد أن يأتي أحدهم على ذكر اسمها أو اسم أختها أو صهرها لا فرق. زياراته تكرّرت لحمزة علّه يدعوه إلى سهرة فيراها ثانية. لكن لقاءه الثاني بها جاء صدفة. كان عند البوابة الكبيرة في الجامعة برفقة صونيا. رفع عينيه فرآها أمامه برفقة شابين. لحظة التقت عيونهما سارعت بلهفة منادي «ميشال؟» كأنها غير متأكدة. ثم سألته إن كان طالباً هنا؟ فهم أنها تزور صديقة لها في فرع الأدب الفرنسي. لا يذكر كيف تمّ التعارف ولا يذكر اسم الشابين معها ولا إن كان عرّف بدوره بصونيا. مشيا صامتين إلى أن سألته صونيا بحذر من أين يعرف هذه الفتاة؟ رغم محاولتها طرح السؤال على نحو عفوي، بدت متكدرة. قال إنه لا يذكر. ربما في المركز أو هي ربما أخت أحد الرفاق. ليس متأكداً.

ظلّ يقول لنفسه إنه افتتان عابر. هو يحبّ صونيا. هما متشابهان. نجمة من بيئة أخرى، سينساها. لا لن يكون أبداً كوالده. لن يشبهه في شيء.

الفتور الذي يحسّه الآن كلما أراد أن يلتقي صونيا سيزول. لكن لماذا تبقى صورة نجمة ثابتة لا تتزحزح. يراها في كلّ مكان. كم مرة أسرع خلف طيف ليكتشف أنه ليس نجمة. مقاتلته هذه المشاعر لم تنفع. حاربها مفكراً أنها مدللة ومفسودة وأنه لو تعرّف حقاً عليها لرأى مقدار سذاجتها ربّما. كأن لعنة أصابته. حتى حين يكون مع صونيا لا تبتعد صورة نجمة وتحضر بقوة أكبر لتفتت روحه. فكّر أن يحكي لمتري لكن خجله من نفسه ردعه. ماذا يقول؟ أيقول إنه خائن لا يزال يلتقي صونيا وهو مشغول القلب بحبّ فتاة أخرى؟

ما يدفعه الآن للقاء صونيا هو إحساسه بالذنب. منذ التقى نجمة في الجامعة والغيرة تمنعه من الاغفاء. يهوّن على نفسه قائلاً إنها كانت برفقة صديقين أو ربما تعرفهما معرفة سطحية. يتخيّل طرقاً لإذيتهما ولابعادهما. ظنّت صونيا أن مجيئه أكثر من العادة إلى الجامعة بسببها ففرحت لحين. انتبهت لاحقاً لشروده ولامتناعه عن الامساك بيدها أو مداعبة وجهها. حتى حين يختليان لا يغمرها ولا يقبّلها. عندما تسأله مابه؟ يردّ بعصبية كأنها تفوّهت بما يؤذيه في العمق.

- 36 -

تغمر زينب أختها ماجدة. تبكي معها. تحسّ أنها تكره والديها بحقّ. كيف يتركان أخاها حسن يؤذيهما دون رادع مراراً وتكراراً. تلامس شعر ماجدة بعد أن انزلق المنديل عن رأسها. تهمس لها ألّا تترك حسن يقرّر بدلاً منها. ماجدة لا تحكي. تستمرّ في نحيب متواصل منذ ساعات. لم تؤلمها الصفعة، تقول. لكنها لو أرادت الزواج من شخص مثل الذي تقدّم

لخطبتها لبقيت مع زوجها وأولادها. على الأقل زوجها السابق في عزّ شبابه وله طلة جميلة لا كهذا الستيني المتكرّش. هي لا تهتمّ تقول لأنه رفع يده عليها، بل لأنه لا يحسّ بعذابها كأمّ.

تستعيد زينب كلمات أخيها الجارحة. ما إن فتحت فمها لتدافع عن ماجدة حتى قال لها إن من كان مثلها، الأفضل له أن يغلق فمّه. لو عاد الأمر إليه لمنعها من الخروج ومعاشرة المسيحيين الفاسقين. قال إنها صارت تلبس وتحكي وتفكّر مثلهم. أين شرفك؟ زعق. سارعت أمه لاسكاته خشية أن يظنّ الجيران أنها عملت عملة مشينة. يتملكها الخوف في لحظات كهذه فترى أخاها يقتل متري دون تردّد.

الاشتباكات في أنحاء صيدا والضواحي حرمتها من الالتقاء بمتري كالسابق. اعتادا على التنقل بين الشقق المتاحة. أفضل مكان أشعرها بالراحة هو في البرامية. وجدت الشقة محاطة بالشجر، بعيدة عن ضجة الشوارع. الأثاث فيها بسيط لكنه غير مألوف كأن صاحب البيت صنعه بنفسه أو جمع أجزاءه من الطبيعة. في أرجاء الغرفة الكثير من جذوع الأشجار اليابسة.على الطاولات حناجر تلوين وفَرَاشِ. لوحات غير منجزة أسندت إلى الجدران. أما المعلقة فلوحات تجريدية وأخرى فيها أجسام تتشابك تشبه المكعبات وشتى الأشكال الهندسية. الألوان قوية مبهرة. كانت تتأملها وتتابع ما أنجز وما أهمل كلما أتيحت لهما الفرصة للمجيء إلى الشقة.

تتذرع في غالب الأحيان أمام أهلها بساعات إضافية في المدرسة الخاصّة لتلاقي متري. مرّة واحدة التقيا بصاحب البيت بينما هما في الطريق. وجدته مضحكاً. يشبه بيته إلى حد بعيد. شعره طويل أشعث متطاير في كلّ الاتجاهات. ينتقل من موضوع إلى آخر دون أن يربط بينهما رابط. قالت لمتري بأنه دوّخها. يعرفه متري من دار المعلمين. لكنه استقال

من التعليم الرسمي لينصرف إلى الرسم. أخته التي تزوجت من مهاجر في جنوب أفريقيا ترسل له معاشاً شهرياً يتقاسمه مع أمه الأرملة. متري لا يحبّ هذا النوع من الرسم. يحبّ أن يشاهد ما قد يفهمه. كثيراً ما تتخيّل أن بيتهما شبيه إلى حدّ بعيد ببيت البراميه. الصمت يلفّه، لا شيء سوى صوت الموج في البعيد.

تنظر إلى ماجدة وقد تقوقعت على نفسها فوق السرير. كم تبدو هشّة وصغيرة. تقول لها دون أن تفكّر ألا تخاف ستهربان معاً بعيداً. تستطيع أن تعمل ولن تحتاجا أحداً. يزداد نحيب ماجدة عند سماعها كلمات زينب. ذكرها ذلك بالمرة التي أقنعت فيها أختها ماجدة بالهرب من البيت بعد أن عنفتهما أمهما وضربتهما. حملتا معهما غطاء ومخدة واختبأتا في القبو حيث اعتادتا أن تلعبا في الشتاء. بعد ربع ساعة اشتكت ماجدة من الجوع فتسللت زينب إلى الحاكورة وقطفت حبات فجّة من البندورة.

عندما تستعيد طفولتهما لا تذكر سوى وحدتهما. لم تكن أمهما من ذاك النوع من الأمهات. لا تعانق أولادها ولا تقول تلك العبارات التي تسمع الأمهات يرددنها. ربّما لأنها غاضبة منها الآن تنسى كل ما دلّ على حنوّها.

ماجدة مختلفة تماماً. في المرات القليلة التي جمعتها بأولادها، كانت تتفقد أصابعهم وآذانهم تقبّل كل نقطة من وجوههم، كأنها تخاف أن ينقص شيء فيهم في غيابها. دموعها تبلّل ثيابهم فيسألونها عن سبب بكائها. تقول إنها فقط مشتاقة اليهم. عندما يسألونها عن سبب تركها لهم. تغضب وتصرّ على معرفة من قال لهم ذلك. تتهمّ ضرتّها الأفعى بملء رؤوس أطفالها الصغار بالأكاذيب. تهدّئها زينب كي لا يجفل الصغار من غضبها. زينب أيضاً اعتادت على شراء الكثير من الهدايا لهم: أقلام التلوين والدفاتر، أحذية بدلاً من تلك البلاستيكية التي ينتعلونها، شوكولا. في كل مرّة يأتون تقومان بتحميمهم. تظلّ ماجدة حزينة وهي تلحظ النحول الذي أصابهم.

تفكّر أن لا أحد يطعمهم. تعدّ لهم في الأيام التي تسبق مجيئهم الكثير من الأطعمة. لا يهمها إن أكلوا القليل. المهم عندها أن تفرحهم.

عندما سمح زوجها السابق بأن تراهم مرتين في الشهر خرجت من عزلتها وصمتها. حلمت بأنها قد تحصل على حضانتهم. الزوجة الجديدة حامل وتريد ربّما الخلاص من عبء الأولاد. لكن أمها تنهرها كلما سمعتها تقول ذلك. تذكّرها بعدم قدرتها على اعالتهم. عندما تقول ماجدة إنها ستعمل. تردّ أمها ساخرة بأنها لم تنه حتى سنتها الابتدائية الأخيرة. هل ستعمل خادمة مثلاً؟ عندما تردّ زينب بأنها ستساعد أختها. تقول أمها:

-«سنرى رأي زوجك لاحقاً في ذلك. هل تظنين أن هناك رجلاً يقبل أن تعمل زوجته لتعيل عائلة ليست عائلتها؟» ثم تندب حظها لأن الله رزقها بابنتين ساذجتين هكذا. تعدّد أسماء فتيات من الأقارب والجيران لتشير إلى حسن حظ أمهاتهن وسوء حظها ثم تسأل ربّها عن الذنب الذي اقترفته ليعاقبها بهذه الخلفة؟

فكرة الهرب من البيت راودتها كثيراً في الآونة الأخيرة. حتى أنها وضبّت بعض ثيابها مرّة وأخفتها في القبو بين جرار الزيتون. متري ما عاد صبوراً كالسابق. لا يأتي على ذكر مستقبل علاقتهما إلا ويكون في قمة التوتر. في كل مرة يلتقيان لا بدّ أن يتشاجرا. يقول إنه لا يحبّ العيش كالحرامي. يكره التسلّل والحذر، هما لا يرتكبان أي ذنب. إن كان أهله رضوا بالواقع، فأهلها أيضاً سيرضخون مع الوقت. وإن لم يفعلوا هم أحرار بتفكيرهم.

-«أتظنين أنني بلا ظهر يسندني؟ هم عليهم أن يخافوا مني».

يعذّبها أنه لا يأخذ خوفها عليه منهم على محمل الجد. منذ شهر ظنّت أنها حامل. تأخّر موعد دورتها الشهرية أكثر من أسبوعين. بدل أن يرتعب مثلها فرح وحاول اقناعها ألا تعود إلى البيت. عندما قالت إنها لا تحمل

أياً من أغراضها ولا ثياب معها. قال إنه سيشتري لها أشياء جديدة. هي أيضاً صدّقت لحين أنها ستبقى هنا معه. خططا للتوجه إلى الشوف عند رفيق له في الحزب. لن يخطر لأحد أن يجدهما هناك. ستتعمّد ويزوجهما كاهن الضيعة. انقبض قلبها. تخيّلت حسن أخاها يهدّد بذبحهما. لم تكتف بالزواج من كافر بل أنكرت دينها أيضاً. عندما حزر ما يجول بخاطرها، قال أن لا فرق عنده بامكانه أن يصبح مسلماً لكن ذلك سيحتاج إلى التخطيط لايجاد من يأويهما ويسهّل المعاملات كي لا تأخذ وقتاً طويلاً ويكتشف أهلها مخبأهما قبل اتمام معاملات الزواج. سكتت ثم قالت إن عليها العودة قبل أن يتأخّر الوقت. كانت المرّة الأولى التي تسمعه يتكلّم معها بهذه النبرة حين قال لها: «أتضحكين عليّ؟ تسمعين وتوافقين ثم تقولين أنك تأخرت في العودة إلى البيت؟ كان عليّ أن أفهم منذ البداية أن بيتك سيبقى هناك وسأبقى غريباً.» عندما حاولت معانقته وتهدئته. أفلت منها نافضاً جسمه بعصبية وقال إن العوائق ليست منهم بل منها. إنها مغروسة في داخلها. الحبّ أعماه ولم يدعه يرى الحقيقة الواضحة. أي أبله هو.

ثمّ خرج صافقاً الباب. انتظرت وقتاً. لم يعد. خافت أن يرجع أصحاب الشقة. كيف تبرّر بقاءها إلى هذا الوقت خصوصاً أنها لا تعرفهم. مشت في الشوارع غير مكترثة لدموعها ولنظرات المارة.

في السيارة التي أقلتها إلى الضيعة أحسّت بالألم الذي يرافق العادة الشهرية. لم ترتح لذلك بل شعرت كأن أملاً ونوراً قد انطفأ. الوجع في بطنها جاء حاداً أكثر من العادة كأنه شطرها نصفين. فانطوت على نفسها تعتصر أحشاءها كي لا يصدر ما يشي بأوجاعها.

لم يردّ على الرسالة التي بعثتها مع ماري وأخبرته فيها بلغة يفهمها أنها ليست حاملاً. لم يبال بشوقها. لم يقل لها عن موعد لقائهما التالي. في المدرسة يتجنب الوصول باكراً. يخرج من المدرسة بعد انتهاء صفوفه.

كأنها تلاحق سراباً. توسلت لماري أن تفهمه بأنها تريد أن تراه لنصف ساعة وأنها ستشرح له كل شيء.

ارتبكت ماري ونصحتها أن تدع له وقتاً ليهدأ. أرادت أن تحكي لأحد. لكن الدموع خنقتها ما إن فتحت فمها لتخبر ماري.. تلمحه، وفي لحظة ينسل ويختفي. عندما غاب عن المدرسة لأسبوع لم يخبرها. عرفت من ماري بأنه حصل على إجازة مرضية. ما يعني أنه في دورة تدريبية أو أنه يشارك في إحدى المعارك. رغم أنه وعدها بألا يفعل.

القوة خرجت من جسدها تسير شبه محنية كأنها لا تمتلك القوّة الكافية لترفع جذعها. صخرة ثقيلة تجثم فوق ظهرها. تلبس ما يقع تحت يديها دون عناية. لِم تفعل وعيناه لن تحطا عليها؟ تأكل على عجل كمن يؤدي واجباً ثقيلاً. كل شيء بلا طعم. لا السماء الزرقاء ولا الزهور المتماوجة ولا العصافير المتقافزة في الحقول تراها. العالم مختف خلف ضباب ثقيل. تساوت أيام العمل بأيام العطل. ما الفرق وهي لن تراه في الحالتين.

صباحاً تفتح عينيها مفكّرة أنه نهار آخر عليها تحمّله، لا تريد الذهاب إلى العمل ولا تريد أن ترى أحداً. ليلاً تتقلّب في فراشها وحين تغفو تقع في قبضة الكوابيس. تصرخ في وجه الجميع لا تطيق سماع كلمة من أحد. في الصف تنسى بداية الجملة التي كانت تنطق بها. تكثر من اجراء امتحانات لا تصححها. الجميع يسألها إن كانت مريضة. تكذب مدّعية وجعاً في المعدة.

في طريقها إلى المدرسة تستعيد بعضاً من الأمل في أن تلتقي متري. تتخيّل معانقتها له تقبيلها لعينيه ليديه. لن تدعه يرحل دون أن يعدها بأنه لن يكرّر ما فعله. الموت أسهل عليها من فراقه. صور كثيرة تتزاحم في رأسها. تصدّق إلى حين أحلامها.

ترى ماري تنهض عن كرسيها وتتجه نحوها فتعلم أنه ليس هنا. تقترب

منها وتسندها كأنها تحدس وقوعها. تفكّر أنه نهار آخر عليها مواجهته وتحملّه. منذ صغرها لم تصلّ. لكنها مؤخراً تظلّ تتمتم الصلوات كالعجائز راجية من الله أن يعيده إليها.

شهر انقضى ولم يهدأ. ربّما لم يعد يحبّها. كيف يحتمل البعاد عنها؟ كيف لا يرقّ قلبه؟ في السابق كان يكفي أن يعلم أنها تريد رؤيته ليجد ألف طريقة للقائها. الآن تبتكر مواعيد وأمكنة تقولها لماري وتكتبها له في رسائل عاجلة، لا يردّ كأنها لم تعد موجودة في عالمه. تزور ماري علّها تراه ماراً فترغمه على مكالمتها. هل يعلم بوجودها عند ماري؟ وإلّا كيف لا تلمحه ولا ترى أياً من عائلته ماراً صدفة قرب البيت؟ في بعض الليالي تخطّط للذهاب إلى بيت أهله. لكنها تخشى أن يكذبوا عليها ويقولوا إنه ليس هناك. أتبكي في حضورهم وتنهار. لا ذلك فوق طاقتها.

تفكّر أن بامكانه أن ينسى. هي لن تفعل. صورته مرسومة في بؤبؤ عينيها. عندما تنظر إلى العالم حولها لا ترى سواه.

تنظر إلى ماجدة وقد غفت. ترفع فوقها غطاء القطن.

ستكتب لمتري تفكّر. ربّما يردّ هذه المرّة. تنصت إلى الأصوات. تتأكد من أنهم فوق المصطبة. تغلق الباب ثم تجلس أرضاً ساندة ظهرها إلى الخزانة.

حبيبي متري

في كلّ مرّة أقول إنها المرّة الأخيرة التي أزعجك فيها برسائلي. لا أريد سوى نصف ساعة أشرح لك فيها موقفي. بعدها أنت حرّ في أن تصدّق أو أن تديرظهرك لي. بامكانك أن تقسو عليّ كما تشاء. لكن هل سيتغيّر ما في قلبي؟ هل سأنسى من صنع لي حياة وقلباً يحسّ. لماذا أعيش؟ لماذا أنام وآكل وأضحك في عالم لن تكون فيه. أي عالم هو؟ عالم الناس عالم لا أريد أن أكون فيه.

لم أقل إنني لا أريد الزواج، طلبت فقط أن نتمهّل. ربما تنتهي الحرب وتهدأ النفوس وتزول هذه البغضاء. ماذا ينفعني أن أتزوجك إذا كنت سأعرّضك للقتل؟ بامكاني أن أنتظر العمر كله. لن أكون إلا لك.

ألم تخبرك ماري ما حلّ بي في غيابك؟ لا أصدّق أن حبيبي الرقيق يستخفّ بوجعي. بإمكان أهلي أن يضربوني أن يقذفوني بأشنع الاتهامات، بامكان العالم أن يدوس عليّ، لن أهتمّ. لكن أن تتهرب مني ولا تكلمني. أفضّل الموت.

طوال الوقت أحكي معك أحسّ أنك تسمعني، أقول لا يعقل ألا تشعر بروحي ولوعن بعد. كم مرّة خطرت لنا الأفكار نفسها رغم ما يفصلنا من مسافات؟ كم مرّة راودتنا الأحلام نفسها ليلاً؟

هل بتّ تكرهني الآن؟

فتحت ماجدة عينيها رفعت جذعها ساندة رأسها بيدها.

- لماذا تبكين؟سألتها. لا تحملي همّاً بسببي. أي أخ مكان حسن كان ربّما تصرّف مثله.

أغلقت زينب الكتاب خافية الرسالة بين طيّاته. لم تردّ. دعتها ماجده للنهوض لتأكلا. قالت زينب إنها غير جائعة. ستلحق بها بعد قليل لتجلس معها. فتحت الكتاب، أخرجت الرسالة ومزّقتها نتفاً. ثم أخفتها في قعر حقيبة يدها. أحسّت بتعب شديد. رفعت الغطاء عن السرير تمدّدت مخفية وجهها بذراعيها المطويتين. فكّرت لو يدعونها لشأنها. لا تريد أن تفتح عينيها بعد الآن.

- 37 -

فوّرت هند الحليب ووضعت الطاسات والخبز فوق الطاولة. ارتفع خوار البقرة. الفجر طلع. استغربت أن يتأخّر جبرايل في النهوض. ذلك لا يحصل إلا شتاء حين تكون الأعمال خفيفة. اليوم ينتظرهما عمل كثير. سيقطفان حقل البازيلا قبل أن تقوى الشمس. إن انتظرا أكثر ستصبح حبات البازيلا قاسية وتفقد حلاوتها. عليهما أن يبيعا الموسم قبل أن تكثر البازيلا في الأسواق وينخفض سعرها. تفكّر أن تتركه قليلاً قبل أن توقظه. ربما أرق ليلاً. تحضّر سندويشات هندبة مقلية وزيت وزعتر لكاميليا ولجاين. تأكل لقمة هندباء أثناء ذلك قبل أن تبتلع دواء الضغط. بعدها تتوجّه إلى بيت الطين تنظّف الأجران قبل أن تملأها تبناً. دلاء الماء أثقل من العادة. سيزعل جبرايل لأنها قامت بهذه المهمة. تقترب منها أصغر النعجات وتمرّغ وجهها بثوبها. تبتسم لها وتحكي معها، تدلّلها كأنها طفلة صغيرة. جاين أفسدت النعجة لكثرة ما حملتها وقبّلتها. تتأمل عيني النعجة. تحسّ كأنها تفهم الكلمات التي توجّه اليها.

برد الحليب ولم يستيقظ جبرايل. قبل أن تعيد تسخينه قرّرت أن توقظه.

الضوء غمر الغرفة. رأته نائماً على جنبه الأيسر كعادته ووجهه جهة الجدار. نادته بصوت منخفض. لم يفق. انحنت أرضاً جهة الفراش. هزّت كتفه: «جبرايل... قم الشمس طلعت.» كرّرت مناداته دون جدوى. أبعدت الغطاء عنه. لامست يده ووجهه. جفلت من البرودة. هوت قربه بكل ثقلها. حاولت بسط أصابعه المثنية.وجدتها جامدة. قد تكون مخطئة، قالت في قلبها:»الله يلعن الشيطان على هذه الأفكار السوداء» مرّرت يدها ثانية فوق صدره. خيّل إليها أنها تسمع أنفاسه لكنها انتبهت إلى أن ما سمعته هو أنفاسها المتهدجة ودقات قلبها المتسارعة.

لم تنتبه إلى الوقت إلا حين رأت كاميليا واقفة بالقرب من الفراش. الفزع أخرسها فراحت تكرّر: جدتي قومي... جدتي قومي. لم ترد هند أن تقوم. قالت دون تفكير: «دعينا ننام يا ستي. زوادتكما فوق الطاولة».

***

عندما عادت كاميليا مجدداً كانت تقف مخطوفة اللون وقد رافقها أحد الفدائيين من القاعدة القريبة. قال كأنه يتكلّم مع ولد وليس مع راشدة «صلّي على النبي وقومي. انظري إلى البنتين كيف أخفتهما. قومي يمّه. شدي على يدي وقفي.»

كان رأسها مطموراً بظهر جبرايل. تهمس دون توقّف بلهجة معاتبة. «هكذا تفعل يا جبرايل؟» تعاونوا على ابعادها. أجلسوها على كنبة. غطتها كاميليا بحرامين من الصوف. ظلّت ترتعش رغم الحرّ. بعد قليل جاء ثلاثة فدائيين. وضعوا جبرايل فوق حرام وحملوه إلى أقرب مستوصف.

لولا الأولاد لكان يكفي أن تغمض عينيها لتلحق به. فكّرت هند.

لماذا يبقيها الله؟ شبعت عيشاً وألماً. ظلّت تقول للبنتين اللتين تقوقعتا أرضاً ووضعتا رأسهما في حضنها. «نام ولم يكن به شيء. كنا سنقطف البازيلا قبل أن تحمى الشمس.»

لاحقاً امتلأ البيت بالأولاد وبالأقارب. عندما سأل متري عدة مرات إن كان جده قد تناول أدويته بانتظام. خرجت هند عن هدوئها المعروف وصرخت: «الله أخذ منهما كل شيء أي دواء سينفع عندما يتخلّى الربّ عنهم؟»

حقن وأدوية منومة ومهدئات عكف الطبيب على اعطائها لهند ولبرناديت صغرى بناتها التي فقدت الوعي أكثر من مرّة. رأت هند البيت يموج ثانية بالوجوه الباكية. سمعت عويل بناتها. لكن أكثر ما أخافها هو مشهد جاين وكاميليا. من أجلهم فقط تقبل أن تبتلع تلك الأدوية المرّة.

روبير انتحى جانباً. لبس جاكيتاً أعاره إياها ابن عمته. فضفاضة تظهر كتفيه منحنيين. غيبة شهر ونصف بدّلته كثيراً، طالت قامته وزاد نحوله. لكن وجهه لا يزال طفولياً.

يسمعون هند أخبار المآسي. فلان فقد ابنين بعد حصار السوريين للأشرفية. وآخر مات قنصاً وهو يشتري فاكهة لأمرأته الحامل بطفلهما الأول. هذا ذُبح وذاك خُطف. يظنون أنهم يخففون عنها ببلايا الناس. كيف يخطر لهم أن هذا سيعوّض غياب جبرايل وأنطوان حبيب القلب.

جلس روبير عند طرف الكرسي كأنه يستعدّ للنهوض. استمرّت هند تنظر إليه. عندما رفع عينيه عن يديه المشبوكتين، عرف أنها تريده قربها. قبّلت جبينه. قلقت من السخونة التي لسعت فمها. قال إنه الحرّ.

جاء كاهنان من الدير للتعزية. أمسك أحدهم بيدي هند قائلاً إن عليها أن تفخر حقاً بروبير «ايمان وأخلاق وشطارة. الربّ مليء بالنعم. يعوّض عن الحزانى المؤمنين»

هرع الموجودون بمن فيهم الفدائيون لتقبيل أيدي الراهبين. اكتفى متري بمصافحتهما. الأحاديث السياسية غابت تماماً. إن قال أحدهم شيئاً حتى لو كان خبراً عادياً نظر جهة الفدائيين بريبة. الصغار في القاعدة تطوّعوا لخدمة الحاضرين. اشتروا على نفقتهم الخاصة الدخان والقهوة. طبّاخهم أعدّ طعاماً للمعزين. عندما اعترض أصهار جبرايل قال أبو فهد إن جبرايل بمثابة أب للجميع دون استثناء.

ارتفع النحيب عندما رفعوا الجثمان لنقله إلى الكنيسة. تشبثت برناديت بالتابوت ولم تفلته إلا بعد أن تعاون زوجها وأخواتها على ابعادها. صراخها المجروح أخاف جاين فراحت تبكي ممسكة بثوب كاميليا. كلتاهما في ثوبين أسودين واسعين يصل طولهما إلى الكاحل. زادتا التصاقاً بجدتهما. انحنى روبير وراح يهمس لجاين كلاماً هدأها.

نقلتهم السيارات الى الكنيسة من أجل مراسم الدفن. كان الكاهن يسرع في خدمة القداس. كرّر عظة الأحد نفسها وقال في جبرايل الكلام المكرور الذي سمعوه مراراً وتكراراً في كلّ الجنازات. لا يستطيع أن يتلكّأ. ينتظره جناز آخر في ضيعة تبعد عنهم أكثر من نصف ساعة.

بعد أن تقبلوا التعازي في دار الكنيسة. عادت العائلة إلى المروج. الأدوية شلّت حركة هند فتناوبت بناتها على تنظيف البيت لأن هناك معزين سيتوافدون بعد الظهر. سألتها أديل إن كان بامكانها أخذ سبحة الصلاة الخاصة بوالدها. تحبّ أن تحتفظ بها ذكرى منه. ردّت هند أن بامكانهم جميعاً أخذ ما يحبون. فليفتحوا الخزانة والأدراج وليختاروا ما يشاؤون.

ترددت أديل، كبيرة أخواتها، قبل أن تفتح الموضوع. قالت إنهم سيبيعون الماشية هكذا تستفيد من ثمنها. فمن سيهتمّ بها بعد الوالد؟ سكتت كأنها تخشى أن تكمل بقية حديث بدا واضحاً أن الأخوات اتفقن عليه. «ما رأيك أن تهتمّ برناديت بجاين؟ تأخذها إلى المدرسة بنفسها ستكون مدلّلة مكرّمة. وفي آخر الأسبوع تأتي بها إلى المروج؟»

-«جاين تبقى هنا في بيتها مع أختها». ردّت هند بلهجة جافة.

- «تعلمين بأنها صغيرة وتحتاج إلى عناية واهتمام أكثر من كاميليا. ثم إنها ستزوركم في العطل. لن تسافر إلى الصين. من يسمعك سيظن أن جاين مسافرة عند غريب لتسكن معه لا مع عمتها التي تموت بها..»

عندما احتدّت اللهجة، تدخّلت روز لتقول بدورها «أنت مريضة وعليك أن تفكّري بنفسك. ما عدت صغيرة لتحملي همّ أولاد صغار.»

-«أنا عجوز ومريضة. صحيح. لكنني لم أمت بعد. نسيتم أن هذه الأرض عمرت بجهدي وبجهد والدكم. طول عمري يدي بيده في كل أعمال الحقل. أتظنون أنني سأترك الأرض تخرب؟»

-«حتى لو كان ذلك صحيحاً. كاميليا وجاين تكبران وبحاجة لمن

يرعاهما ويفهمهما الحياة». قالت أديل.

-«تقولين إنني خرفة؟ من رباكن؟ أصرت الآن جاهلة في تربية البنات؟ لم تبرد تربة والدكم بعد لتتحكموا بي.»

احمرّ وجه هند وارتعشت شفتها. نظرت جهة متري بعتب كأنها تقول له «حتى أنت؟»

خجل. ماذا يقول لجدته فهو زمن يعيش غير مبال في شيء؟ لم يكن يعلم إلا الآن بما اتفقت عليه أمه وخالاته.

-«حتى كاميليا عليها أن تتعلّم في مدرسة جيدة. بنات أبو فرحات يتعلمن في دير للراهبات في صيدا لقاء المساعدة في أشغال الدير. فلم لا تتسجل فيها؟ الراهبات يوافقن مباشرة متى علمن أنها يتيمة. تتعلّم مجاناً. من سيدفع الأقساط؟ رغم الحسم هذا عبء كبير. لن يستمرّ المدير إلى الأبد بمراعاة متري. سيأتي يوم لتجدي أنك ما عدت قادرة على دفع أقساطها. قالت تيريز.

-«كاميليا لديها أمّ ولديها أنا. لم أطلب مشورتكن. هل قلت لكن ولو مرّة أنني بحاجة لمال من إحداكن؟»

تدخّل زوج تيريز المعروف بقلّة كلامه ليقول:

-«دعونا من هذا الحديث. لن يصير إلا ما تريدين يا أم أنطوان لا أحد يريد زعلك. أنت على الرأس والعين.»

عندما حاولت تيريز أن تتكلّم زجرها زوجها: «هذا يكفي. لا أريد أن أسمع كلمة أخرى في الموضوع. لا شأن لك أنت. أمك أعلم بمصلحتها ومصلحة أحفادها.»

تيريزالتي اعتادت أن تكون لها الكلمة الفصل في بيتها فوجئت بصرامة زوجها غير المعهودة ونظرت إليه متوعدة عاقدة الجبين.

تجمع روبير وأختيه حول جدتهم. وقفت جاين عند يمينها ممسكة بيدها كذلك فعلت كاميليا، فيما وضع روبير يده فوق شعرها الأبيض. مسحت هند دموعها بطرف كمها. نظرت اليهم كأنهم وحدهم سألتهم إن كانوا جائعين. نهضت عن الكنبة وفكّرت أنها لا تريد بعد الآن أن تبتلع تلك الأدوية. أدارت ظهرها للحاضرين وخرجت مع جاين وكاميليا تقطف البازيلا قبل أن يحلّ المساء.

- 38 -

منذ احتلّت منظمة أحمد جبريل بيتاً قديماً قيد الإنشاء جهة المقابر، امتنعت الفتيات عن طقس التمشية المسائية. وحدهم الشباب يتمشّون إلى تلك الحدود. يأخذون معهم قناني البيرة واللوز أو الفول الأخضر، يجلسون على «صخرة الشير» العالية ويشربون. مع الوقت تعرّفوا على بعض الفدائيين الذين باتوا هم أيضاً يسهمون في الجلسة فيرسلون إلى دكان الساحة أحدهم ليشتري البيرة وقناني عرق وبزورات. عندما يسكرون يطلقون رشاشاتهم باتجاه الوادي السحيق.

يرتعب الأهالي من معاشرة أولادهم اليافعين للمسلحين. خصوصاً إن مسلحي هذه المنظمة مختلفون عن مسلحي المنظمات الأخرى. كثرت السرقات قريباً من مركزهم. كأن الكروم والحقول ملك لهم يقطفون ما يحلو لهم. يحطمّون التصوينات، يقطفون العناقيد وهي لا تزال حصرماً. وفي أوقات سأمهم يسدّدون رشاشاتهم باتجاه شجرات التين أو اللوز أو الزيتون. بعض الكروم يكون حظها أسوأ من غيرها، تبدو كأن جراداً اجتاحها أو قطيع ماعز فلت ليكسر كل غصن فيها. لكن أكثر ما يزعج أهل

الضيعة وقاحة المسلحين الذين يتجوّلون في الدروب محدّقين بكل فتاة تجاوزت العاشرة، يرشقونها بكلمات غزل وقحة. لا يغضّون نظرهم كمن سبقهم من المنظمات الأخرى.

بعضهم اشتكى لمسؤولهم الذي وعد بتأديب من يخلّ بالأدب. لكن الانضباط استمرّ ليومين فقط. زاد الأمر سوءاً أن واحدة من النساء باتت تستقبل المسلحين في حضور وفي غياب زوجها. لم تهتمّ للألسنة التي كانت تلوكها، وتتهمّها بالجشع وبقلّة الشرف. صارت حديث الناس المفضّل. هذا يقول إنه رأى المؤن تورّد إلى بيتها بكميات كبيرة، وآخر يقول إنهم وجدوا لزوجها العاطل عن العمل وظيفة تبعده عن البيت لوقت طويل.

امتنعت معظم النساء عن مكالمتها وخوري الضيعة بات يرمقها بنظرات غاضبة في قدّاس الأحد. الكثير من العظات صارت تركّز على الزنى في تلك الآونة. ما إن يبدأ بعظته حتى يلتفت الجميع نحوها مصلبين على وجوههم خشية أن يصيبهم شيء من رجسها. إن لبست لوناً فاقعاً تهامسوا قائلين « منذ متى لديها المال لثياب كهذه؟ » إن لبست ألواناً داكنة قالوا «أتتظاهر بالقداسة؟ يا ربّ نجّنا من الكافرين».

الأقاويل لم تخفّ إلا حين بدأت المنظّمة تقليداً جديداً وهو توزيع أكياس طحين كل شهر على بعض المقطوعين كالأرامل والعجائز إضافة لتنكات كبيرة من زيت القلي. بعدها حين صار يمرّ بالقرب من البيوت مسلّح يدعوه الناس إلى شرب القهوة أو الأكل معهم إن كانوا يتغدون فوق المصطبة، هكذا دخل الفدائيون الجدد كل بيت تقريباً لكن الفتيات كنّ يتوارين داخل الدور. لا يريد أحد أن يتكرّر ماحصل في بعض القرى.

ربّما بيت ماري هو الوحيد الذي لم يدخل إليه الفدائيون. كان أحد الفدائيين يساعد تقلا أم ماري في ايصال الطحين والزيت لكن عند مشارف

البيت يتركها لتتدبّر أمرها بنفسها. أطلقوا على بيتهن اسم «بيت اليتامى». تسمية كانت تغيظ ماري.

طلبت من أمها عدة مرات ألا تأخذ لا طحينهم ولا زيتهم. «السنا بحاجة إلى إحسان أحد». هكذا تقول. لكنّ تقلا كانت تنهرها قائلة «لا تكفري بالنعمة. من أين ستجدين حضرتك طحيناً وهو مقطوع على الدوام؟»

لم تكن ماري تفهم إحساس أمها الدائم بالخوف. كأن الغدّ سيحمل حتماً أبشع المفاجآت لهن. الحساب المصرفي الذي فتحته باسم أمها لم يزدها اطمئناناً ولا جلسات المصارحة بينهن. العوز عاشته هي أيضاً منذ لحظة ولادتها لكن ذلك لا يبرّر تحكّم مثل هذا الخوف بحياتهم إلى الأبد.

قالت إنها تعمل في مدرستين وصونيا تشتغل وبريجيت تعطي دروساً خصوصية هذا عدا ما تحصّله أمها في عملها. عندما طلبت منها ماري بأن تكتفي بعملها في المستوصف. ردّت سائلة إن صرن الآن يخجلن بالأعمال التي أطعمتهن اللقمة لسنين. أخيراً رضخت ماري للأمر الواقع وما عادت تجادلها.

أكثر ما آلمها مؤخراً أنه حين تقدّم جرجس مخول لخطبتها كان تعليق أمها الوحيد: «الآن يراك؟ كيف لا يفعل وأنت كالبقرة الحلوب موظفة ومتعلّمة. حلوَّيتِ الآن في عينه؟» لا تدري إن كانت حساسيتها زادت تجاه تعليقات أمها، أم أنّ أمها بدأت تخرّف ولا تنتبه لما تقول. ألم تجد فيها ما يمكن أن يثير إعجاب شاب؟

صحيح أنها لم تفكّر لحظة بقبول جرجس. لكن حتى جرجس الذي يعمل سمساراً في الدوائر العقارية اسكثرته أمها عليها.

امتنعت ماري عن حضورالدروس في الجامعة، صونيا تأتيها بالمحاضرات المطبوعة في الربيع. تدرسها وحدها قبل الأمتحانات وتنجح في كلّ المواد. مع غياب الرقابة على المدارس الرسمية تمكّنت

من رفع عدد ساعات تعاقدها مع المدرسة الخاصة التي تعلّم فيها مادتين مختلفتين. كما فاوضت المدير لترفع أجر ساعتها بما أنها شارفت على الانتهاء من الجامعة. رغم ممانعته خشي ألا يجد بديلاً عنها. كما إنها لا تغيب ولا تمرض ولا تمانع من الحلول مكان الحوامل.

مؤخراً حلّت مكان متري الذي غاب مرّة بحجة التدريب ومعظم الأحيان لأسباب واهية وغير صحيحة بما أنها تراه يتمشّى في الضيعة. تعلم أن الأمر مرتبط بزينب. ليست بلهاء كي لا تلاحظ تجنّبه لها. ترى جيداً كيف يأخذ منها رسائل زينب بغير لهفة لا بل صار يتردّد بأخذها، كأنه يهم بأن يطلب منها اعادتها. أحزنها أمرهما. لكنها لم تردْ أن تتدخّل. إن أرادا الكلام يعلمان أنها أقرب صديقة لكليهما. حين ترى متري بهذه الحالة تتمنى لو كان بمقدورها أن تضمّه وتزيل من عينيه نظرة الانكسار والانهزام. زينب أيضاً تحزنها. عندما طلبت أن تترافقا إلى بيت أهل متري لتقدّم واجب العزاء بوفاة جده، ظنّت ماري أنّ متري سيخفّف من جفائه ويلين. لكن ما إن صافحهما حتى استأذن بحجة ارتباطه بموعد مهم وأكملتا الزيارة جالستين مع أمه أديل. رأت الدموع تفرّ من عيني زينب، رأتها تغصّ بالكلمات كأنها تختنق. عندما خرجتا لم تتمكن من تمالك نفسها بكت بحرقة. ضمتها ماري سألتها ماذا يحصل. قالت «العيش أصعب من الموت». وسكتت.

كل ما حولها يتغيّر. أخواتها كبرن بسرعة. لا يقبلن منها أن تتدخّل في أمورهن. الأمر يحزنها، تريد أن تذكرهن أن الفارق بينهن ليس كبيراً وأنها فتاة مثلهن قبل أن تكون أختهن الكبرى. عندما تسأل صونيا، التي صارت في الأسابيع الأخيرة تأكل كأنها عانت من المجاعة، عن الذي يحصل معها، تغضب وتسألها إن كان عليها أن تأخذ اذناً منها قبل أن تأكل. تراها تأكل بطريقة غريبة كأن بطنها بئر سحيقة لا يمكن ملء فراغها. شكلها

تبدّل. تبدو مستديرة. الوزن الذي كسبته تجمع عند ردفيها وخصرها. عندما قالت لأمها إن صونيا تقلقها، ردّت: «لا تأكل إلا الصحة».

تتكرّر نهارات ماري دون تغيير. رغم ذلك تحسّ ثقلاً. لا الانغماس في العمل ولا التصحيح يبعده. مرور الوقت لا يشفيها. تتذكّر ليلى حجازي حتى وهي تشرح أعقد المسائل. أمها قالت لها ألا تذهب إلى الدفن. لكن ذلك كان أقوى منها.

شكّلوا وفداً من الذين كانوا معها في دار المعلّمين وتوجهوا إلى بيتها في قيّاعة. في صدر الغرفة صورة مكبّرة لها تضمّ فيها ابنها بعد ولادته مباشرة. دخلت مع زميلاتها، أفسحوا لهن للجلوس قرب أخوات ليلى. وحده صوت المؤذن قطع نشيج الباكيات. نساء يسرعن إلى الأم ويوقظنها من الاغماء. رائحة ماء الزهر تفوح مختلطة بهال القهوة. ابنة ليلى تختبئ في حضن احدى خالاتها. رغم الألم الذي قبض صدر ماري لم تتمكّن من البكاء، تتنفّس بصعوبة، وتسترجع ليلى الفتاة البسيطة التي كانت تضحك زميلاتها بجهلها لأبسط الأمور. كانت الأقرب في الصف لماري فكلتاهما لا تصرفان منحتهما الشهرية. مثلها ترتدي ملابس قديمة كانت لأخت أكبر منها. ومثلها أيضاً لا تشارك لا بالمشاوير التي تنظم ولا بالسهرات أو أعياد الميلاد. لكن ليلى كانت أكثر عفوية، لا أسرار في قلبها. عندما خطبت قبل أن يتخرجوا كانت الفتيات يتجمعن حولها لتسرد أدقّ ما تتبادله من أحاديث في جلساتها مع خطيبها، الكلّ يعلم متى أمسك بيدها وماذا قالت الأم له بخصوص الأثاث، ومتى سمح لها بالخروج دون مرافق. حتى الأفلام التي تشاهدها برفقته تحكي كل أحداثها.

تزوجت سنة التخرّج. عندما أنجبت ابنتها البكر زارتها ماري. لكن بعد ذلك لم تلتقيا. عندما سمعت اسمها واسم ابنها البالغ سنة واحدة، أحسّت كأن العالم انفجر من حولها. تمنّت أن يكون تشابهاً في الأسماء. لكن

متري ما لبث أن عرج عليها ليخبرها.

صدفة مرّت ليلى بذلك السوق. عادة تشتري أغراضها من قيّاعة حيث تسكن لكن ابنتها أرادت كرزاً. قالت «كل الأولاد يأكلون منه في المدرسة فكيف تقولين إن موسمه لم يحن بعد؟» حملت أحمد وذهبت إلى السوق الكبير القريب من البوابة الفوقا. القذيفة التي سقطت في السوق المزدحم جعلت المسعفين يرتعبون من الأشلاء التي تناثرت واختلطت بالخضار. يد فوق بسطة بطاطا. أصابع وسط كوم البندورة. عرفوا ليلى من خاتمها أما ابنها الذي وجدوه مقذوفاً وسط الشارع العام بقي جسمه المسحوق كاملاً. نساء يدعون ليقتصّ الله من سعد حدّاد مرددات آيات قرآنية. استغربت ماري قدرة المرأة على سرد القصّة أمام العائلة المفجوعة.

منعت صونيا لأكثر من أسبوعين من الذهاب إلى الجامعة. بعد أن خفّ القصف العشوائي على صيدا من جيش سعد حداد نسي الناس حذرهم وعادوا إلى حياتهم. كانت صونيا تقول في كل مرة يمنعونها عن الجامعة بأن القذائف لا تسقط جهة الجامعة. ما يغضب ماري فينتهي بهما الأمر مختلفتين، خصوصاً بعد أن تقول لها صونيا بأنها لا تملك أي حقّ في أن تملي عليها تصرفاتها، فهي مثلها راشدة ومثلها تعمل. الآن تتجنّب ماري الاحتكاك بصونيا. لا تجد قوة على الشجار. القوة خرجت من بدنها. طوال سنوات لم تر ليلى لكن الآن لا تمرّ ليلة دون أن تراها في أحلامها.

قبل أن تدرس التاريخ في الجامعة ظنّت أن عقلها لا يستسيغ إلا الأمور العلمية والأرقام والمعادلات، الآن تتمنى لو أن بمقدورها أن تكمل تعليمها العالي في التاريخ.

في السهرات تتسلى بقراءة المراجع. أمها تقول إنها ستفسد نظرها لكثرة ما تحدّق بهذه الحروف الصغيرة. لكن عندما أخبرتها مرّة بعض القصص الغريبة عن السلاطين العثمانيين صارت تدنو منها بينما ترفو

بعض الثياب وتسألها عن الذي تقرأه. لم يزعج ماري أن تحكي لها بعدها قصصاً أخرى عن ملوك أوروبا وفساد الكنيسة والدسائس التي تحاك داخل الأسر الملكية. صارت أمها تسأل صونيا أيضاً. لكن الأمور القانونية لم تستهوها فعادت إلى ماري تسألها منتظرة قصصاً أخرى تنسيها الوقت وانقطاع الكهرباء وألم مفاصلها.

تبعد ماري عن رأسها المضايقات التي تتعرّض لها في المدرسة الرسمية. تعلم أن قدوم المفتش إلى المدرسة ليس صدفة. لكن لماذا ستهتم وهي تقوم بما عليها على أحسن وجه. منذ عيّنوا المعلمة الجديدة انقلبت حياتها. تحاول أن تدير آذاناً صمّاء لما تروّجه عنها. المنسّق استدعاها مرّات ليسألها عن تحضير دروسها. يقلّب دفاترها كأنه يبحث عن هفوة أو أي تقصير. عندما لا يجد ما يقوله، يدّعي أن تلاميذ البريفيه لا ينالون علامات مرضية في الشهادة المتوسّطة. تقول إن معلوماته ليست صحيحة وأن الرياضيات والعلوم هي من المواد التي ترفع معدلاتهم وتعوّض عن ضعفهم في اللغة الأجنبية. يرتبك فتفهم ماري مصدر معلوماته الكاذبة. عندما تحسّ بالضغط، تعلمه أنها لا تمانع من تعليم صفوف أخرى وليسلّم صفوف البريفيه لغيرها. تعرف ماري أن هذا ما تسعى اليه المعلمة الجديدة. المدير يتدخّل ويمنع مثل هذه التغييرات. حتى أنه مرّة استدعى ماري ونصحها ألا تعقّد الأمور وتتصادم مع المنسّق.

المعلمة الجديدة اسمها علياء. لكن ماري وزينب لا تشيران إليها باسمها بل تطلقان عليها لقباً هو «الحرباية» لكثرة ما تتودّد للمنسّق ولأتباعه. ما تخشاه هو أن يشيع أنها تعلّم في الخاص أكثر مما يسمح قانونياً. صحيح أن لا أحد يتقيّد بالقانون، لكنها لا تريد أن تدع ممسكاً عليها. هي لا تقصّر بواجبها لا بل تأخذ على عاتقها كل سنة بأن تلتقي بالتلاميذ في فترة المراجعة لتساعدهم في التحضّر. بعضهم يحضر إلى بيتها في أي وقت.

الحرب أثّرت على المدارس أيضاً. انتقل الأساتذة المسيحيون للتعليم في بلدات مسيحية.هي ومتري لم يتقدّما بطلب نقلهما.

يخطر لها مؤخراً أن تبدّل المدرسة. هي في غنى عن وجع الرأس. لكنها تعرف أن رئيس دائرة التربية لن يوافق على طلبها خشية ألا يجد بديلاً عنها. هذا حصل لرفيقة لهم تعلّم في أقاصي الجنوب. أرادت أن تكون في مكان قريب من بيت أهلها. لكنهم لم يوافقوا على الطلب لأنها تعلّم اللغة الفرنسية ولا يوجد من يحلّ مكانها.

تحبّ ماري أن تكون دائمة الأنشغال. تتجنّب لحظات الفراغ. تطوّعت في حملة جمعِ الثياب والمؤن للمهجرين. شاركت في دورة اسعافات أولية، ومؤخراً طلب منها متري أن تشارك في حملة لمحو الأمية نظمها الحزب في بعض قرى النبطية. تسألها أمها محتجة: «وبم ستستفيدين؟ تهدرين صحتّك ووقتك من أجل الغرباء».

كلّ ذلك لا يلغي احساسها بالثقل كأن جسمها من معدن لا من لحم ودم.

- 39 -

يرتشف متري فنجان القهوة الرابع وهوجالس على الشرفة. الضوء لم يطلع بعد. السماء مغبرة كأن ضباباً يخفيها. رفاقه نائمون متلاصقين على الأرض مباشرة أو فوق طراحة. أبخرة الكحول لم تبرح رأسه. الصداع قوي ولم يجد في الداخل أقراص الأسبيرين. يهرب من الروائح القوية في الغرفة. دخان وأنفاس وعلب سردين وقشور فاكهة كأنها تخمّرت وتعفّنت ليلاً. لا يدري كيف يتمكنون من النوم في مكان ضيّق وحار هكذا. جرّب الاغفاء في الممر بين الغرفتين لكنه شعر كأنه داخل تابوت. مولّد كهرباء

قريب يُشغّل فيرتجّ دماغه ويزداد صداعه. لم يكن عليه أن يشرب كل هذه الأنواع. بدأ بالبيرة ثم انتقل إلى الفودكا وانتهى بهم الأمر جميعاً برشفات من العرق دون ماء أو ثلج. أحماض معدته تملأ فمه بطعم يشبه البيض الفاسد. كأنه شرب غالوناً من الكاز.

لا يذكر أنه ضحك هكذا سابقاً. رفاقه العائدون من الاتحاد السوفياتي يجيدون الاحتفال ونسيان الهموم. تعلّموا هناك السهر والاستمتاع. لكن زينب لا تغادره لحظة. خالد محقّ عليه أن ينتزعها كالشوكة من الجلد. سيؤلمه الأمر ثم تتكفّل الأيام بشفاء جرحه. ضوء نيون ينير مطبخاً قبالته. امرأة في ثوب نومها تحضّر طعاماً فوق الغاز وتحرّكه. خلفها يرى صبياً في حوالي الخامسة حافي القدمين يفرك عينه متأملاً أمه. يرى أنواراً أخرى تضاء لكن الداخل محجوب عنه بستائر. يجفل من صوت علي يسأله لماذا لاينام؟ يقول إنه ليس متعباً ولا يشعر بالنعاس. يجلس في ثيابه الداخلية على كرسي قربه عاري الصدر. يشرب القهوة من الركوة مباشرة. يحكي بصوت عال غير آبه لا للنائمين ولا للجيران الذين يتحركون الآن داخل شققهم بعد أن طلعت الشمس. يشتم الحرّ وصيف لبنان ودبقه. يقول إنه اشتاق لصاحبته تانيا لكن ماذا يفعل؟

-«لم لا تصطحبها معك كما فعل زياد؟»

-«تريد أن تقتل الحاجة؟ والله لكانت سحبتها من شعرها وأعادتها ركضاً إلى باكو.»

-«ستصير طبيباً يازلمي ولا تزال تخاف أهلك؟»

-«لا أخافهم، لكنني أحترم معتقداتهم وأفكارهم.»

-«بمعنى أوضح تخافهم؟ ماذا ستفعل عندما تنتهي دراستك وتضطرّ للعودة؟»

-«لكلّ حادث حديث. ربّما سأمهّد للأمر حتى يرضخا للواقع مع

الوقت. قالت إنها تريد أن تخطب لي ابنة خالي. لم أقبل. هكذا ستفكّر أن هناك شخصاً مميّزاً في حياتي هناك. أرأيت؟»

-«لا لم أر الرابط. ما ستظنه هو أنك لست معجباً بابنة خالك وتفضّل فتاة أكثر علماً أو ثراء أو جمالاً.»

رفع علي يده في اشارة إلى رغبته في تبديل مسار الحديث. نهض إلى المطبخ وعاد هذه المرة بكوبي شاي. كانوا يستيقظون واحداً تلو الآخر ويجلسون على الشرفة الضيّقة غير آبهين لعريهم. قعدوا فوق البلاط يشتمون ألم الرأس والرطوبة وضجيج موتورات الكهرباء.

اقترح أحدهم أن يشتروا قصبة خروف. بهاء يعرف لحاماً في الطريق الجديدة قريباً من هنا. بحثوا في جيوبهم ووضعوا مالهم في يد بهاء الممدودة.

الفوضى نفسها في الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة بهاء. ثلاثة عشر شاباً في مساحة ضيقة كهذه.

في الأشهر الأخيرة اعتاد متري على المجيء إلى بيروت موهماً أهله أنه في صيدا. حتى عندما شارك في القتال بالقرب من جامع الأوزاعي لم يعرف أحد بالأمر. قال لماري التي تقلقه بأسئلتها إنه غائب عن المدرسة بسبب دورة تدريب.

يحاول أن يبتعد قدر الامكان. لا يريد أن يضعف ويسعى لملاقاة زينب. لا يريد أن يحسّ بعد الآن أنه مجرّد تجربة في حياتها التي ستستمرّ من دونه. تعب من التسلّل ومن الحَذَر. من تلك اللحظات القاتلة التي تسبق فراقهما في كلّ مرة.

لم يخف وهو يتقدّم نحوهم برشاشه. تلاقت عيونهم. بينهم بضعة أمتار. استطاع أن يسمع أنفاس المقاتل ونبض قلبه، رأى العرق يسيل من فوديه وعينيه المرتعبتين. للحظة فكّر أن هذا المقاتل صغير بعمر أخيه الياس،

لكنه سرعان ما أبعد الصورة عن رأسه. أمثاله سحبوا رفاقه من أسرتهم وقتلوهم دون تردد أو أوقفوهم عند الحواجز غير مهتمّين بشبابهم.

رأى النخاع يتطاير من جمجمته ليلطّخ جدار الجامع خلفه، مادة صفراء وخضراء بقّعت سترته ووجهه. لم يمسح وجهه استمرّ بالتقدم واطلاق النار. رآهم يختبئون خلف جدار مرآب سيارات. التمعت أسلحتهم وانعكست فوق الاطارات المهملة. تسلّل رفاقه من الخلف وأحاطوا بهم. لم يخرج منهم حي. فكّر أنه كسر يومها شيئاً يربطه بزينب. لأنه نكث بوعده لها ولأنه أحسّ أنه يقوّص على أخيها حسن. لا يعرف لماذا تملّكه هذا الاحساس. صار قاسياً. بسببها تحوّل إلى ما هو عليه الآن.

عندما انفجرت سيارة مفخخة في الطريق الجديدة كان عند بهاء يتغدى مع ثلاثة شبان آخرين وفتاة تدعى ندى وأخرى اسمها جومانا، كانوا يأكلون فراريج مشوية وحمصاً بالطحينة. تطاير الزجاج وجرحهم جروحاً طفيفة. لكنهم عجزوا عن سماع الأصوات لوقت طويل كأن آذانهم انفجرت أيضاً. ما كانوا قريبين جداً من انفجار الطريق الجديدة. عدة شوارع تفصل بينهم. هرعوا دون تفكير إلى المكان. حملوا مع الناس والمسعفين أشلاء الجثث المحترقة. رأى وجوهاً بلا عيون وبلا أنف. رأى جذوعاً بلا أطراف. حمل أجساماً متفحمّة بالكامل. رؤوس فصلت عن الأجسام. سمع صراخاً أقوى من الأنفجارات. لملم لحماً التصق على الواجهات وفوق الاسفلت. كان يتحرّك كالمحموم دون أن يفكّر.

لاحقاً استمرّ خالد يتقيّأ عاجزاً عن الأكل لعدّة أيام. أما بهاء فسكت عن الكلام. ليلاً لا ينام وحين يفعل توقظه الصور التي تأتي إلى حلمه وتفزعه. صديقهم أتاهم بمهدئات من المستوصف يخلطونها بالشراب فتغرقهم في نوم يشبه الموت الموقّت. وحده متري تصرّف كأنه لم يكن في ذلك النهار. أقلقه فقط أن يتعرّف إليه أحد في الصورة التي نشرتها السفير للمسعفين في

مكان الانفجار. فكّر أنه سينكر الأمر. على أية حال الصورة ليست واضحة وتظهره وهو يضع أحد المصابين داخل صندوق سيارة مدنية.

بعد جلستين جمعته بجومانا صارت تدعوه إلى شاليه تملكه قريبتها في خلدة، يسبحان طوال النهار يستلقيان فوق الرمل يشربان البيرة. أحياناً ينامان في الشاليه إن كانت قريبتها في الجبل. لم يسألها عن أهلها ولم تقل أنهم ينشغلون عليها لغيابها. أحياناً تنضمّ اليهما رفيقة لها مع صاحبها. ينظر إلى المستلقين حوله شبه عراة ويحسدهم على تلك الدعة المرتسمة على وجوههم. أصرّت جومانا أن تعيره ثوب سباحة وجدته في درج داخل الشاليه. أخذه منها ثم خرج إلى الشط لابساً بنطلونه وقد طواه إلى ما تحت الركبة. تقول ضاحكة حين تراه: «أوريجينال». لا ينزل إلى الماء رغم إلحاحها، حتى عندما سكبت فوقه ماء لم يرضخ. يحبّ سماع الموج لكنه لا يتصوّر نفسه وسط هذه الأمواج وهو يجهل أصول السباحة. يراها تبتعد حتى تصير نقطة. أصوات القذائف والرصاص وسيارات الاسعاف تبقى مسموعة. يجلس تحت خيمة القصب مغطياً أكتافه بمنشفة. الشمس حرقت جلده قبل ذلك وعجز عن النوم لليلتين. عندما يضمّ جومانا يتخيّل زينب. يشمّ رائحتها ويحسّ بجسمها الحارّ.

سئم من هذا الانقطاع عن رفاقه. البقاء دون حركة أمر لم يعهده، يخشى أن يجرحها إن أخبرها برغبته في ترك المكان. بيروت تشعره أنه محبوس. اشتاق للسعة البرد صباحاً، لرائحة الحقول، للهدوء. كل هذا الضجيج والزحمة والسيارات! لا يفهم كيف يطيقون العيش هكذا. لكن الوقت لم يحن بعد ليعود إلى قريته.

الرسالة التي كتبها لزوجة خاله لم يرسلها كما وعد جدته. ينتظر أن يسافر واحد من رفاقه ليبعث بها. يعلم بأنها ستبقى دون ردّ. لم يستطع أن يجرح جدته ويقول إن ذلك دون جدوى.

عندما عاد إلى الشقة لم تحاول جومانا أن تزوره أو تتصل به. اختفت تماماً. الأمر لم يعن لمتري شيئاً حتى بعد أن قال له أحدهم إنه رآها في الحمرا تتأبّط ذراع شاب. من يكلّمها ويحلم بها هي زينب. حتى حين نام مع جومانا لم يشعر أنه خان زينب. لم يفعل سوى استرجاعها وتذكرها.

الخبر الذي صعقه فنسي ما في نفسه هو اختفاء علي. لم ينتبهوا إلا بعد مرور أكثر من ثلاثين ساعة. أراد أن يوصل أغراضاً أرسلها واحد من رفاقه إلى أهله في عين الرمانة. قال سيستغلّ هدوء الوضع لينتهي من هذه المهمة. في مركز الحزب قالوا إن لا داعي للهلع. أرسلوا أحداً ليعلم إن كان عاد إلى ضيعته. لم يسألوا أهله بداية ثم اضطروا لذلك. أرادوا الاستقصاء عنه عند الأقارب في بيروت. بعدها بدأت الاتصالات برفاق يسكنون في القسم الشرقي من بيروت. أهل الشاب الذي قال علي إنه سيزورهم لم يروه. لا أحد التقاه أو رآه. لجان الارتباط سجّلت اسمه.

ليالٍ طويلة من السهر والبحث. زاروا كل الطلاب الذين يدرسون في الاتحادَ السوفياتي أو في أي دولة شيوعية. حتى أنهم فكّروا بأنه عاد إلى الاتحاد السوفياتي دون توديع أحد. فرضيات كانت تطمئنهم للحظات قبل أن يقبلوا بحقيقة أنه خطف عند واحد من المعابر.

كان متري ينظر إلى صور علي المنشورة في الصحف وسط عشرات غيرها، فيتذكّر ضحكته ولهجته الجنوبية. صحيح أنه لم يتعرّف إليه إلا الصيف الماضي لكن اختفاءه أثقل عليهم جميعاً. اختلفت سهراتهم وبهتت أحاديثهم.

- 40 -

الألم في بطن كاميليا منعها من النوم. حرق أوراق الغار لم ينفع في ابعاد البعوض. جلدها تورّم من لسعاته. الليل طويل والعتمة لا تزال حالكة. لا تريد أن تنهض كي لا توقظ جدتها. شربت نعناعاً مغلياً قبل النوم لكن الألم لم يهدأ إلا لوقت قصير. أعليها بدءاً من الآن أن تحتمل هذا الوجع كلّ شهر؟ قالت لها جدتها إنها صارت شابة، حاولت أن تشرح لها أموراً أخرى لكنها توقفت في وسط الحديث كأنها تعبت فجأة. أخفت صدرها طويلاً بالثياب الواسعة لكنها رغم ذلك كبر صدرها كرفيقاتها في المدرسة.

روبير لا ينام في الداخل مثلها بل على المصطبة حيث يضع فراشاً ويغفو حتى الصباح غير مكترث بلسع الحشرات. حتى النمل الذي غزا فراشه ذات ليلة لم يوقظه. تعب النهار ينيمه بعمق. مع أن كاميليا تعمل معه لكن النوم يجافيها.

منذ مات جدها وهي تحاول أن تظهر لجدتها بأن بامكانهما الاعتماد على نفسيهما لتسيير الأمور. تكره عماتها بسبب ما قلنه. لو عاد الأمر اليها لمنعت جاين من النوم لأيام عند برناديت عمتها. تفتقد إليها كثيراً.

من الماشية لم يتبق إلا نعجة. لم تبعها جدتها لأن جاين متعلّقة بها. في الشهر الذي سيمكث فيه روبير في المروج يحاول أن يقوم بأعمال الحقل بمساعدة كاميليا. منذ وقعت جدتهما وهما يمنعانها من العمل معهما. قالا إنها ستفعل ذلك ما إن تبرأ من الرضوض في جسمها. أحياناً ينضمّ اليهما فدائيون صغار، يضجرون من البقاء في القاعدة طوال النهار. ما إن تراهما الجدة حتى تنادي على كاميليا لتعود إلى البيت بحجة اعداد الطعام. عندما تقول الجدة أن عليها أن تشتري ملابس وأغراضاً لكاميليا استعداداً للسنة

المقبلة تنقبض كاميليا خوفاً من أن ترضخ جدتها وترسلها إلى مكان غريب بعيداً عن أخوتها. الفكرة ترعبها، تحلم ليلاً أنها ضائعة وسط أمكنة لم يسبق لها أن زارتها. الطرق متعرّجة خاوية تماماً. عند جانبيها أودية لا يرى قعرها الدروب تفضي إلى أخرى أكثر قحلاً وفراغاً. ترى وجوهاً تكون لأحد والديها أو لجدتها لكنها تبدّل سحناتها لتصبح قاسية ولئيمة. لا تزال ترى بيتهم في بيروت لكن تغييرات طرأت عليه كلون الجدران والمطبخ الذي صار كمطبخ المروج والباب الخارجي من خشب متآكل. في الحلم فقط تستعيد وجوهاً لوالديها مختلفة عن تلك التي في الصور. تنهض من هذه الأحلام كئيبة ترغب في البكاء. لكنها لا تفعل. جدتها تعرف حتى لو لم تكن حاضرة. كثيراً ما فكّرت أنها لو أيقظت جدها في تلك الليلة لكان نجا من الموت الذي باغته نائماً. ربما لذلك توقظ جدتها عدة مرّات ليلاً بحجج واهية. أو تدّعي كابوساً لتنام قربها وتطمئن لغطيط أنفاسها. جدتها لا تحبّ نوم كاميليا قربها، تقول إنها قد توقظها بسبب روحاتها الكثيرة إلى الحمّام.

منذ يومين جلست وحيدة مع روبير عند افريز الحجر. حدّثها عن البيت الذي سيسكنون فيه ثلاثتهم ما إن ينتهي من المدرسة. قال إن الرهبان سيوظفونه معلماً لديهم بسهولة وسيكمل تعليمه الجامعي ويصرف عليهم. لم ترد أن تتذكّر أن الأمر لن يحصل في القريب العاجل. أحبّت صوته غفت مستندة برأسها إلى الجدار. هزّها عندما نادتهما جدتهما ليأكلا.

جدتهما باعت أرض «العقبة» رغم اعتراض عمتها أديل التي قالت أن السعر قليل وأن الشاري استغلّها. سألتها إن كانت تريد شراءها، لمّا قالت إن لا مال معهم، ردّت الجدة: «ليس بامكاني أن أقول لأولاد أخيك حسناً ليس عليكم أن تأكلوا وتعيشوا لأن ثمن الأرض قليل».

منذ وفاة جبرايل قلّت زيارة العمّات للمروج. وحدها برناديت تزور

أمها. تبقى النهار بطوله متفرغة للعب مع جاين والباسها وتسريح شعرها. لم تكن تجرؤ بداية على أن تستأذن لأخذ جاين معها لأيام. لكن هند كانت تشفق على برناديت فتسأل جاين في آخر النهار «أتحبين النوم عند عمتك؟»

تشقّقت يداها ويبس الجلد حول الأظافر. ما عادت تؤلمها الأشواك حين تخترق جلدها. تنزعها ماسحة نقط الدم بثوب العمل. طوال أيام العطل لا تغادر المروج. المرّة الوحيدة التي لبّت فيها دعوة رفيقة لها في الصف كانت قبل وفاة جدّها. عمّتها أديل سألت معاتبة أمها لماذا لا تدع كاميليا تعاشر من هم في عمرها وكيف يسجنونها هكذا؟ استغربت هند وقالت إن لا أحد يمنعها. بعدها أرغمتها جدتها على حضور حفلة ميلاد جوانا التي تسكن مع أهلها قرب بيت أديل. جدتها اختارت لها ما تلبس، ثوب مستقيم بجيبين كبيرين لونه أصفر فاتح وله ياقة صغيرة بيضاء مطرّزة بزهور بنفسجية. اشترته لها عمتها روز من بائع جوّال يبيع بضائع صينية. لبست سكربينتها التي لا تملك غيرها لكن جدتها بعد أن صبغتها لمّعتها بالقليل من زيت الزيتون لتصبح أجدّ. حمّلتها حلوى أعدتها بحشوة من السكر والجوز. كانت الوحيدة التي تحمل هدية مختلفة. الكل اختار لجوانا أطراً وأقلاماً جميلة وحقيبة زهرية وأشياء أخرى. لكن جوانا شكرت كاميليا وقدمت الحلوى إلى جانب الأطباق التي أعدت للمناسبة. لم تشارك كاميليا في الرقص. بقيت في مكانها على الكرسي. رسمت ابتسامة على وجهها منتظرة ابن عمتها ميخايل ليعيدها إلى المروج كما وعد. كانوا حوالي عشرة من بينهم أبناء عمومة وأقارب من عمر جوانا. من رفاق المدرسة دعت فقط واحدة أخرى من ضيعة قريبة، بقيت ككاميليا جالسة، أكلتا الكاتو بالكريما البيضاء منتظرتين انتهاء الحفلة. كانتا غريبتين وسط أقارب متآلفين فيما بينهم.

خلال الفرص في المدرسة تتفقّد كاميليا دائماً أختها. عندما تنشغل

جاين باللعب مع رفاقها، تقف في طرف الملعب العالي تراقب في الأسفل الطريق العام والسيارات التي تمرّ. تبين لها بيوت المروج في البعيد كأنها علب صغيرة تتوزّع بين المروج والوديان. يتجنّب الأولاد ذلك الجزء من الملعب حيث تقف لا بسبب انكشافه على الرياح بل لأن الطابة تتدحرج إلى الطريق وتضيع عليهم. اعتادت على حشرية جوانا اتجاهها. كثيراً ما تمكث قربها غير مبالية بتجاهل كاميليا لمعظم أسئلتها. تحبّ أن تلاعب جاين وتقول إنها تحسد كاميليا لأن لديها أختاً. أخوتها الصبيان الأربعة كلهم أكبر منها بكثير ولا تتفّق معهم. لا تدري كاميليا سرّ انجذاب جوانا لمصادقتها. على عكس كاميليا لا تفهم جوانا شيئاً من الدروس. تقول إنها بعد البريفيه ستترك المدرسة وتتعلّم السكرتيريا العامة. تريد أن تصبح سكرتيرة كابنة خالتها. تصف لباسها وتبرجها وأحذيتها الملونة ذات الكعوب العالية. كاميليا ألفت أخبار تلك القريبة. تعلم عنها الكثير دون أن تراها.

منذ حضورها لحفلة جوانا علمت كاميليا أنها لن ترضخ ثانية ولن تقوم بأمر ضدّ إرادتها. فوجئت عماتها برفضها القاطع فيما بعد لزيارتهن أوالاحتفال معهم بأعياد كعيد مار جرجس وعيد السيدة والغطاس. لم ينفع أيضاً أن تدعوها جدتها للاختلاط بفتيات من عمرها في الضيعة. في المروج ليس هناك إلا أربعة منازل، ساكنوها عجائز مثل جديها. لا يزورهم أحفادهم إلا في مناسبات متباعدة.

عندما تكون وحدها تفتح درج الدرسوار وتسحب منه الرسائل القليلة التي وصلت من أمها كارلا. صحيح أنها حفظتها لكنها ترتاح لرؤية ذلك الخطّ المائل وتلك الأوراق المسطرة المرسوم عند طرفها ورود صغيرة حمراء. الثوب المخمل النبيذي الذي أهدتها إياه لا يزال مطوياً لم تجرّبه رغم اصرار جدتها. في كلّ مناسبة كانت تطلب منها ارتداءه. لم تقل إنها

تخاف أن يبلى فلا يبقى لها شيء منها. فهمت جدتها وحدها وما عادت تقول إنها ستضيّق الثوب ليناسب مقاس جاين. عندما يخطر لها أنها قد لا ترى أمها، تبعد عنها هذه الأفكار بالعمل في الحقل أو في الدرس. تسمع جاين تحكي عن كندا كأنها سافرت إليها، تصف البيت أمام صديقاتها تملؤه بكنبات حمراء، تعدّد الألعاب التي تملكها، والأراجيح التي تملأ حديقته. في غمرة حماستها تحكي أيضاً عن والدها الذي يعمل دكتوراً في المستشفى هناك. عندما سألت إحداهن مرة عن سبب بقائهم هم الأولاد هنا بعيداً عن والديهم، خافت كاميليا على جاين. لكن جاين ردّت بتلقائية إنهم هنا لأن المطار مغلق. عندما يكون هناك طائرة سيسافرون كلهم. عمتها برناديت ذكرتها أن والدها في السماء وليس في كندا، لكن لسبب ما تنسى الأمر في اليوم التالي. كل ما تملكه من أقلام أو أية أشياء جديدة تدعي أنه من أهلها. تقلق كاميليا من الأوهام التي تعشعش في رأس أختها. كأنها لا تكبر. تصدّق العالم الذي تؤلّفه. تلعب مع الأحجار والأغصان المكسورة والصناديق المرمية خلف البيت. تطلق عليها أسماء وتلهو باللعب معها طوال اليوم. تحبّ كاميليا وقت تدريس جاين عند المساء. تضحكها أسئلة أختها التي تريد مثلاً أن ترى خطوطاً للطول أو للعرض في المروج، لا تفهم أنها وهمية. لا تصدّق أن الأرض تدور حول الشمس. لزمها وقت لتشرح لها أنها لن تحسّ بهذا الدوران. كانت تواجه صعوبة معها في تعليمها دروس القراءة الفرنسية والاملاء، إلى أن قالت لها إنها اللغة التي يحكونها في كندا. باتت تفتح كتاب القراءة وتحاول أن تتعلّم مسبقاً الدروس التي لم تشرح بعد. تخاطب جدتها بالفرنسية وكذلك الفدائي حاتم الذي يرفعها فوق كتفيه لتطال شجر اللوز والمشمش. يقول إنها تشبه أخته الصغيرة نضال وتحبّ مثلها كثرة الحكي.

مسؤول القاعدة قربهم استعان بكاميليا مرّة لتترجم مقابلة يجريها

معه صحافي فرنسي. كانت تحمرّ عندما تعجز عن فهم كلمات صعبة لم تتعلمها لا في المدرسة ولا في الكتب التي أعطاها إياها روبير. كيف تترجم الشتائم التي يطلقها أبو الفهود بحقّ اسرائيل وحلفائها الانعزاليين؟ لكن الصحافي خفّف عنها وحاول تبسيط عباراته، ثم راح يسألها عن رأيها بالفدائيين وإن كانوا يزعجونهم أو يرهبونهم. ارتبكت قبل أن تشرح له إنهم بالنسبة إليهم جيران. لم يفهم قصدها. أرادت أن تشرح لكنها لم تجد الكلمات. سألها عن الكتب التي قرأتها بالفرنسية. قالت فيكتور هوغو وألكسندر دوماس. التقط لها الكثير من الصور. خجلت وامتنعت عن النظر إلى العدسة رغم طلبه منها. عندما جاء في اليوم التالي ليكمل المقابلة أهداها خمس روايات فرنسية. شكرته دون أن تمدّ يدها لأخذها لكن أبو الفهود قال إنها هدية يجب أن تقبلها. في ختام المقابلة أرسل لهم «أبو الفهود» مع حاتم كرتونة مليئة بالتمور العراقية وبعلب عصير قالت جدتها إنها غوافة. فاكهة لم تكن قد سمعت بها.

منذ تعلّمت من جدتها حياكة الصوف والخياطة، تنبش ثياباً قديمة من قعر الخزانة وتخيط منها تنانير لجاين أو قمصاناً لجدتها أو حقيبة مدرسية. بداية كانت الثياب لا تتناسب ومقاسهم أو أن الأكمام تكون غير متساوية في طولها. لكن جدتها شجعتها قائلة إن لا مشكلة في ذلك فمن سيراهم في المروج؟ تحلم بينما تنهمك يداها في الحياكة بأن تعمل مثل معلماتها ما إن تحصل على البكالوريا. تتخيّل أخوتها وأمها في بيت بعيد في مكان خيالي، لا خوف فيه.

- 41 -

لأول مرة منذ شهر تلمح صونيا ميشال في الجامعة. حاولت أن تتجنّبه لكنهما التقيا فوق الدرج. هي نازلة وهو صاعد مع أن المحاضرة انتهت والثانية لن تبدأ قبل ساعة. رفعت يدها وابتسمت. ارتبك كعادته وسألها عن حالها. هزّت برأسها وتركت الحشود النازلة تدفعها. يداها ارتعشتا وكادت الدفاتر تفلت من يدها. سارت كالغائبة عن الوجود. صوت الفرامل وشتائم السائق أوقظاها من تشتتها. قطعت الشارع دون أن تنتبه.

قبل أن تذهب إلى موقف السيارات اشترت من مطعم البساط سندويش دجاج مشوي. أكلته واقفة أمام الرصيف. تأملت الشبان الجالسين في محلّ العصير بطرف عينها. بدوا كطلاب الجامعة بلحاهم وبشعورهم الطويلة. رأت الصنوبر يطفو فوق شراب أحمر لا تعرفه.

عادت صورة ميشال إلى رأسها. مشت بثقل كأن في جسمها حديداً.

تباعدا دون كلام. لم يلزمها وقت لتكتشف تهرّبه منها. في سرّها تتخيّل أنها تعاتبه، وهو يعتذر راجياً أن تسامحه وهي لا تفعل. تصف ما فعله بها هذا الجفاء.

أحلامها تعذّبها. تحلم أنها معه يلامس وجهها ويقبّل عينيها ويضمها برقّة، تستيقظ لتتذكّر أنها وحدها، ولا أحد يحبّها.

في البيت تتشاجر مع أخواتها ومع أمها على الصغيرة والكبيرة. لا تطيق ملاحظة ماري بشأن وزنها الذي زاد ولا ضحكات أختيها لوريس وبريجيت. كأنهما تبقيانها عن قصد بعيداً عن همساتهما وأحاديثهما السرية. لا تشركانها في ما تفعلان. تتمشيان عصراً. تخرجان للسهر عند

الجيران أو تقصدان معاً النبطية لشراء ثياب. تنسيان أن هذا الترف الذي تنعمان به سببه عملها مع أختها ماري. نسيتا أنهما منذ زمن قريب كانتا تكتفيان بلبس ثياب قديمة تحصل عليها أمهما من اعاشة أو من محل للثياب البالية في النبطية.

رائحة الثياب البالية رافقتها طوال أكثر من ثمانية عشر عاماً. رائحة لا تزول رغم الغسل والكوي. تلتصق بجسمها وتفوح منها كلما تحرّكت.

في عملها صارت ترفض الخدمات والمهام التي كانت تؤدّيها مجانًا في السابق. لا تنوب عن الأساتذة المتغيّبين ولا تراقب بدلاً من الناظر. في المقابل ما عاد المدير يسمح لها بالخروج قبل انتهاء الدوام، بل صار يبقيها بحجة طباعة الامتحانات أو القيام بجردة لحسابات المدرسة وللتكاليف. عندما قالت إن الساعات الاضافية تؤخّرها عن الجامعة ردّ المدير إنه وظّفها خدمة لأختها ومراعاة لوضعها كيتيمة. هناك ألف شخص يتمنى وظيفتها وبمعاش أقلّ. من ذلك الحين وهي تخطّط لترك عملها. تفكّر بالعرض الذي تلقته من مدير مدرسة في المروانية. جاء مرة عند المدير يسأله إن كان يعرف أحداً لتعليم الفرنسية لصفي الأول والثاني المتوسّط. كل الأساتذة رفضوا، فهم إما يعلّمون في عدة مدارس وإما يستصعبون إضاعة هذا الوقت الطويل في التنقل. في زيارته الثالثة للمدرسة. سألها عن تعليمها وشهاداتها وإن كانت جيدة بالفرنسية. رغم أنها لم تزعم براعتها بها عرض عليها أن يتعاقد معها فيدفع لها عن كل ساعة أربعاً وعشرين ليرة. وأخبرها أنه يلزمه معلمة رياضيات، إن كانت قادرة على تعليم المادتين سيكون دخلها جيّداً. رفضت بداية. يلزمها أكثر من ساعة للوصول إلى المروانية. لا سيارات أجرة إلى هناك. عليها التنقل من سيارة إلى أخرى حتى تصل. حينها قال لها إن صهره ينقل كل يوم صباحاً ركاباً من الضيعة المجاورة. في العودة ستجد سيارة متوجهة إلى صيدا حيث جامعتها. المدرسة قريبة

من الطريق العام. عندما فاتحت ماري بالموضوع، قالت لها إنها مجنونة فمن يترك وظيفة ثابتة ليتعاقد على الساعة. حتى لو أمنت لها الساعات مبالغ أكبر من معاشها، سينقطع مدخولها صيفاً.

كأنها أرادت أن تسمع ذلك لتفعل عكس نصيحة أختها. مكان بعيد يعني أن تبتعد عن الضيعة وعن ميشال وعن كل ما يتعلّق بذكرياتها معه. لم تدر ماذا تفعل بهذا الغضب داخلها. وافقت وتركت وظيفتها دون انذار. بداية فرحت بالوقت الصباحي في السيارة تنظر عبر الزجاج إلى قرى وحقول لم يسبق أن مرّت بها. قلما يتغيّر الركاب. هم أنفسهم. أحياناً قد يطرأ راكب أو اثنان فينحشرون طوال الطريق وتتمسك هي بالباب كي تتجنب ملامسة الراكب قربها. هي الفتاة الوحيدة وسطهم.

في الأسبوع الأول كانوا يحدقون بها بلا مواربة. رغم ثيابها المحتشمة شعرت أنها عارية وسطهم.

في يومها الأول أرشدها المدير إلى الصفوف. بدأت درسها وكتبت على اللوح تصريف فعلين. عندما طلبت من أحدهم أن يقرأ ما على اللوح. اصفرّ وجهه وبقي صامتاً كذلك حصل عندما طلبت من تلميذة أخرى. كانت تشرح وحدها لأيام ثلاثة قبل أن يبلغها المدير أن التلاميذ يشكون من عدم الفهم لأنها تحدثهم بالفرنسية. استغربت وذكرّته أنها المادة التي طلب منها أن تعلّمها. فقال: «علميهم الفرنسية لكن بالعربية، وإلا كيف سيتعلمون؟ أهلهم جاؤوا ليقولوا بأنني ربّما أتيت لأولادهم بمعلمة أعلى من مستواهم بكثير. تعرفين هذه مدرسة خاصة والأهل يدفعون أقساطاً. لا نريد أن يزعلوا.»

هكذا كرّت الأيام وانقضى الشهر الأول دون أن يبادر إلى الدفع لها. لم تدر كيف تطالبه. إلى أن دخلت يوماً إلى مكتبه غير مبالية بتحدّثه مع معلّم وقالت بلهجة مترددة: مرّ أكثر من شهر. قال إنه لم ينس لكنه ينتظر تحصيل

القسط. «تعلمين الدنيا حرب وأجور بعض الأهل تتأخر أو تتوقّف».

في السيارة التي أقلتها إلى صيدا مع ستة ركاب آخرين ردّدت في رأسها كلاماً أرادت أن تقوله للمدير. كانت غاضبة من وقوفها أمامه كأنها ترتكب خطأ بالمطالبة بحقوقها. أنَسي كم ترجّاها لتقبل عرضه. فكّرت بما ستقوله ماري إن علمت. لا تدري كيف ستطلب منها مالاً دون أن تسألها أختها عمّا فعلته براتبها. كم تكره تدخّلها في كلّ شيء. الدروس الخصوصية التي كانت تؤمن لها بعض المال انقطعت بعد تركها المدرسة. الأهل فضّلوا عليها أساتذة يعلّمون في نفس مدرسة أولادهم. البعض ظنّ أنها طردت من عملها السابق لعدم كفاءتها. فمن يترك وظيفة مضمونة ليتعاقد مع مدرسة بعيدة في بلدة شيعيّة؟

ما عادت ترى الحقول أو تنتبه لها. كل يوم تحسّ أن الطريق أطول من العادة. تغمض عينيها متكئة برأسها إلى زجاج الشباك. تسمع الركاب يتحدّثون عن الخطف والقتل، عن أقارب لهم فجعوا بموت بقرتهم الحلوب. عن المواسم المضروبة والأسعار الجنونية للغاز والقمح والسكر...

منذ زاد وزنها باتت كأنها غير مرئية. لا أحد يتحرّش بها وهي في الشارع. لا تجد نفسها إلا مدفوعة لأكل كل ما يقع تحت يدها. لا شيء يملأ هذا الفراغ داخلها.

أرادت أن تجول على مكاتب المحامين علّها تحظى بوظيفة كسكرتيرة. لا تعلم كيف تبدأ البحث. أتنظر إلى اللافتات فوق المباني؟ هل يشغلونها إن لم يوصِ بها أحد؟ أفكار وحلول تبقى في رأسها دون تنفيذ.

قبل أسبوعين خرجت من المدرسة قرابة الثانية. وقفت تنتظر سيارة أجرة. علمت أن انتظارها قد يدوم ساعة أحياناً. الفانات التي تنقل التلاميذ خرجت من باحة المدرسة واحداً تلو الآخر. التلاميذ متراصفون فوق

بعضهم. صراخهم قوي.نظرت إلى أذرعتهم ورؤوسهم المتلاصقة. الصدأ بقّع الفانات التي أهترأ حديدها. تسير محدثة قرقعة كأن أجزاء منها تتساقط.

باغتها الانفجار ورماها في الجل جنب الطريق. غبار ودخان كثيف تصاعد من حفرة وسط الطريق العام. أعيرة نارية كثيفة تبعت ذلك. لم تجرؤ على النهوض. صراخ تعالى من البيوت. نداءات لأولاد غائبين عن البيت. ماذا تفعل وهي لا تعرف أحداً. الخوف شلّ عقلها. تماسكت ونهضت نافضة التراب عن ثيابها. ظنّت أنه تشييع ما ربّما لأحد المقاتلين. لكنّ زخات الرصاص كانت تفرقع قربها. لم تنتبه أنها تبكي. ستموت هنا ولا من يكترث أو يدعوها للاختباء. عرض عليها سائق آخر باص خرج من المدرسة أن يقلّها إلى حدود البلدة الثانية كي تتدبّر أمرها من هناك. قال إن اشتباكاً عنيفاً اندلع بين فتح وحركة أمل. انحشرت قرب الأولاد. كان يقود بسرعة فيميل الفان من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. في مرات كثيرة بدا لها أنه سينقلب ويقتل من فيه. عند طرف الضيعة التالية كانت الانفجارات أعنف. بقيت مسمرّة في أرضها. خشيت إن تحرّكت أن تقترب أكثر من الاشتباكات. لم تدر كم مضى من وقت. لا أحد التفت إليها أو دعاها للاحتماء. كلما لعلع الرصاص اتكأت إلى عمود الكهرباء. تشير بيدها لايقاف السيارات سواء كانت عمومية أم خصوصية. ثمّ يئست. التصقت بالعمود متخيّلة الرصاصة التي سينتهي بها الأمر في جمجمتها. صوت الفرامل لسيارة مرسيدس بيضاء فخمة نبّهها. شاب في أوائل العشرين أسمر ومجعّد الشعر جالس قرب السائق مدّ يده ليفتح باب السيارة الخلفي. ركبت لكن أياً من الشابين لم يسألها أي شيء. كأنهما يعرفان وجهتها. سمعت أحدهما يتكلّم باللاسلكي. يكرّر أمامها ما فهمت أنه لغة مشفّرة. السيارة مسرعة في طرقات شبه خالية. لم تر الرشاشات

فوق ركبتيهما إلا بعد حين. عندما انتبه إلى نظرتها قال إنهما مرافقان لأبي اسماعيل.

ماذا لو اعترض مقاتلو أمل طريقهما؟ الوقوف في الطريق أكثر أماناً من هذه السيارة التي عليها أن تقطع العديد من القرى الشيعية. كأنه حزر ما يجول في بالها فانعطفت السيارة لتدخل في دروب وطرقات لم يسبق أن مرّت بها. كيف ركبت بملء ارادتها معهما؟ لم يتوقفّ الجالس قرب السائق عن التكلّم في اللاسلكي. سمعت أسماء قرى تعرفها. كثافة الانفجارات دفعتها إلى الاعتقاد أن هذه الاشتباكات اندلعت في كل مكان. حاولت أن تكلّمهما لكن لسانها بقي معقوداً. إلى أين يأخذانها؟ عند مدخل صيدا لم تصدّق أنها لا تزال على قيد الحياة. أوقف السائق السيارة. لم يقل شيئاً. فتحت الباب وخرجت هي الأخرى دون أن تقول شيئاً. باستثناء قول أحدهما إنهما مرافقا «أبو اسماعيل». لم يجر بينهم إي حديث. كيف علما أنها متوجهة إلى صيدا؟

في السيارة التي ركبتها من الموقف علمت أن قذائف جيش سعد حداد سقطت قرب البوابة الفوقا. خمسة من المارة ماتوا عدا الجرحى الذين أصيبوا داخل محلاتهم.

ربّما لو لم يؤخرها الاشتباك لكانت ربما من بين المارة. قتلوا في الطريق التي تسلكها للتوجه إلى موقف السيارات.

لم تنس ما مرّت به بسهولة. امتنعت عن الذهاب إلى المدرسة حتى بعد توقف الاشتباكات. كذلك نسيت أمر المحاضرات. كأنها كانت محرومة من النوم لشهور. لم تكن تنهض إلا لتأكل ثمّ تعود للنوم ثانية.

عندما جاء مدير المدرسة لزيارتها والاستفسار عن سبب تغيّبها، كانت ماري من استقبله. قال إنه سيدفع الأجر المتأخر إن كان هذا سبب الغياب. ردّت ماري: «أكيد فمن يعمل مجاناً؟» قال إنه مستعد ليرفع أجر الساعة

أربع ليرات إضافية. وافقت ماري شرط أن يدفع مباشرة الأجر المتأخر. غضبت صونيا: «من قال لك إنني أريد الاستمرار في العمل عند هذا المدير الزفت؟ حتى لو دفع أربعين ليرة للساعة لن أقبل.»

-« من طلب منك أن توافقي؟ إنها حيلة كي لا يأكل حقوقك. إن قلت له إنك لن تعلّمي عنده بعد الآن لكان أجّل الدفع لك ولضاع تعبك».

انتظرت صونيا أن تذكرّها ماري بالنصائح التي تجاهلتها. لكنها اقتربت من فراشها. جلست قربها داعية إياها للنهوض والجلوس معهن، قائلة إنها حتماً ستجد عملاً يناسبها أكثر.

- 42 -

لم تعترض كاميليا عندما شرعت جدتها بتحضير ما يلزمها من ثياب وأغراض. حين سألتها عن رأيها بعد المقابلة مع مديرة الدير الأخت أنجيل أومأت برأسها ايماءة مبهمة. لم تقل إنها شعرت مثل الصوص الذي نجا وحده من مرض فتك بكل الدجاجات. أشفقت على جدتها التي بذلت مجهوداً لترافقها ولاقناع الراهبة بقبولها. منذ حين تفقد جدتها توازنها في المشي. تضيع بين غرف البيت. تنسى أدويتها. حتى الأطعمة نسيت طريقة تحضيرها تسألها هي عن محتوياتها ومقاديرها. تناديها بأسماء بناتها جميعهن إلى أن تهتدي إلى اسمها. تستيقظ كل يوم بحالة أسوأ من اليوم الفائت. تصلّي كاميليا كلّ ليلة راجية الربّ أن تنهض جدتها من نومها.

عندما ضمّت جاين الذاهبة مع عمتها، فكّرت بما وعدها به روبير كي لا تبكي. تتخيّل البيت الذي سيضمهم جميعاً. أعطاها الفدائي حاتم مصحفاً

صغيراً. قال إنه سيحفظها من الأذى. حمل جاين ورفعها عالياً كعادته. ثم أراها الدمية الشقراء التي اشتراها لها. بعد ذلك نبهتها عمتها روز ألا تأخذ معها المصحف. ماذا ستقول الراهبات؟ لكنها خبّأته بين ملابس جدتها ليحميها في غيابها.

لم تعرّفها الأخت أنجيل على الدير في تلك المقابلة. حكت عن شروط قبولها بما يسمينه «بنات البيت». فتيات من قرى مختلفة يتعلّمن مقابل الخدمة. لا يحقّ لهن العودة إلى منازلهن إلا في عطل محددة، تعطى لهن مداورة. في معظم المقابلة حكت عن دور الراهبات في مساعدة العائلات المسيحية الفقيرة. كانت كاميليا تنظر إلى يديها المشبوكتين في حضنها. لم ترفع رأسها إلا مرتين. مرّة عندما سئلت عن عمرها لأن جدتها لم تتذكّر، ومرّة أخرى عندما أرادت أن تعرف الراهبة ما تجيده من أعمال. جدتها اختصرت الجواب بالردّ سريعاً: «كلّ ما يخطر ببالك حتى الزرع». ردّت الراهبة بأن لديهن بستانياً يقوم بأعمال البستنة. سألت إن كانت مطيعة. بكت جدتها فارتبكت كاميليا. « أعقل من بناتي. لولا... » غصّت بدموعها ولم تكمل. الراهبة أيضاً توقفت عن الأسئلة.

وصلت قبل بدء العام الدراسي بثلاثة أسابيع. لم يكن عدد الفتيات كبيراً. ظنّت كاميليا أنهن سيكنّ كثيرات كما الحال في الدير عند روبير. إضافة اليها كان هناك خمس فتيات أخريات. جاكلين أكبرهن قالت إن عددهن كان أكثر من ثلاثين، لكن بسبب الحرب واقفال القسم الداخلي قلّ عدد «بنات البيت». أردفت هازئة « عبدات البيت». في أسبوعها الأول ما كانت تبادر إلى مكالمة أي من البنات. تجيب عن أسئلتهن باختصار شديد. لم يعرفن إلا اسمها وعمرها وصفّها. الأشغال التي توكل إليهن لا تنتهي. يبدأ النهار بالصلاة. وينتهي بها.

كن ينمن جميعاً في غرفة تشبه الممر الطويل فيها عدد كبير من الأسرة.

نوّاسة زرقاء تبقى مضاءة. روزيت التي في مثل سنها تقريباً تنام في سرير محاذ لها، تتقوقع فيه كالرضيع شادة بقبضتها على طرف الغطاء كأنه حبل خلاص. خزانة كبيرة تغطي مساحة حائط يضعن فيها أغراضهن التي تخضع باستمرار لتفتيش مباغت.

الدير محاط ببستان فيه موز وحمضيات وأشجار رمان. في جزء منه شتول من الخضار كالكوسى والباذنجان والبندورة والخيار والخس. في مدخله حدائق كبيرة من الورود والزهور والزنبق. عندما يكون عليها تنظيف صالون الاستقبال المشرف على الحدائق تشمّ كاميليا تلك العطور وتتخيّل أنها في المروج.

البستاني كبير في السن، ربما من عمر جدتها، تراه يحمل ما قطفه إلى المطبخ في سلة قش ويتبادل الكلام مع سعاد الطبّاخة. الأخت مونيك الانكليزية تساعده في تشحيل الورود. تشذّب سويقات الورود بأصابعها الطويلة قبل وضعها فوق مذبح الكنيسة. طوال اليوم تعزف موسيقى ناعمة تحبّها كاميليا. على عكسها تكره الفتيات تلك الأنغام. يقلن إنها موسيقى الجنائز. يفضلن عليها الأغاني التي تتسلل خافتة من المباني قبالة ملعب الرياضة. يعرفن القاطنين رغم البعد. حفظن عاداتهم. أطلقن عليهم أسماء. هناك جاك الشاب الوسيم الذي تحبّه إلهام. ندى التي تنتظر ذهاب زوجها إلى العمل لتستقبل عشيقها السري. أوديت المغرومة بجارهم المتزوج، وقصص أخرى يؤلفنها ويتابعن فصولها كأنها مسلسل يومي.

تنظيف غرف الراهبات هو أسوأ جزء في عملهن. خصوصاً غرفة الراهبة فرنسواز. كان على كاميليا أن تنظف أطر النوافذ ودرفاتها الخشبية وتلميع زجاجها. مسح كل زاوية، تحت الأسرّة وخلف الخزائن. افراغ الرفوف ثمّ إعادة كلّ غرض مكانه. أعجبتها دقة عمل كاميليا فأوكلت إليها وحدها تنظيف غرفتها. فرحت الفتيات بالتخلص من هذا العبء.

التقصير في الأعمال يعني العقاب. أقساها يكون بالحرمان من الأكل لوجبتين متتاليتين.

خسرت وزناً ملحوظاً منذ مجيئها إلى الدير. في الصباح يأكلن نصف رغيف مع لبنة أو زعتر وكوب شاي. ظهراً يتغذين صحناً من الطبخة التي تكون دون ملح أو طعم لأن الراهبات يعانين من الكوليسترول أوالضغط وأمراض أخرى.. أما العشاء فيكون حسب المواسم، شوربة سلق وعدس في موسم السلق أو شوربة خضار.

مع مرور الوقت اكتشفت أن الفتيات يتسللن ليلاً إلى المطبخ ويسرقن ما لا يمكن الانتباه له كالخبز أو الخضار أو الفاكهة. حذرن بداية منها خشية أن تشي بهن. لم يثقن بها إلا بعد أن استجوبتهن الأخت فرنسواز عن سرّ قشور الموز التي لمحتها في نفايات قرب مكان نومهن. كنّ يخفينها جيداً لرميها لاحقاً في نفايات المطبخ. لكن روزيت رمت قشرتها في السلة ففضحت أمرهن. لمّا سئلت روزيت قالت إنها وحدها من تسلّل إلى المطبخ لأن الجوع منعها من النوم. لم تصدّق روايتها. استجوبت كاميليا بما أنها الجديدة بينهن ولم تتعلّم بعد كل الألاعيب التي يلجأن إليها. ادعت أنها لم تر أحداً يأكل خلسة طوال وجودها في الدير.

انفتح فجأة باب الأسرار. صارت تعلم أن لدى جاكلين حبيباً في السوبرماركت. يخفي لها الرسائل في أكياس الأغراض التي تشتريها مع المديرة للدير. تذهبان مشياً كل سبت فتحمل جاكلين القسم الأكبر فيما صبي صغير يحمل ما تبقى. ليلاً تُخرِج الرسالة لتقرأها على ضوء النوّاسة مراراً قبل أن تخبرهن دامعة عما كتبه. هو في الثانية والعشرين تعلم حتى صف البريفيه ويعمل في السوبرماركت بائعاً للأجبان، اسمه حسن ولديه خمسة أخوة يساعد على إعالتهم لأن والده بلا عمل حالياً بسبب الفالج. يقول إنه يريد أن يتزوجها وسيعمّر غرفة إضافية لهما في بيت أهله ليستقلا

فيها. تسألها إلهام التي تصغرها بسنة « ألا تخافين يا مجنونة أن تتزوجي مسلماً؟ لو فعلت أنا لذبحني أخي.»

تردّ جاكلين أن لا أحد يسأل عنها أو يهتمّ بأمرها. زوجة أبيها تضيق بها حتى في العطل. أولادها كأنهم ليسوا أخوة لها، والدها لا يهتمّ بها. يناديها فقط لتوبيخها إن شكت له زوجته من وقاحتها أو امتناعها عن مساعدتها. «بالنسبة إليه متّ يوم توفيت أمي». تقول.

كل المخابئ التي يختارونها تكون بعيدة عن الراهبات. يتجنبن الخزانة والأسرّة والثياب. الحمامات أفضل مكان خصوصاً خزانات الماء. لا أحد ينظر خلفها. لم يكن لدى كاميليا ما تخفيه مثلهن، لذلك لم يتخلّين تماماً عن الخوف منها. ليلاً ينتظرن أن تأوي الراهبات إلى غرفهن. يجتمعن فوق سرير إلهام في دائرة ضيقة. كانت كاميليا تتظاهر بالنوم كي تحررهن من الخوف منها. لاحقاً بتن يلكزنها لتقوم وتنضمّ إليهن. هكذا قبل بدء العام الدراسي عرفت كلّ شيء عن رفيقاتها. إلهام في السادسة عشرة. ترسب مرة أو مرتين في كلّ صف، تقول إن التعلّم آخر همّها. ماذا تستفيد من البريفيه؟ تتمنى أن تعود لتعيش وسط أسرتها، والدها عامل « في النافعة» وهي مصلحة عامة تهتمّ بالطرقات. الفقر ورغبته في تعليمها مع أخوتها السبعة دفعه إلى وضعها في الدير. يسألها في كلّ عطلة أن تتكلّم بالفرنسية. ما إن تفعل حتى يبتسم بفخر، رغم أنه لا يفهم شيئاً من الجملة التي تكررها في كل مرة. حفظتها من قصيدة يوماً ما.

«أسمع خطوات قلبي
يغادرني مسرعاً
إن ناديته يتحاشاني
راغباً في التواري بعيداً»

هي تبقى في الدير لأنها لا تريد أن يزعل أهلها. ينظرون إليها كأنها

دكتورة لا فتاة في السادسة عشرة لم تنجح في أي من صفوفها من المرة الأولى.

ميراي في الرابعة عشرة. تعاني من حَوَل في عينيها. تتعلّم في الدير منذ صغرها لأن أخواتها الأربع سبقنها إلى ذلك. في كل مرة يأتي أحد من أهلها يحمل إلى الدير أجباناً هدية بما أن لديهم ثلاث بقرات حلوبة يعتاشون منها. تحكي عن ضيعتها الواقعة وسط واد أخضر فيه نبع غزير. بيتهم تحت الطريق العام. في كل مرة تصفه يزداد اتساعاً وجمالاً.

فاديا في الثانية عشرة لا تحتفظ بأي كلمة تسمعها. تعرف النزاعات بين الراهبات. تنقل لهن ما تسمعه متظاهرة بالسذاجة. تحظى وحدها بمكافآت كتفاحة أو سكاكر بطعم الكرز.

روزيت الأصغر بينهن هي الأقرب لكاميليا. لا لأنها قليلة الكلام بل لأنها تذكرها بأختها جاين. تأتأتها تثير الضحك حولها فتستغني المسكينة عن الكلام معتمدة على الايماءات والإشارات. إحدى الراهبات تظلّ تنهرها لتتكلّم بطريقة مفهومة. قامتها قصيرة كأنها في الثامنة من عمرها. والداها كبيران في السن كأنهما جداها. كلاهما يأتيان لأصطحابها في العطل. تزوّج أهلها في عمر متأخر. والدها كان متزوجاً ولم ينجب أولاداً من امرأته التي توفيت وتركته أرمل وهو في الستين من عمره. تزوج بعدها أم روزيت التي جاوزت الثانية والأربعين. لم يكن الانجاب في حسبانهما. ما يعرفنه عن روزيت الصغيرة تخبرهنّ إياه فاديا التي من نفس ضيعتها. أحياناً تسخر من أهل روزيت وتقلّد مشية والدها وقحّته المزمنة.

عندما سئلت كاميليا عن عمل والدها، أجابت: «دكتور جرّاح». ضججن بالضحك كأنها تقول أطرف نكتة. جديتها زادت من قهقهتهن. ردّت فاديا: «وأنا أبي وزير لكنني أعشق البهدلة والذلّ». لم تقل كاميليا إن والدها مات. وهو أمر لن يخفى طويلاً. فاديا لا يخفى عليها سرّ.

مع بدء العام الدراسي، اكتشفت كاميليا صعوبة أن تقوم بدروسها على أكمل وجه كما اعتادت. كان عليها أن تخرج من صفوف الرياضة والتعليم الديني والتاريخ والجغرافيا. في الساعات الأخرى عندما ينتهي شرح الدرس تتوجه إلى المطبخ أو غرفة الغسيل. مرة في الأسبوع يوكل إليها تنظيف حمامات التلاميذ بعد انتهاء الدوام. تبقي أنفاسها محبوسة بينما تفرك المراحيض والبلاط والأبواب. الماء البارد والمساحيق شققت يديها. أعطتها الأخت مونيك مرهماً تضعه ليلاً لمداوة الجروح. تحبّ هذه الراهبة التي اضافة إلى تعليمها الغناء والتراتيل لكل الصفوف، تعطي دروساً في العزف لتلاميذ الخارجي. تحبّ سماعها ترتل في الكنيسة. فرحت حين اختارتها في الكورس وأوكلت إليها أداء منفرداً لبعض التراتيل الفرنسية. قبل المجيء إلى الدير ما كانت تعلم أن صوتها جميل. لكنها لا تفكّر في الأمر إذ تتذكّر ما قالته الأخت كلود عن أن الكبرياء خطيئة مميتة. لا تريد أن تخطئ علّ الله يسمع دعاءها وصلاتها. الصلاة في سريرها حتى تغفو كانت تدفع عنها المخاوف.

تخفي عن رفيقاتها المال والقطع النقدية التي تجدها بينما تكنس الملاعب والحمامات. تسلّمها للراهبة خلسة. رفيقاتها يسألنها لماذا هي الوحيدة التي لا تجد أي مال؟

المال الذي يجدنه يجمعنه. يقتسمن المال بالتساوي. عندما تساعد إحداهن الراهبة للبيع في دكان المدرسة، تغافلها لتخبئة الشوكولا والسكاكر داخل ثيابها.

في الشهر الأول نجحت كاميليا بصعوبة. ما كانت تجد وقتاً لتدرس. ثم تعلمت أن تستفيد من وجودها في الصف إلى أقصى حد. تكتب كل ما يشرح محاولة حفظ وفهم كل كلمة. عندما تفهم الدرس تبدأ وحدها بحلّ مسائل الرياضيات أو العلوم. كانت تتمنى أن يسمح لها كتلاميذ الخارجي

باستعارة الكتب وقراءتها. رغم قضائها العطل في الدير ما كانت تعطى أوقات فراغ. كل راهبة منهن تناديها إما لتساعدها في التطريز أو تنظيم الدكان أو مرافقتها إلى الضيع التي تعلّم فيها الدروس الدينية. في آخر الفصل الأول حلّت كاميليا في المرتبة الثالثة. هكذا حصلت على وسام علّقته رئيسة الدير على صدرها وصفقت لها كل الصفوف المجتمعة في قاعة الاحتفال. ربتت الرئيسة على كتفها قائلة بالفرنسية: «برافو يا ابنتي أنا فخورة بك وبالجهد الذي بذلته». أحنت رأسها وتعثرت أثناء نزولها عن المسرح الكبير.

زارتها عمتها برناديت واصطحبت معها جاين. خجلت جاين من أختها في البدء. ثم لما سألتها عن ألعابها ومدرستها، انفكت عقدة لسانها وراحت تحكي دون توقف. بسبب خوفها أخّرت السؤال عن جدتها. عندما فتحت الهدية التي أرسلتها لها وجدت كنزة صوف كحلية حاكتها لها. قالت عمتها: «أحبت أن تختار لك لوناً فرحاً لكنها تعرف أنه لا يسمح لكنّ إلا بهذا اللون». انبعثت من خيطان الكنزة رائحة حطب الوجاق مختلطة بالخزامى الذي تضعه جدتها بين الأغطية والملابس لمنع العث. عمتها أعدّت لها قالب كاتوه. حملت معها مرطبانات من مربى السفرجل والمشمش هدية للراهبات.

علمت أن روبير قضى عطلة منذ شهر في المروج. أخبرهم أنه سيزور كاميليا قريباً. عندما سألتها كيف ومتى سيفعل، ردّت عمّتها بأنها لا تعرف. ثمّ فتحت حقيبتها، ناولتها الظرف دون أن تقول شيئاً. قرأت كاميليا رسالة أمها ونظرت إلى صورتها تحمل أخاً رضيعاً لم يتجاوز الشهر من عمره. طوتها بصمت وأعادتها إلى عمتها. ثمّ أخرجت علبة مخملية قالت إنها هدية أمها لها. وضعتها بعيداً عنها فوق مقعد الخشب.

- «ألا تريدين فتحها على الأقلّ.»

ردّت بسرعة: «لاحقاً أفعل. ليس الآن.»

استأذنت الراهبة لتصطحب أختها إلى حيث الأراجيح. كانت تدفعها برفق فترتفع جاين في الهواء الشتائي البارد ضاحكة. ركبتا معاً الزلاقة. جربّت جاين كل الأراجيح ثم سألت أختها: «كلها لك تلعبين بها متى تشائين؟ أحبّ بيتك هنا.»

- 43 -

أنهت زينب دوامها. مشت في الرواق بحذر. خشيت أن تلتقي بأحد. فقدت حماستها للنهوض إلى عملها. صباحاً تظلّ أمها تلكزها «أليس لديك مدرسة اليوم؟ قومي الجرس سيقرع». بجهد تتحضّر وكثيراً ما تصل في منتصف الحصة الأولى. لا تبالي لما يقوله الناظر.

متري طلب نقله إلى مدرسة رسمية أخرى. لكنه لا يزال يعمل معها في المدرسة الخاصّة نفسها. لم تفهم كيف يتدبّر أمره كي لا يلتقي بها. هل رأى جدول دوامها ليطلب من المدير عكسه؟ مرّة واحدة رأته في الممر، أسرعت لملاقاته، لم تنتبه لنفسها تصرخ باسمه عالياً. ركضت خلفه لاهثة. تجاهلها لكن أحد الأساتذة أوقفه ليشير باتجاه زينب. توقّف رغماً عنه. صافحها فلم تفلت يده، انسابت دموعها واختنقت الكلمات في حلقها. كأنها ابتلعت حجارة. أرادت أن تستغنم الفرصة لتصرّ على لقائه لتقول له كم اشتاقت إليه وكم يصعب عليها العيش والنوم والاستيقاظ والأكل والنوم. لكنّ البكاء غالبها. التفت حوله محرجاً. هي لم تحسّ بالماشين قربهما ولا بنظراتهم. رأته هو فقط ولم ترد إفلاته. سحب يده وسألها عن حالها مردفاً فيما يسرع خارجاً: «أراك لاحقاً أنا الآن مستعجل. انتبهي

لنفسك». لم تدر كم بقيت في وقفتها. ألهذا الحدّ يمكن أن يكون قاسياً؟ هل انتزع قلبه واستبدله بحجر؟ أرعبتها لا مبالاته.

شيء ما يمنعها من أن تفقد الأمل. لا يمكن أن ينساها بهذه السهولة. تقنع نفسها.

الآن هي وحيدة أكثر من أي يوم مضى. يخطر لها أنه ربّما قد التقى بفتاة أخرى وانشغل بحبّها. كم تعذّبها هذه الفكرة. عندما تصارح ماري بها. تردّ جازمة:«لا أظنّ ذلك.» تستريح لحين. تشجعها ماري أن تفتح قلبها أكثر وتنظر حولها. تومئ برأسها جهة أستاذ جديد كان يعلّم في الدامور قبل تشرّد سكانها وتهجيرهم. لكنّ زينب لا تنتبه لمحاولاته في التقرّب منها. قالت ماري إن رضا كان في السنة الأخيرة حين دخلت هي إلى دار المعلّمين. هو شيوعي كمتري تقول لكنه في منظمة العمل لا الحزب. عندما تدفعها ماري لأن تردّ على الاشارات المرسلة من رضا، تقلق مجدداً وتسألها:«هل تقولين لي ذلك لأن متري أحبّ فتاة جديدة؟ لا تخبّئي عني. أرجوك أنت بمنزلة أختي.»

منذ زواج ماجدة لا تجد من تكلّمه في البيت. تمرّ أيام قبل أن تحكي مع أحد. تردّ عليهم بالاشارات كأنها بكماء.

تزوجت ماجدة منذ شهور من رجل مطلّق بلا أولاد، وسكنت بعيداً في بلدة الخرايب. زارتها مرّتين برفقة والدتها. بدت متأقلمة مع الحياة الجديدة. سألتهما مدارية ألاّ يسمعها زوجها عن حال أولادها. كذبتا مدّعيتين رؤيتهم من فترة قصيرة. لا تخبرها زينب أنها حين تلتقيهم في الطريق تكاد لا تعرفهم. تجدهم قذرين حفاة حتى في عزّ البرد. كانت تصطحبهم لتطعمهم وتنظفهم سابقاً، لكنهم الآن يخشون غضب والدهم ويرفضون مرافقتها. يكتفون بأكل ما تشتريه لهم من الدكان. يزدرون الحلوى في قضمات سريعة متلفتين حولهم بهلع.

في الزيارتين لم يدعهن زوج زينب وحدهن إلا لوقت قصير حين استقبل جاراً جاء يستعير رفشاً. بقي الكلام عاماً. ولم تشعر زينب أنها رأت أختها حقاً أو اطمأنت على حياتها الجديدة. عندما فاتحت أمها في طريق عودتهما أجابتها إنها شكاكة، وأن أختها ما شاء الله لا ينقصها شيء، زوج مقتدر يعيش في بيت ملكه ولديه رزق وأرض. وأن ماجده بنت عاقلة لا تلبط النعمة مثلما تفعل هي وتتكبّر.

ندمت لأنها لم تتسجّل في الجامعة كما نصحتها ماري. في صيدا قد يصبح ممكناً أن ترى متري. قد تنتظره قرب مركز الحزب. ألم يقل لها مراراً بأنه يحضر اجتماعات أسبوعية؟ إن شكّ الحراس بأمرها لن تخشى من القول بأنها تنتظر متري. سوف تكذب وتقول إنه ضرب لها موعداً هنا. لا تأبه بعد الآن بمن يراها، أو بما قد يخبر الناس أهلها وأخوتها.

الأمطار تقوى. تفكّر كم فصلاً مرّ دون متري. الريح تصفعها بزخات من المطر فيدخل في فمها وأنفها وعينيها. يتبلّل شعرها وثيابها. ربع ساعة انقضت ولا اشارة إلى قرب توقف المطر. ليس بامكانها أن تنتظر طويلاً. دوامها في المدرسة الثانية يحين بعد نصف ساعة. برك ماء تجمعت في المدخل تعوم فوقها أوراق من التينة اليابسة ونتف من فروض تختلط فيها الأرقام بفروض انشاء. أعقاب سجائر تتراقص قريباً من قدميها. البلل جعلها ترتجف. تفكّر أن عليها أن تتراجع وتدخل قليلاً لكنها لا تفعل. يربكها أن تواجه الآخرين، كأنها لم تعد الشخص نفسه. باتت تعجز عن قول عبارات المجاملة الاجتماعية المعهودة.

عندما سمعت الزمور لم تلتفت. استمرّ طويلاً قبل أن تنتبه إلى رضا يشير إليها أن تركب سيارته ليوصلها. رفعت يدها شاكرة. ونظرت بالاتجاه المعاكس. أطلق الزمور ثانية. لما يئس من ردّها نزل فتبلّل بلمح البصر وخاطبها مبتسماً: «دعيني أوصلك لن تجدي سيارة أجرة الآن». ارتبكت

من إصراره. فتح لها الباب. ثم أمسك بمظلتها التي أفسدتها الريح وحاول أغلاقها معيداً قضبانها إلى ما كانت عليه. كان الماء يسيل من شعره وثيابه إلى المقعد والمقود. سألها:«إلى البيت؟». قالت:«لا. لا تعذّب نفسك. أنزلني عند آخر الضيعة سأجد سيارة من هناك».

كان ساكتاً ينظر إلى الطريق أمامه وهي انشغلت بمنظر الريح تثني العشب الأصفر في الحقول وتطيّر أغصاناً يابسة تتقافز فوق الاسفلت أمامهما. المسّاحات عجزت عن إزالة غبش المطر الغزير. اضطرّ إلى القيادة ببطء. كأن الريح ستقذف السيارة إلى الوديان المحيطة بجانبي الطريق. أخبرها أنه يعلّم هو أيضاً ساعات إضافية في النبطية عند الراهبات الأنطونيات. كانت مدرسته التي نشأ فيها حتى دخوله دار المعلّمين. حكى عن أخويه اللذين يتخصصان في الخارج. واحد في روسيا يدرس الطبّ والثاني في رومانيا يتخصّص في الهندسة الميكانيكية.

-«أنتم عائلة صغيرة».

-«مجرّد صدفة عائدة على الأرجح إلى سبب ما عند أحد الوالدين».

-«يعجبكِ الجوّ في المدرسة؟»

-«لا أعرف. لم أفكّر حقاً بالموضوع».

-«أنت مضحكة. ألا تعلمين إن كنت مرتاحة أم لا؟»

-« ماذا تقصد بمرتاحة؟»

ضحك من جوابها ظناً منه أنها تمزح. ثمّ سألها إن كانت تتابع أخبار السياسة. ردّت بأنها تفعل ومن لا يفعل والحرب لا تنتهي. أخبرها إنه لم يعد إلى الدامور بعد تهجيرها. يصعب عليه أن يتحمّل المشهد بعد أن دمّرت. لا يريد أن يرى ذلك الدمار والخراب وإلا لن تزول الصورة من مخيّلته بسهولة. سألته: ألم تحارب؟

-«لا، أعليّ ذلك؟»

-«ألست في المنظمة؟ ألا يحارب الجميع؟»

أجاب كأنه يتحدّث إلى فتاة صغيرة بأن ليس كل الحزبيين محاربين. وإن بعضهم يكره الأسلحة والعنف.

أوقف السيارة عند درج المدخل تماماً. عندما خرجت من السيارة رأت عيوناً ترمقها بدهشة. احمرّت كأنها فعلت شيئاً سيجرح متري. عبثاً ظلّت تردّد في رأسها بأنها لم تجر إلا محادثة ساذجة مع شخص قام بتوصيلها. لكن ندمها استمرّ ينهشها ويمنعها من التركيز في شرح الدروس ساعة تلو الأخرى.

بعد الظهر، حين انتهى دوامها، رأت المطر قد توقّف والعالم حولها غيّبه ضباب كثيف.

- 44 -

ما إن دخلوا باحة المطعم المكشوفة حتى هبّت نسمات ربيعية وطيّرت الشراشف عن بعض الطاولات. رائحة العرق والويسكي أقوى من رائحة الشواء في الطرف الغربي. تأمّل ميشال نجمة مسرعة تقود الشلة إلى الطرف المطلّ على البحر. قالت ماريا إن الطقس لا يزال بارداً بعض الشيء وتفضّل طاولة غير مكشوفة. تلكّأ ميشال في الجلوس.أراد مكاناً قريباً من نجمة. صديقها أميل أسرع كالعادة لينحشر جنبها. دائماً يكون برفقتها.

ميشال ليس معتاداً على المطاعم. بعكسهم. يأكلون فيها ويشربون مرّات في الأسبوع. على العريشة التي تظلّل الباحة أوراق عنب قليلة.

أخضرها شفاف. السماء تبين بغيومها البيضاء المتراكضة. دخان الشواء يلّفهم كغيمة بيضاء. تقول ماريا شيئاً عن الرائحة الشهية. يضحك غسّان واضعاً يده فوق بطنها: «صبي فجعان».

النادل يسلّم عليهم واحداً واحداً ويسألهم عن رفاق لهم. يعرّفونه على ميشال قائلين إنهم اليوم يحتفلون بنجاته من الموت. يقطّب حاجبيه بجدية سائلاً عن مدى خطورة الاصابة. يردّ ميشال متلعثماً بأنها لا شيء مجرّد شظية جرحت ساعده. يقول غسّان: «لا تصدّقه ألا ترى كيف هي ملفوفة؟ لو ابتعدت الشظية ميلمتراً واحداً كانت عطبت الأعصاب وشلّت يده.»

يسألونه عن أحوال المطعم فيفهم ميشال أنه صاحب المكان. قالوا إن اسمه ألبير. يغمز غسّان جهة طاولة تجمّع حولها شبان مسدساتهم ظاهرة من تحت القمصان. أحدهم سحبه من حزامه ووضعه على الطاولة أمامه. همس صاحب المحل منحنياً برأسه جهة غسّان: «صاعقة. لكنهم منذ صاروا يأكلون هنا قلّت المشاكل والسطو المسلّح.» ضحك غسّان معلقا: «وقلّ الزبائن».ثمّ أردف متلفتاً حوله بحذر: «حاميها...» رفع ألبيرذراعيه نحو السماء قائلاً: «لا حول ولا قوّة. هل آتيكم بالمعتاد؟ أم يفضّل مسيو ميشال شيئاً آخر؟»

-«مثلهم.»قال. حمزة الجالس قربه أشعل سيجارة وناوله إياها. قويت علاقته به في الشهور الأخيرة. هو الوحيد بين رفاقه من تربطه علاقة ولو بعيدة بغسّان. رغم ذلك، كانت المرّات الوحيدة التي رأى فيها نجمة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. يمازحه حمزة أحياناً في شأن نجمه لكن ميشال ينفي نفياً قاطعاً. لا يريد أن يحكي عنها مع أحد. يزور حمزة باستمرار منتظراً مرة بعد أخرى أن يقترح عليه السهر عند ماريا وغسّان. فعلا ذلك مرّتين. لكنهُ لم ير نجمة إلا سريعاً، كانت تتحضّر للخروج مع أصدقاء لها. ابتسمت له وسلّمت عليه من بعيد منادية إيّاه بميشو. كذب

على حمزة ليرافقه مرّة إلى اليسوعية. ادعى أن لديه موعداً مع طالب في ادارة الأعمال. مرّ شهر دون أن يلتقي بها في أي مكان. كان يحسّ أنه مجرّد جسد مفرغ يكاد يتساقط كخردة صدئة. كان الطقس عاصفاً يومها والكافيتيريا تغصّ بالطلاب. يأكلون ويشربون البيرة. الصخب ملأ المكان. استغرب حمزة وجود البيرة فاشترى قنينتين واتكآ إلى الواجهة الزجاجية بانتظار أن تفرغ طاولة. من الواجهة الزجاجية كانت عينا ميشال مسمّرتين إلى الطريق، علّها تأتي. تفرّق الطلاب وفرغت الكافيتيريا مع بدء دوام المحاضرات. سأله حمزة: «أين صديقك؟ يبدو أنه نسي الموعد. إن لم ترد شيئاً ضرورياً منه علي أن أذهب لديّ نوبة حراسة في المركز. أتريد مرافقتي ونسهر مع الشباب؟»

تحت أشجار السنديان في باحة الجامعة سيارات متوقفة فيها أشخاص يتحدّثون. بعضهم علا شجاره وسمع رغم النوافذ المقفلة. كان ميشال ينظر إليهم بطرف عينه متمنياً حتى اللحظة الأخيرة أن يكون محظوظاً فيراها. قال حمزة فيما عيناه تتعلّقان باثنين يقفان تحت درج المدخل في عناق محموم: «هنا عالم آخر يا زلمي!»

يتأمل ميشال نبض الشريان في رقبة نجمة، رمشة عينيها وهي تنفث دخان سيجارتها. يلامس اميل يدها بطرف اصبعه. يضع ذراعه حول كرسيها. تنحني لتأخذ خيارة من صحن الخضار يشمّ رائحتها فيضطرب. كأنها تحدس أنه ينظر إليها فترفع بصرها باتجاهه مبتسمة. يرى الشرايين الحمراء في بياض عينيها. قميصها شفاف يبين منه منبت ثدييها وارتعاشة صدرها. يستبدل شريط الأغاني الفرنسية بآخر لأم كلثوم: «اسأل روحك أسأل قلبك... » يسمع غناء الشبان من على الطاولة. تقوم صبية عن طاولة أخرى لترقص على هذه الأنغام.

شرب كأسه الأولى بسرعة دون أن يأكل سوى بضع حبات فستق.

دوار بدأ يشعره أنه في عالم خيالي. كلّ شيء فيه بطيء وغير ثابت. غسّان يبعد الكأس من أمام زوجته ليمنعها من شرب كأس أخرى. حمزة وتوفيق وأسعد يتناقشون في مدلول الاشتباكات الأخيرة بين التنظيم الشعبي الناصري وبين حركة فتح. أميل يضحك ويتدخّل في الحوار مردداً بهزء: «زعران. ماذا غير ذلك؟» يرمقه أسعد بازدراء كأنه حشرة. يتذكّر ميشال اليومين اللذين احتجز فيهما هو واثنان آخران داخل السوبرماركت. كل الموظفين تمكنوا من الفرار إلى بيوتهم القريبة إلا هم. لم يكن ممكناً لا الوصول إلى الموقف حيث السيارة ولا إلى الشارع حيث تمترس الطرفان قبالة بعضهما. الليل المعتم هو أقسى ما واجهوه. ناموا على كراتين فارغة وضعوها على الأرض. لم يجرؤوا حتى على اشعال شمعة. عندما انقلبت رفوف الحديد فوقهم بما تحمل من معلبات ظنوا أن المبنى هدم فوق رؤوسهم. فتحوا عيونهم وسمعوا جليل يصرخ وقد غطت الدماء اللزجة وجهه. صار يصرخ«إنني أموت افعلوا لي شيئاً.» نوبة الفزع كانت أقوى من اصابته. فتحوا قنينة سبيرتو وطهرّوا الجرح. ثم ضمدوه. فاستلقى جليل على ظهره وراح يوصيهم بأمه وأخوته. حينها فقط رأى ميشال على ضوء الشمعة ساعده وقد تجمّدت دماء سوداء فوقه، خدر وألم لا يُحتمل اشتعل فجأة في ذراعه، خنق أنينه خشية أن تسمع أصواتهم فتطلق النيران باتجاههم. لم يعرفوا إلا حين خرجوا أن شقتين سكنيتين أصيبتا في مبنى السوبرماركت.

كان الصيداويون حانقين يشتمون فتح علناً ويتهمونها بتخريب أرزاقهم. بعضهم تمنى أن توجه اسرائيل ضربة للفدائيين فيظهر هؤلاء الفئران على حقيقتهم الجبانة. لا يذكر كيف وصل إلى مركز النجدة الشعبية ولا كيف تسللوا تحت الرصاص. ما بقي في رأسه هو ألم كان يغالبه محاولاً ألا يفقد وعيه.

لم يتوقف ميشال عن النظر بين الحين والآخر إلى طاولة المسلحين. وجودهم يثير توجّسه. خشي أن يسكروا فيبدؤوا باطلاق النار في الهواء ابتهاجاً. مريم رفيقة أسعد كانت هي الأخرى تنظر باتجاههم وتبتسم لميشال ابتسامة تواطؤ. تعمل في الجامعة اللبنانية أمينة سرّ في فرع الآداب. رئيس التنظيم الناصري مصطفى سعد توسّط لها لتحصل على هذه الوظيفة.

هو أيضاً يتمنى أن يعمل في وظيفة أقلّ انهاكاً وأقصر دواماً من عمله. بدا له أن الجميع أوفر حظاً منه في العمل. صونيا وجدت وظيفة سكرتيرة عند محام دون واسطة هكذا أخبرته ماري. ضمنت تدرّجها بعد التخرّج. أما هو فلا يعرف أحداً. حتى بعد حصوله على شهادته ربّما سيبقى عالقاً بهذا العمل. متري نسي وعوده. على أية حال ماذا سيجد له. وظيفة في التعليم؟ هو يكره التحضير والتصحيح. ما عاد يلتقي به حتى في سهرات الشباب. قالوا مازحين:«بيروت أخذت عقله».

ضحكت نجمة من كلام يهمسه أميل. ضربت ذراعه بقبضتها. جفل ميشال كأن يدها حطّت عليه هو. نظر إلى أسنانها غير السوية إلى نقطة عرق فوق شفتها. نبض قلبه تسارع مع ارتعاشة رموشها الطويلة. الكحل سال ولطّخ تحت عينيها بالأسود. نور الشمس فوق شعرها وظلال ورقة عريش، كشحتها كأنها تطيّر فراشة.

صحون المازة فرغت قبل أن تجهز المشاوي. فكّر ميشال لولا الكؤوس التي شربوها لما وجدوا ما يجمعهم. مع مرور الوقت ازداد قربهم من بعضهم. نسي أسعد موقفه الهازئ من أميل. غسّان لم يقل شيئاً لزوجته الحامل حين أشعلت سيجارة أخرى وشربت من كأسه. حمزة راح يحكي مع مريم كأنهما أعزّ صديقين، اكتشف أنه يعرف ابن عمّها. أخبرها عن صداقتهما في الثانوية والمظاهرات التي شاركا فيها، الدرك اعتقلهما

مرّة وأبقاهما في الحجز ليلة لأنهم رشقوا مدرسة البنات بالحجارة. هي الأخرى تعرف أخاه الأصغر. اميل التصق بنجمة. أضحكها فمدّت يدها تلامس وجهه. قبّل خدّها. الطاولات فرغت من حولهم. الشمس انسحبت أشعتها.

غاب ميشال إلى نقطة بعيدة في داخله. طوال حياته كان وحيداً لكن وحدته اليوم أقوى من أن يتحمّلها. قام مدعياً اضطراره للرحيل. مشى مسرعاً كأن النيران اشتعلت في ثيابه. لم يسمع حمزه يناديه ليلحق به.

- 45 -

في بداية السنة تعب روبير في صفه الجديد. الدروس صعبة والمواد أكثر تعقيداً مما ظنّ. التلاميذ في صفه لم يلاحظوا أنه أصغر منهم. قامته طالت إلى درجة أن «أبونا» سمعان لم يعرفه بعد عودته من المروج. بعد عطلة الميلاد تخطّى روبير الصعوبات، وعادت علاماته لترتفع كالسابق.

أبونا الريس عرض عليه أن يعطي دروساً خصوصية لتلاميذ في القسم الخارجي. اقترح اسمه حين جاء بعض أهالي تلاميذ في الابتدائي يستشيرونه عن مساعدة لأولادهم الراسبين. قال إن روبير شاطر وسيوفّر عليهم كثيراً لأنه لن يتقاضى إلا سبع ليرات في الساعة لا عشرين كالأساتذة الآخرين. أفهمه أن أربع ليرات ستدخل صندوق التبرعات إلى الدير ويبقى له ثلاث ليرات كاملة. هكذا تحوّلت فترات بعد الظهر يومي السبت والأحد إلى صفوف تستمرّ حتى المساء. الأهل ارتاحوا لأن أولادهم داخل الدير وتحت اشراف الرهبان. الصعوبة كانت في أنه مع أعمال الدير لم يتبق له وقت كاف للدرس. لذلك اعتاد أن ينهض أبكر ليراجع ما فاته. هناك شهادة

عليه أن ينجح بها. سماعه أخبار اشتباكات في صيدا أقلقه، وراح يتنصت كلما سمع نشرة أخبار تتسلل من غرفة أحد الرهبان.

قبل أن تلتحق كاميليا بدير الراهبات في صيدا لم يكن يبالي بما يحدث في هذه المدينة. في عطلة الميلاد حسم أمره واستأذن الريس ليزور أخته. قال الريس إن المكان بعيد ثمّ من غير الآمن أن يتنقّل وحده. ظنّ أن الأمر انتهى إلى أن ناداه صباح اليوم التالي أحد الرهبان. قال إنه ذاهب إلى صيدا لشراء مؤن للدير لم يجدها في جزين. لكن زيارته لن تكون طويلة «ساعة على الأكثر وقبل الوقت أريدك أمام البوابة فهمت؟»

بعد التحقيق والتدقيق الذي أخضعته له المديرة، قالت: «نحن لا نسمح عادة بزيارات فجائية، عليك أن تبلغنا سابقاً لكنك تأتي من مكان بعيد.»

انتظر في الصالون المطلّ على الحديقة. رأى رؤوساً تتجسّس عليه ثم تختبئ. علم أنهن تلميذات مع كاميليا. عندما أطلّت انتبه لنحول قامتها وندم كيف لم يشتر لها شيئاً. لديه مال الآن يحصّله من تعبه. جلست عند طرف الكنبة كأنها تتأهّب للوقوف. ارتباكها صعّب عليه أن يكلّمها كما اعتاد. سألها عن أحوالها وأخبرها أن جدتهم تعافت من وقعتها، وأن عماته الآن يهتممن بها مداورة. قالت واجمة إنها لم تعرف أن جدّتها وقعت.

لم تقبل الليرات التي وضعها في يدها وهو يهمّ بالرحيل. أحزنته نظرتها. ظلّ طوال طريق العودة يحبس دموعه كلّما تذكرها.

حواجز كثيرة أوقفتهما وفتّشت الشاحنة الصغيرة بدقّة. كان «الأبونا» يعطي بعض المسلّحين على الحواجز السورية أشياء حملها معه من الدير: خضار وفاكهة أو علبة دخان. ويعرّف عن روبير بالعبارة نفسها عليل كلّ الحواجز: «يتيم عندنا في الدير.»

فكّر أنه لم يحك مع أخته عن رسالة أمهما الأخيرة ولا عن هداياها لهم. أرسلت له لثلاث مرّات متتالية قلم حبر سائل. لم يستخدم أياً منها

يحتفظ بها في علبها في المروج. كان كلما استرجع وجه كاميليا يزعل لأنه لم يحك معها ليعرف عن حياتها حقاً خصوصاً إنه وجد المديرة صارمة أكثر من الرهبان. انهالت عليه بالأسئلة فيما عيناها تتفحصّان كل ما فيه كأنه متهم في شيء لا يعرفه. ليس مستبعداً أن تكون تنصتت على حديثهما. في زيارة عمته روز له برفقة زوجها وعدته أن يجتمعوا جميعاً في أقرب عطلة. العطل توالت ولم يأت أحد. شهور لم ير خلالها أختيه.

مساعدة العمال في بناء خيم للزرع شغل روبير لأيام. عندما احتجّ تلاميذ الداخلي على هذا العمل، قال «الأبونا» ماذا يفعل؟ لا أحد يريد العمل بعد الآن، كيف يفعلون والمنظمات تعطيهم كل هذا المال دون تعب؟ كان العامل يشتغل كل الأسبوع من الفجر إلى النجر بخمس ليرات أسبوعياً.

راجي وجوزيف تذمّرا من الصقيع اللئيم وتورّم الأصابع والشقوق النازفة في اليدين. حين يبتعد «الأبونا» يجلسان عند طرف الجلّ. يتركان روبير وعاملين آخرين يكملان الحفر والبناء. الخدر في جسم روبير والانهاك الشديد أنساه أفكاره. كأنه آلة ما إن يبدأ تشغيلها حتى تنطلق دون توقّف.

أثناء العمل كان يقف شادي الصغير في الهواء متأملاً روبير دون حركة. حين يتعب يقرفص وينادي روبير باسمه دون أن يضيف كلمة أخرى. لا ينفع معه لا نهر ولا تهديد. «لو لم يكن مقطوعاً لما أبقيناه لحظة، هذا الأخوت.» يقول «الأبونا» غاضباً. أحياناً ينجح روبير باقناعه أن يدخل لأن البرد شديد. يمكث في الداخل دقائق، ثم يعود لينادي روبير مجدداً.

احتار ماذا يفعل به إلى أن فكّر بتكليفه بمهام صغيرة. كأن يناولهم الأدوات أو يمسك بقضبان الحديد فيما يثبتونها. علّمه كيف يحفر الأرض بالمعول كيف يطرق مسماراً بشكل مستقيم. رغم صغر يديه نفّذ ما يطلب

منه بمهارة فسكت عنه «الأبونا» وبات يعامله كأحد العمال. يردّد ضاحكاً فيما يراقبه «والله ماشي حالك يا أخوت.» تسميته هكذا كانت تزعج روبير، لكن من يجرؤ على الاعتراض على ما يقوله أبونا؟

في زيارته الثانية لأخته، كان الطقس قد تبدّل. العرائش حولهم امتلأت بعناقيد الحصرم. العصافير هجمت لتنقد أولى حبّات الفاكهة. خلع الرهبان جباتهم الثقيلة. التلاميذ أيضاً تخلوا عن الأردية الصوفية وباتوا يتأخرّون في السهر بعض الشيء. النهار طال والشمس تتأخّر في المغيب. عند المساء فقط يبرد الهواء.

نصبوا الفزاعات مستخدمين ثياباً بالية. جعلوا لها عيوناً جاحظة. ألبسوها قبعات قشّ قديمة. أعجب شادي بالأسماء التي أطلقها روبير عليها. حين يضيعونه يجدونه مقرفصاً قرب إحداها يحكي عن أمه أو ألعابه وبيته الوهمي أو يذكر خليطاً من الحكايات غير المفهومة.

أراد روبير أن يزور أخته في عيد الفصح، لكن خطف «أبونا» شربل جعل الرهبان حذرين. أطلق بعد ساعات بتدخّل من اللجان المشتركة للأحزاب الوطنية رغم ذلك ما عاد أيّ منهم يخاطر بالذهاب بعيداً، إلى صيدا. قال روبير للريس إنه سيركب سيارة أجرة ويعود لاحقاً بالطريقة نفسها. أجابه: «لا يا ابني الجرة لا تسلم في كلّ مرّة».

شهور مرّت سمع خلالها عن اشتباكات كثيرة في صيدا ومحيطها. «الأبونا» سمح له أن يجرّب حظه ويتصل بدير الراهبات ليطمئن على أخته منبّهاً إياه أنه لن تكون هناك مرّة ثانية. طلب السنترال، قالوا إن لا حرارة في الخطوط منذ أسابيع. انتظر شهوراً. أخيراً سمح له الريّس بمرافقة راهب يريد أن يشتري مبيدات زراعية لا يجدها إلا عند «الجبيلي» في صيدا. تذكّر أنه لم يعلم مديرة الراهبات بشأن الزيارة. لكن كيف يعلمها ولا هواتف والدير يبعد عنهم كثيراً. ساعد الراهب في تحميل الشاحنة

الصغيرة بصناديق من اللوز والتفاح المحفوظ من موسم السنة الماضية في الأقبية إضافة للجوز اليابس والدبس والزبيب والزيت. قال إنه سيبيعه في «الحسبة» ما تبقى سيعطيه كالعادة لتاجر جملة. ذلك أفضل من ابقائه والمواسم الحديدة على الأبواب.

عند جوانب الطرق رأى أولاداً يبيعون لوزاً أخضر وفولاً. يرتدون مشايات بلاستيك. آخرون بعمر أخته جاين مدوا فوق عود قصب عقوداً من الفلّ والكاردينيا. يقتربون من السيارات المتمهلة. على وجوههم نظرة رجاء وابتسامة خجولة.

تذكّر جديه. تخيّل المروج والحقول وقد أهملت. من سيهتمّ بها بعد أن صارت جدته طريحة الفراش. الوقعات المتكرّرة أضعفت عظامها الهشّة. علم ذلك من متري الذي زاره مرّة في بدء الصوم. قال إن جدته أرسلته وجعلته يقسم ألا يخبره عن تدهور صحتها. قال أيضاً إنّ جدته طرحت «الموشي» للبيع، تريد أن تترك لروبير وأخوته ثمنها. لكن لا شارين. السماسرة عرضوا ثلاث ليرات ثمناً للمتر المربع ما أغضبها وجعلها تغض النظر حالياً عن البيع. قال إن جاين سعيدة عند عمتها لكنها تظل تسأل عن أخويها. في البداية كانت تبكي ما إن يحلّ المساء فتصطحبها عمتها رغم تأخر الوقت لترى جدتها. أحياناً كانتا تنامان عندها. لكن زوج برناديت انزعج من غياب زوجته المتكرّر عن البيت. قال إما تقسّي قلبها وإما عليها تقبّل بكاء جاين حتى تعتاد حياتها الجديدة. أطرق روبير حين سمع ذلك. تمنّى أن تنتهي هذه الزيارة. خشي من أن تكرّ على مسمعه أخبار أخرى سيشقّ عليه نسيانها لاحقاً.

في بلدة رأى قطف موز يؤرجحه الهواء أمام الدكان. طلب من الراهب أن يسمح له بالنزول ليشتري موزاً لأخته.

-«لم تضيّع مالك على الغريب، اشتر لها شيئاً مما معي في الشاحنة. مم

يشكو التفاح أو اللوز؟»

-«لكنها تحبّ الموز... حسناً أشتري لها تفاحاً وموزاً.»

دفع ليرة وربعاً ثمناً لكيلو الموز وليرة ونصفاً ثمناً لأربع تفاحات قال الراهب إنها كبيرة وتزن حتى أكثر من كيلوغرام. ظلّ الراهب ينظر إلى كيس الموز فيما يقود. حتى فتح روبير الكيس وناول الراهب موزة التهمها في ثانية. في المرّة الثانية تجاهل روبير عيني الراهب وقد عادتا لتحطا فوق كيس الموز.

لم تستقبله المديرة هذه المرّة بل راهبة اسمها انطوانيت. سألته فقط عمن يكون ونادت فاديا التي كانت قريبة منهما منصرفة إلى مسح درابزين الدرج. طلبت منها أن تعلم كاميليا بزيارة أخيها. وقفت فاديا تتأمّل روبير كأنها تحفظ تفاصيله حتى ارتبك وشدّ بقبضته على كيس الورق الذي يحمله.

نظر إلى الحديقة بينما ينتظر أخته صامتاً. فأي حديث سيفتعل مع راهبة لا يعرفها وتأبى إلا مخاطبته بالفرنسية. تركتهما ما إن جاءت كاميليا. سأل أخته إن كان يسمح لها بالخروج معه قليلاً ليتمشّيا في الخارج. قالت إن الراهبة أنطوانيت لن تمانع، لكنها ستسألها لتتأكّد. والمديرة؟ سأل هامساً خشية أن تطلّ فجأة من خلف جدار أو باب. ضحكت وقالت إنه لا يوجد أحد اليوم إلا الأخت أنطوانيت. ذهبن للمشاركة في جنازة راهبة أخرى توفيت في دير القمر. عادت كاميليا مرتدية فوق بنطلونها الكحلي مريولاً واسعاً لونه أزرق. عندما انتبهت إلى نظرته المستغربة أخبرته إنه لا يسمح لهن بالخروج، حتى أيام العطل، إلا مرتديات المريول. بحجة أن الناس سيحترمونهن أكثر بعد أن يعرفوا أنهن بنات راهبات.

خرجا من بوابة أخرى غير تلك التي دخل منها. فوجئ برؤية البحر عند يساره بهذا القرب. سارت أخته جنبه ووقفا مدهوشين قبالة البحر.

من الجامع خلفهما تعالى الآذان. جلسا على الرمل مباشرة. البحر صاخب أخضر اللون. قالت إنها المرّة الأولى التي ترى فيها البحر منذ زمن. هي تسمعه وتشمّ رائحته لكنها لم تره إلا اليوم. وضع كيس الورق في حضنها. فتحته بحذر كأن شيئاً غير متوقع يوشك أن يخرج منه. رذاذ الموجِ بلّل وجهيهما فضحكا بحذر كأنهما تسلّلا خلسة أو هربا. نظرت طويلاً إلى داخل الكيس ثم أحكمت أغلاقه. «هذا لك أنت تحبين الموز». قال روبير فيما يفتح الكيس ويقشّر لها موزة لتأكلها.

-«كل أنت أيضاً لن آكل وحدي.» كانت تأكل خافضة رأسها. يدها تخفي فمها. روبير نظر إليها مفكّراً أن الدير غيّرها. ليست هيئتها فقط بل أشياء لا يستطيع أن يسميها أو يحزرها بالضبط. مشيا بمحاذاة شاطئ الرمل حتى وصلا إلى سوق السمك. انعطفا في زاروب ووجدا نفسيهما وسط أزقة ضيقة تحتشد فيها دكاكين صغيرة. قذائف حفرت فيها كوات أو فجوات كبيرة. سدّت بحجارة أو أغطية قديمة. بعضها ترك فبان الساكنون المتنقلون أو الجالسون في بيوتهم. شدته من يده عندما رأت مسلحين واقفين في مدخل بناء قديم. هو أيضاً ارتبك وما عاد يعرف كيف يعودان أعقابهما أو كيف يخرجان من متاهة زواريب متشابهة إلى حدّ التطابق. دلفا إلى زاروب آخر أشدّ ضيقاً عند جانبيه تتوزّع بيوت متداعية، أبوابها من خشب قديم تحدث صريراً. امرأة تحمل وعاء عجين فوق رأسها تأملتهما بفضول ثم توقفت عند فرن حطب صغير كثرت أمامه نساء صائحات صاخبات. امرأة أخرى تنظّف السردين فوق جريدة قديمة. خليط من روائح النجارة والبن المطحون والمجارير.أولاد حفاة يرتطمون بهما وهم يلعبون راكضين في الحارات. شدّ أخته من يدها عندما وصلا أخيراً إلى شارع عريض فيه مارة يشبهونهما. أمام محلّ حلويات وقف. أراد أن يشتري لكاميليا معمولاً. كانت تحبه وهم صغار خصوصاً السكر الناعم

المرشوش فوقه. يذكر مرة أنها لحست كل السكر الناعم. ولما أرادت أمه في الفصح أن تقدّم معمولاً للضيوف وجدته رطباً مشققاً. قالت إنها لا تريد معمولاً وإن عليه أن يخبئ ماله قد يحتاجه في أمور أهمّ. وقف جنبها ينتظر أن ينهي البائع لف أربع معمولات. رأى صدر الكنافة. تذكّر تلك الصباحات المبكرة ووالده يحمل كعكة الكنافة عائداً إلى السيارة. تذكّر رائحة القطر والجبن السائل، رائحة جلد المقاعد، والده يتأمله وهو يلتهم الكعكة في ثوان. تناول المعمولات الملفوفة في ورقة جريدة. دفع وسأل البائع عن الوقت.

وجدا طريقهما ثانية، عادا إلى الجلوس فوق الشطّ. أكلا المعمول وضحكا من أخبار كاميليا عن الراهبات وشجاراتهنّ، كيف أنهن مثل التلميذات، شلل تتناحر. حكت عن رفيقاتها «بنات البيت» عن الأخت مونيك معلّمة الموسيقى التي تعلّمها خلسة العزف على البيانو. لا تدعان الراهبات أو البنات يعرفن. غالباً ما تبرّر الأخت مونيك الأمر بالقول إن الله وهب كاميليا موهبة فطرية في الموسيقى من غير الجائز عدم تنميتها. حكى روبير عن السنوات القليلة التي تفصله عن العمل. سألت كاميليا بخوف: «ألن تدخل الجامعة؟ أبي لن يفرح بذلك.»

فكّر أنها تحكي دائماً عن والدهم كأنه هنا في مكان ما قريب جداً. طمأنها أن دخوله الجامعة لا يعني ألا يعمل. هدمت يدها جبل الرمل الذي كانت تجمعه وسألت: «و جاين؟ أستتذكرنا؟»

لم يجب روبير. فكّر بأن الراهب سيصل بعد قليل والله وحده يعلم متى سيلتقي بأخته ثانية.

- 46 -

قبل انتهاء الدوام احتشد الأهل أمام البوابة وفي الصالون حيث سادت فوضى. صوت المديرة لم يهدئ الأهالي. قالت إنها غارات وليست المرّة الأولى. دعتهم إلى التريّث بانتظار إخراج أولادهم من الصفوف. «بنات البيت» ساعدن في استدعاء التلميذات، لكن أهلهن جاؤوا بدورهم لاصطحابهن قائلين إن الوضع مقلق. الضجة جعلت رئيسة الدير الأم تيريز تنضمّ إلى المديرة لتسألها عمّا يحدث. تطوّع أحد الأهالي ليجيب بدلاً من المديرة. قال شيئاً عن قصف المدينة الرياضية. أجابت الرئيسة بالفرنسية، وهي تشير إلى جهة مخيّم عين الحلوة، إن إسرائيل تغير على المخيّمات منذ سنين ولم تتعطّل المدارس. ضوضاء غير مفهومة أفزعت التلميذات الصغيرات فبكى بعضهن غير فاهم ما يجري ثم ما لبثت عدوى البكاء أن انتقلت إلى كثيرات.

أحدهم نقل ما قالته الاذاعة الاسرائيلية وآخر ذكر ما أذيع في نشرة مونت كارلو. قالت الرئيسة مغلوبة على أمرها رافعة يديها: «كما تشاؤون لكن أرجو منكم الانتظار في الخارج». جاكلين والهام وفاديا وميراي وروزيت رحلن تباعاً. كنّ يودعن بعضهن بحماسة وفرح. قبّلن كاميليا وعانقنها كأن غيبتهن ستدوم إلى الأبد. لم تهدأ كاميليا لحظة. من صف إلى آخر تصعد الأدراج شبه راكضة. اضطرّت المديرة إلى الاستعانة بالطباخة سعاد وبالبستاني العجوز لمساعدتهن. في أقلّ من ساعة عاد الصمت تدريجياً ولم يتبق من التلميذات إلا عشرات من كل الأعمار. جمعن في قاعة المسرح القريبة من الصالون. جلسن يتظاهرن بمراجعة دروسهن كما أمرتهن الراهبة. كنّ يكتبن قصاصات ورق وينقفنها إلى بعضهن أو يرمين

بعضها باتجاه كاميليا التي أوكلت بمراقبتهنّ. الطائرات المحلّقة على علو منخفض خرقت الغلاف الجوي فارتمت التلميذات أرضاً في لحظة. ما إن ساعدتهن الراهبات على النهوض وشرب الماء حتى دوى صوت انفجارات قوية. على أثرها جاء أهاليهن.

فكّرت كاميليا بجدتها وبالقاعدة القريبة من بيتها. أرادت أن تسأل عمّا يجري لكنها امتنعت. سؤال الأخت مونيك لن يفيدها أيضاً ليس لأنها انكليزية الأصل بل لأنها تعيش في عالمها الخاصّ، لا تدري عن لبنان سوى أنه في حرب أهلية حيث يتقاتل المسلمون والمسيحيون على السلطة. لديها ميل للفلسطينيين منذ كانت راهبة في أحد أديرة فلسطين المحتلّة. تجيد العبرية وتتكلّم الفرنسية بلكنة مضحكة.

كانت عصرونية كاميليا كريمة هذه المرة ربما لأنها وحدها، سندويش زبدة ومربى السفرجل. بعدها رافقت راهبتين إلى السوبرماركت. كانت الشوارع قد خلت من المارة لكن فيها عجقة سيارات. كأن سائقيها أصيبوا بالجنون. وضعوا أيديهم فوق الزمور يطلقونه دون توقف.

لأول مرة يشترين معلبات وأغراضاً بهذه الكمية. تقاسمن حملها لأن الصبية منشغلون في ايصال بضائع وأغراض إلى زبائن آخرين. قال الموظف على الصندوق كأنه يكلّم نفسه: «ماذا حلّ بالناس؟ ما الجديد ليفرغوا السوبرماركت في ساعة؟ لم أرتح لحظة منذ الصباح.»

في الساعات التالية سيصعب على كاميليا تذكر تعاقب الأحداث. هل حصلت الغارات الجوية أولاً أم قصف البوارج؟ من اليوم الأول أصيبت كنيسة الدير وتساقط زجاجها الملوّن. اجتمعن بداية في المطبخ ظناً أنه آمن. نمن ما بين الأفران وطاولة الطعام. الصراخ القادم من الخارج قطع صلاة اجتمعن لادائها تحت الطاولة. سيارات الهلال والصليب الأحمر مرتّ مسرعة متجهة إلى المستشفيات القريبة. البوابة الشمالية اهتزّت

بقوة. صراخ عال يأمر بفتحها. المديرة قامت من مخبئها لترى ما الأمر. خافت أن يطلق النار على البوابة فيتعطّل قفلها الكهربائي. لم تجرؤ أي راهبة على مرافقتها. أنصتن إلى الجدال الحاصل. كانت تكرّر أنه دير ومكان عبادة ولا يجوز أن تسمح لأي كان بأن يمترس في البستان، سمعن خرطشة سلاح فانقطعت الأنفاس وتحرّكت الشفاه بصلاة يائسة. عادت محمرّة الخدين حانقة تتمتم كلاماً لم يفهمنه وعندما سألتها الرئيسة الأم أجابت بالعربية: «ماذا أقول لها هي كالأطرش بالزفة». الراهبات الأجنبيات في الدير لا يعرفن الكثير عما يحصل. وحدها المديرة أنجيل الفلسطينية الأصل والأخت كلود السورية تتابعان ما يجري. الكل يلقي عليهما مسؤولية التعاطي مع الناس والمسؤولين. الرئيسة تسافر كثيراً وتشارك في مؤتمرات روحية. حتى عندما تسلّم التلميذات دفتر العلامات تقول للراسبات كلمات لطيفة للتخفيف عنهن، كأنها تركت مهمة الحزم والقسوة والتأنيب للمديرة. لذلك كان حضور المديرة أو مرورها في الرواق بين الصفوف كافياً لاشاعة الرعب والحذر في النفوس. سعاد الطباخة قالت إنها ستذهب إلى ضيعتها مشياً إن اضطرّت «الوضع غريب ولا يبشّر بالخير» قالت. «ليست مجرّد غارات. في الراديو...» انفجار آخر. بكاء وصراخ حادّ عقب ذلك. نفضت الأخت كلود ثوبها وقامت لتتصل بطبيب تتعلّم بناته في الدير وهو طبيبهن أيضاً. عادت شاحبة. «لا خطوط لكن قازاناً رمته الطائرة وأصاب بناية البيطار القريبة.»

قبل أن تغادر سعاد حاملة صرة ثيابها قالت شيئاً عن اللحوم التي ستفسد إن استمرّ انقطاع الكهرباء.

كانت الغارات تتوالى لا يفصل الواحدة عن الأخرى إلا دقائق، لكن الأخت أنجيل قالت إن ذلك سينتهي قريباً، قد تقصف كل المخيمات والمراكز الحزبية لكنها ستتوقّف أخيراً. كلامها لم يدخل إلا الفزع في قلب

كاميليا المتقوقعة على نفسها عند قائمة الطاولة. جدتها عجوز كيف تهرب وأين تختبئ؟ والقاعدة ماذا سيحصل لأفرادها أيقتلون جميعاً؟ أرادت أن تسأل عن معنى القازان لأن ما تعرفه عنه أنه سخّان المياه. تخيّلت الطائرة ترمي قازاناً من المياه المغلية. قالت الأخت أنجيل إن عليهن فعل شيء للاستفادة من اللحوم التي ذاب الثلج عنها. لا أحد يعلم متى يعاد التيار الكهربائي. قصف البوارج لم يفسح لهن المجال للانصراف إلى أعمال المطبخ التي لا يُجِدْنها. البوابات خلعت وأفواج من العائلات دخلت إلى الدير. أولاد حفاة يبكون فيما تجرّهم الأيدي بقوة. أباء وأمهات ينخرطون في بكاء وصراخ تلقائي يتصاعد مع وتيرة القذائف. كأنه مطر من النار. الجو امتلأ بالدخان ورائحة كاوتشوك وحديد مصهور. كل عائلة دخلت الدير حملت معها قصة. لم تعرف كاميليا بوجود الملجأ سابقاً. المستودع رأته لا بل نظفته مراراً أما الملجأ فلم تحدس بوجوده. في ساعات امتلأ بأكثر من ثمانمئة شخص. طبيب الديرالدكتور فضّول التجأ مع عائلته إلى الدير. عاين بعض الجرحى ونظّف جروحهم بالعدة البدائية التي تملكها الراهبات. سمعت كاميليا الراهبة تحكي عن سماكة جدران الملجأ والتهوئة فيه وتعدد أبواب النجاة. الدولة ألزمتهم ببنائه حين أرادوا بناء مبنى جديد وكانت تكلفته أعلى من البناء ذي الطوابق الأربعة. بقيت كاميليا قرب الأخت مونيك تلازمها كظلها. المكان مزدحم تعبق فيه روائح الأجساد المتعرّقة ورائحة البول والدم المتجمد. كلما سقطت قذيفة تعالت الصلوات واختلطت. أخبار الاذاعات متضاربة. اذاعة اسرائيل تقول إن قواتها دخلت إلى صور. الكل يقول إن ذلك غير ممكن «كيف تفعل والجنوب يعج بسلاح الفلسطينيين وقواعدهم. لو أنهم يتمشون دون مقاومة سوف يلزمهم وقت للوصول إلى صور. هذا لعب على الأعصاب. لا أكثر» رجل ستيني عينه مصابة عليها ضمادة يبس فوقها

الدم يشتم الفدائيين ويلعن ساعتهم يدعو أن تبيدهم اسرائيل. عيون ناقمة تنظر باتجاهه. نفد الماء كلياً، تشققت الشفاه ويبست. من حمل فيهم ربطة خبز أو معلبات تشاركها مع الآخرين والآن لا أحد لديه لقمة واحدة.

سقوط القذائف وسماع الأبنية التي تتداعى في هدير كأنه يسقط فوق رؤوسهم أسكت الجميع. لا شيء سوى تردد الأنفاس المخنوقة. دموع صامتة فوق الوجوه الجائعة. كاميليا أيضاً جائعة وعطشى وتريد أن تجد متسعاً لتمد قدميها المضمومتين إلى صدرها. لا أحد ينام. المكان لا يتسع لهم حتى جلوساً. الأمهات أبقين أطفالهن فوق الأذرع. الراهبة أعطتهن الشراشف القديمة في الملجأ لاستخدامها أقمطة للرضع. تسللت المديرة برفقة الدكتور فضول إلى أعلى. عادا محملين بمعلبات وحليب وماء. رأت كاميليا الراهبات يسعفن الأمهات في حمل الأطفال وفي ملاعبتهم وإطعامهم الحليب بجرعات قليلة.

ماذا لو استمرّ الأمر عدة أيام؟ حتى ماء الخزان في الحمامات شربوه. سمعت كاميليا الدكتور فضول يخبر الراهبة عن حالات الاسهال المقلقة بين الأولاد. عن الجروح العميقة التي لن ينفع أن تداوى هكذا.

الليل أسوأ من النهار. ما عادوا يعرفون شيئاً منذ فرغت بطاريات الراديو. تصرّ كاميليا على الخروج لدخول الحمام في الأعلى. الممرات كلها امتلأت بزجاج منثور وقطع خشب. الأبواب المخلعة تطايرت في أرجاء الملعب. واختلطت بأوراق التلاميذ وأرشيف المدرسة. الرصاصات الفارغة فرشت أرض الصفوف وداخل الخزائن. عندما خرجت لتساعد الأخت مونيك في حمل ما قد تجدانه في خزائن المطبخ رأت من البوابة التي تطايرت درفاتها الحديد أعالي البنايات حولهم سوداء متفحمّة. من إحداها بانت قضبان حديد وكنبة عالقة فيها. ارتجفت كاميليا، خفضت رأسها كي لا ترى الأخت مونيك دموعها. تساءلت في سرّها كيف

سيحتمل بيت جدتها هذه القذائف؟ البنايات القوية لم تصمد.

في اليومين التاليين استحال خروج أي كان من الملجأ. عائلات أخرى انضمت اليهم، أخبروا إن الطائرات رمت مناشير دعت فيها الناس إلى الخروج والتوجه إلى البحر رافعين مناديل بيضاء.

رأت كاميليا بعضهم يغفو واقفاً. المكان لم يتسع للجميع جلوساً، لذلك جلسوا مداورة. فيما وقف معظمهم. الحرّ زاد من عطشهم. تشققت ألسنتهم وشفاههم. بدا لهم كأنهم إن لم يموتوا من القصف سيميتهم هنا الجوع والعطش وعدم النوم. باتت كاميليا تعرف أسماء كثيرين بينهم. ألفها بعض الأطفال الذين ما إن تحملهم حتى يمدّوا أصابعهم المستديرة لتلمّس وجهها وشعرها. رغم جوعهم كانوا يترغلون بأصواتهم الجميلة فينتزعون ابتسامات من حولهم. أكثر من تعلّقت به طفلة لم تبلغ السنة بعد. عجزت أمها عن جعلها تنام ليلة بعد أخرى. تنادي كاميليا بـ«ميا». تعرفت كاميليا على معظم من كانوا في الطرف الشمالي من الملجأ.

عندما اقتحم الجنود الملجأ ارتفع الصراخ والبكاء واختلط بأوامر الجنود. البنادق مصوبة إلى الجميع. قال أحدهم «مخربون». رفعوا أيديهم عالياً قبل أن يطلب منهم. «اركعوا». سمع الجميع الأخت مونيك تصرخ بالعبرية. مرّت بين الناس وأبعدت بندقية الجندي المشهورة باتجاههم. كان بعض الأولاد يبكي مكرراً بصوت مخنوق«اسرائيلي اسرائيلي». أهلهم يرمقونهم بنظرات نارية لإسكاتهم. التدقيق بالأسماء والهويات لمن يحملها استمرّ ساعات. بعدها أمروا بعدم مغادرة الملجأ حتى يُسمح لهم. انخرط الجميع في بكاء صامت، حتى الراهبات بكين. سمعت كاميليا الأخت مونيك تهمس للمديرة بأن الجنود صادروا مبنى الحضانة وحوّلوه إلى مكان للاعتقال.

في اليوم التالي وقفت كاميليا قرب راهبتين عند البوابة الشرقية، نظرت إلى آلاف الناس المتوجهين إلى شاطئ البحر. على رؤوسهم مناديل بيضاء

أو يحملون في أيديهم المرفوعة محرمة ورقية. كل الأذرع مرفوعة عالياً. الأمهات اللواتي حملن أطفالهن بيد رفعن الأخرى عالياً. حشود متدافعة حرقت وجوهها الشمس الساطعة. ركضت المديرة باتجاه عائلات تعرفها جرّت بعضها إلى الملجأ. حين اعترض الجندي قالت إنها عائلات أساتذة المدرسة. كل من حاول الخروج من الملجأ لتفقد بيته اقتيد إلى الشاطئ حيث سيستمر في المكوث هناك لأيام. الرجال يقفون صفاً واحداً لعرضهم على مقنّعين. إن رنّ الجرس أثناء النظر إلى احدهم يعتقل. من ينجو بامكانه أن ينضم لعائلته بعد حمله ورقة مطبوعة باللغة العبرية.

صهاريج ماء كانت تتوقف فيهرع الجميع حاملاً غالوناً أو قنينة ماء لتعبئتها. وقوف الجنود منع التدافع. كاميليا أيضاً عبأت غالوناً وأعدت مع الراهبات طبخة أرز بلبن. أطعموا الأطفال والأولاد أولاً. وزعوا الماء على الكبار. سمح لهم بالخروج إلى الملاعب. منها كان بامكانهم رؤية ملعب الرمل في قسم الحضانة وقد تحوّل إلى مركز للاعتقال. الرؤوس مخفية داخل أكياس. اليدان مربوطتان خلف الظهر. الأقدام موثوقة أيضاً. يُضرَب من يتمهّل بعقب البندقية ليسرع. من يقع تدوسه الأحذية العسكرية كأنه حشرة. صراخ الأسرى كان يزداد ليلاً. بعدها مُنع كل من في الملجأ من الوقوف أو التجوّل قريباً من مباني الحضانة. كان أمراً صعباً. لذلك استعاضوا عن الملعب المكشوف بمبنى المختبرات بطابقيه. أخبار كثيرة سمعتها كاميليا على مدار تلك الأيام، كلها عن صيدا ومحيطها. لم تسمع شيئاً لا عن المروج ولا عن القرى المحيطة بها.

سمعت عن الملاجئ التي مات كل من فيها. عن القصف الذي طال كل مكان انطلقت من قربه مضادات أو أسلحة. الصليب الأحمر دخل الملجأ، وزّع أدوية وبدّل الضمادات الوسخة على الجروح. المضادات وأدوية الالتهابات لم تكن متوفّرة.

بدأت العائلات تغادر الملجأ لتفقد البيوت. لكن ما إن تخرج حتى يوجه الجنود الرشاشات إلى الصدور دافعين الجميع باتجاه البحر مكرّرين «رح، رح». الأخت مونيك خرجت عن قوقعتها وباتت لسان حال الراهبات عند الاسرائيليين.

كان بعض المجندين يلاطف الصغار المنتشرين في الملاعب نهاراً بإعطائهم سكاكر أو بملاعبتهم. حين سأل مجنّد لم يبلغ العشرين كاميليا عن أهلها تجاهلت سؤاله متظاهرة بعدم الفهم. كرّر سؤاله بلكنته الغريبة. أجابت «أبي انطوان وأمي كارلا.» جال بنظرته في أرجاء الملعب لتدلّه عليهما. قالت: «في كندا».

-«إنتَ وحدَك؟»

-«أتعلّم وأبقى هنا في الدير».

همّ بأن يسألها ثانية فأدارت ظهرها ومشت باتجاه الملجأ. لأول مرة ترى كاميليا الراهبات يعملن مثلها. الأولاد أيضاً كانوا يساعدون، خصوصاً في تكنيس الزجاج وجمع الردم. أول مكان نظفوه هو الكنيسة. أقاموا الصلاة فشارك فيها معظم من في الملجأ. بعضهم كان يقرأ الفاتحة وآخرون تابعوا القداس الذي أقامه الأب سليم. أثناء الصلاة جلس قريباً من كرسي الاعتراف مجنّد واضعاً رشاشه فوق ركبتيه. عند انتهاء الصلاة وقف في الباب يدقّق بهويات كثيرين رغم أنه صار يعرف معظمهم.

بعد عشرة أيام من دخول الاسرائيليين خلا الملجأ تقريباً إلا من عائلة واحدة تسكن خلف الدير. بيتها هُدِم تماماً. ذهبت المرأة بمفردها ولم تجد بين الركام المحروق سوى أغراض قليلة عبارة عن قدور وأدوات مطبخية. استمرّ نومهم في الملجأ وسماعهم كل ليلة لصراخ الأسرى لتردادهم «الله أكبر». أو «يا أمي». «يا بيّي». بعضهم كان يقسم معدداً كل الأنبياء أن لا علاقة له بشيء.

غرف الراهبات احتاجت إلى اصلاح. نمن مع كاميليا في القسم المخصّص لبنات البيت. الأمر أربكها. كان عليها أن تنهض باكراً لتسبقهن وترتدي ثيابها. لم تعتد رؤيتهن كبقية الناس في ثياب النوم ودون غطاء رأس ودون الثوب الرصاصي.

عندما أخلى الاسرائيليون الدير، أقمن صلاة شكر شارك فيها رهبان من دير الصالحية. أحدهم حمل لكاميليا رسالة فاجأتها. فرحت بها رغم أن المديرة قرأتها قبلها. جلست وحدها قريباً من السياج الذي يفصل ملعب الكبار عن البستان الكبير. في داخل الورقة خمس ليرات. قرأت الرسالة مرات.

أختي الحبيبة كاميليا

خفت كثيراً في الأسابيع الماضية. أردت الذهاب سيراً لأطمئن عليك. لكن الرهبان منعوني. قالوا سأقتل في الطريق. وقالوا إن الدبابات تطلق النار على كل ما يتحرّك أمامها دون تمييز.أمضينا الأيام نراقب العائلات الهاربة نقدّم لها أباريق الماء وأرغفة خبز. أوينا بعضها في خيم وزعتها كاريتاس. أحدهم قال إن الدير هدمته البوارج من اليوم الأول. لكن الريس قال ألا أصدّق ما أسمع. سمعت ورأيت أشياء كثيرة لن أنساها في حياتي. صليت وتمنيت أن أراك وسط الوجوه مع الراهبات. أيام لم أعرف فيها النوم، كنت لا أستطيع أن آكل وأنا أتخيلك جائعة في مكان معتم. ولا أن أبتسم وأنا أعلم أنك ترتجفين خائفة في زاوية وحدك. حتى وصلنا خبر من راهب التقى الأب سليم في عبرا، قال إنه ترأس الصلاة في دير الراهبات ولما سأله أبونا شربل عنك، أكّد أنه رآك وأنت تتناولين منه القربان. وأنك قدّمت له كاسة أرز بلبن. رأيت ميشال ورده بين الهاربين. كان يحاول أن يصل إلى الضيعة. هو أيضاً طمأنني قائلاً إن الدير لم يهدم وأن الناس يبالغون في الأخبار التي يتناقلونها. سألني إن كنت أعلم أي

شيء عن الضيعة قلت له إن لا أخبار إلا ما سمعناه في الراديو الذي اكتفى بذكر الضيعة بين القرى التي دخلت إليها اسرائيل. قال: «لو كانت هناك أخبار سيئة لكنا عرفنا. إن شاء الله ألا يكون أحد أصيب». عندما قلت له كم بالي مشغول على جدتي وهو يعرف السبب. ردّ أن عماتي لن يدعنها وحدها. هذه الليرات أبقيها معك في حال احتجتها. لا أحد يعلم ما يحدث. إن شاء الله نجتمع قريباً عند جدتي. سمعت الرهبان يتكلمون عن إكمال العام الدراسي وإجراء الامتحانات النهائية.

«الأبونا» لن يقصد صيدا عمّا قريب. الكل يخاف مما يسمعه عن العمليات المستمرة في أنحائها لأسر الفدائيين وأنصارهم. لذلك لا أظن أنني سأراك قريباً في صيدا. إلى أن نلتقي أرجو أن تهتمي بنفسك وبصحتك. ليكن الله معك.

ودمت لأخيك الذي يحبّك

روبير

- 47 -

جاء أبناء عمومة جبرايل وحملوا هند. مددوها فوق ركب الجالسين في المقعد الخلفي. لم تعترض على مرافقتهم. لا لأن سعدى غادرت وحدها وهربت بل لأنها خافت أن تأتي إحدى بناتها وتعرّض نفسها للخطر. الشاحنات تركت وسط الطرق وكذلك الأسلحة والمدافع. جهد الأهالي لأخفائها بأغطية قديمة وبأوراق وأغصان الأشجار. الفدائيون هربوا في الوديان، لم يريدوا ركوب آلياتهم لأن الطيران يلاحقها واحدة

واحدة ويقصفها. بعضهم أخذ من السكان ثياباً مدنية وآخرون لم يسنح لهم الوقت ففروا إلى المغاور والكهوف. حزنت روز على حاتم الذي جاء ليقول لها: «ستي لا تبقي هنا. أذهبي مع سعدى». ردّت سعدى بسذاجتها المعهودة: «أنا لا أملك إلا قدميّ وأم أنطون كما ترى». لم تزِعل منها هند. هي مجرّد فتاة مقطوعة ووحيدة أتت بها أديل لتعمل موقتاً على خدمتها. هند دلّت حاتم على ثياب جبرايل القديمة في قعر الخزانة. اختار بدلة وقال ضاحكاً: «سيظنون أنني خواجة».

لم تدر كم عدد الراكبين في السيارة. فوق ركب الجالسين مجموعة من الأولاد وفي صندوق السيارة المفتوح جلس الصبيان الشبان.

انخفضت الطائرة، فظنّ الجميع أن القذائف تستهدف السيارة. «يا عدرا ارحمينا» صرخ الجميع. حاجز قريب قُصف رغم هرب الفدائيين عنه. تعالى الصراخ والشجار في السيارة ما بين راغب في إكمال السير إلى الضيعة وما بين خائف من القصف. أسكتهم أبو رشيد بصوته الغاضب: «قصفوا حاجزاً مهجوراً بهذا العنف ماذا سيفعلون بالمروج وهم يعلمون أنها تعجّ بقواعد الفدائيين. سنكمل والاتكال على الرب».

الضيعة كانت ساكتة. كأن كل من فيها غادرها. كلاب وقطط شاردة تائهة تركها أصحابها بعد أن فروا سالكين طرقاً جبلية وداخلية للوصول إلى بيروت. بقرات وأغنام تسير في الدروب مذعورة بعد أن قطعت رباطها. «خذنا إلى الكنيسة هم لا يقصفون أماكن العبادة».

-«يقصف الله أعمارهم. هؤلاء بلا دين لا يهمهم لا كنيسة ولا جامع... نوصّل أم أنطون ونرى ما نفعل».

حملوها إلى الداخل وألقوها فوق أقرب صوفا كأنها متاع. قالت أديل لأمها إن زوجها ادوار كان يتحضّر لجلبها عندما قصف الطيران. شتمت سعدى على قلّة وفائها. قالت إنها لا تفهم كيف تترك امرأة عاجزة عن

النهوض وحدها وتهرب. هل هي تعمل مجاناً؟ ألا يدفعون لها معاشاً. كانت مقطوعة بلا لقمة تأكلها. والآن تلبط النعمة. سكتت هند ولم تعلّق على سيل الكلام الغاضب الذي انجرفت فيه أديل. حزرت قلقها على متري ولم تجرؤ أن تسأل عنه. البيوت حولهم خلت. الشبان قادوا الآليات والشاحنات العسكرية إلى أبعد من حدود الضيعة غطوها بالشوادر، لكن الطيران قصف المباني التي كانت مراكز لهم قبل اخلائها. بعض البيوت المجاورة تضرّر فسقطت جدران أو سقوف. فضّل الناس خطر الطريق على البقاء في الضيعة حيث لا ملاجئ ولا مستودعات لتحميهم. لن يبقوا للموت هنا، قالوا. حمّلوا السيارات بفرش وأطعمة ربطوا كلّ شيء بحبال فوق سقف السيارة. ركبوا عشرات في السيارة الواحدة. أخذوا طرقاً بعيدة عن الساحل في الجبال ثم البقاع ومن هناك إلى بيروت الشرقية. لم تسأل هند عما يحدث في صيدا. كبتت قلقها على كاميليا في قلبها. أديل صبّت غضبها بالصياح على أولادها وزوجها وراحت تلقي عليهم الأوامر. حتى ما عادوا قادرين على تحمّلها وقال ابنها روجيه: «لأنك عاجزة عن السيطرة على ابنك متري تريدين تحويل حياتنا إلى جحيم، ألا يكفي القرف الذي نحن فيه؟». الطائرة التي خرقت المجال الجوي أسكتتهم ودفعتهم إلى الاستلقاء أرضاً دون همسة. كانت هذه الطلعات تستمر ويسمعون بعدها الانفجارات القريبة والبعيدة. شظايا القنابل وصلت إلى الحدائق والطرقات ودخلت البيوت. أصيب بعضهم بجروح. لولا المستوصف لما عولجوا. لن يتجرأ أحد على نقلهم إلى المستشفى. كانت أديل تصعد إلى السطح وترى غيمة الغبار والدخان التي تغطي سماء المناطق المقصوفة. لو يأتي متري ويريح قلبها. تستدير جهة الكنيسة وتصلي للعذراء لتعيد لها ابنها سالماً. تنذر أن تمشي حافية إلى سيدة المنيطرة إن عاد. طردت الأفكار السوداء من رأسها. قالت إن عليها أن تتحلّى بالقوة من أجل عائلتها. لكن

هذا الصبر والهدوء يستمرّ إلى أن تسمع نبأ جديداً عبر الراديو. كل البيوت حولهم فارغة من سكانها تقريباً. احتشد الناس في الكنيسة القديمة. أما الساكنون قريباً من الساحة فالتجأوا إلى الكنيسة الجديدة. مرّت تقلا وأم رزّوق ووردة أم ميشال لإقناعهم بمغادرة البيت. على الأقل الكنيسة القديمة مبنية بحجر عقد.

قالت أم ميشال إنها غير مهمة، ليأخذها الربّ إن شاء لكن فليسمح لها بابنها الوحيد وليبقه لها. بالشقاء والتعب ربّته. رغم خوفها، خفّفت عنها أديل مدعية أن ميشال وابنها متري واعيان ولن يعرّضا نفسيهما للخطر.

دخول الحمام كان أصعب ما واجهته هند في بيت ابنتها. كل مرّة كان عليهم اجلاسها على كرسي لتحمل إلى الحمام حيث يتعاون الجميع على وضعها فوق المرحاض. كانت سعدى امرأة قوية. تقدر وحدها على حملها بين ذراعيها كأنها طفلة. كما أن هند اعتادت عليها وعلى ثرثرتها. ونقلها لأخبار كل من في الضيعة. لم توفّر أحداً، نميمتها طالت بنات هند وأحفادها أيضاً. قبل أن تعمل عند هند كانت تعتمد على مساعدة الأقارب البعيدين لها ومساعدة الجيران. يرسلون لها أطباقاً مما يطبخونه. في مواسم الزرع والقطاف تعمل لقاء مونة وأجرة. عملت أيضاً في تنظيف المدرسة الخاصة عند حدود الضيعة، لكن المدير عجز عن تحملها لطول لسانها وتدخلها في ما لا يعنيها، إلى أن نشرت اشاعة عنه وعن معلمة لقبتها بخرّابة البيوت ومفسدة الأزواج. حتى الأولاد كانوا يعجزون عن دخول الحمام دون أن تستجوبهم عن أهلهم وأقاربهم. تعرف رواتب المعلمين وأسماءهم وضيعهم.

قلّلت هند من شرب الماء علّ ذلك يعفيها من دخول الحمام. ما إن يغمض جفناها حتى تجفل من القصف. لولا أحفادها أولاد أنطوان لأغمضت عينيها ولتركت النوم يأخذها كما أخذ جبرايل. لكنها تستقوي

لتقف وتستقبلهم هذا الصيف على الأقل، لو يعطيها الرب وقتاً لترى روبير شاباً تعتمد عليه أختاه كاميليا وجاين. صحيح أنها جمعت بناتها وأوصتهن بأن يدعن البيت من نصيب أولاد أخيهن، لكن بالها لم يرتح.

سمعت الأخبار التي نقلت اليهم عن اقتراب الدبابات الاسرائيلية من حدود الضيعة. وكيف تستقبلهم القرى بالأرز والورود. كل لحظة هناك من يقول إنه رآهم في طلعة بيت طانيوس الأجلح أو عند المفرق القريب.

تعلم أن روبير بعيد. لكن كاميليا! صحيح أنها لا تصدّق كل ما يقال لكن وصف صيدا أبكاها وانتزع قلبها من صدرها. قالوا إن رائحة الجيف والقتلى تملأ الطرقات. بنايات كثيرة لم يبق منها لا حجر ولا بشر. التجول ممنوع طوال الليل. في كل حين يُنادى على الشبان عبر مكبرات تجول في الشوارع وتطلب منهم التجمع عند الفجر في مراكز معينة. يبقونهم مقرفصين حتى ما بعد الظهر قبل أن يطلقوا سراحهم ويتأكدوا من هوياتهم. لا أحد يجرؤ على عصيان نداءاتهم خشية أن يؤسر. الدوريات الليلة تطلق النار دون تردد على كلّ ما يتحرّك. قالت هند لابنتها بألا تقلق وأن عدم مجيء متري إلى الضيعة هو من باب الحرص. لا بدّ أنه عند واحد من أصدقائه بانتظار أن تصبح الطرقات آمنة. صرخت أديل كالمجنونة بأن يَدَعوها وشأنها. قلبها غير مرتاح وقلب الأم لا يكذب. عندما دخل فريد الأعرج جارهم ليخبرهم أن الدبابات وصلت إلى بركة الضيعة. انتظروا خروجه وبكوا.

بعدها خرج الناس من مخابئهم. الشبان تجمعوا قريباً من الجنود صافحوهم وهناك من وزّع عليهم شراب التوت، لكن الجنود لم يشربوه. أعطوا الأولاد سكاكر وعلب عصير دون أن يسمحوا لهم بالاقتراب من ملالاتهم.

كل أنواع الهواجس كانت تعصف بهم. لا أحد يذكرها بصوت عال

خشية أن تصبح حقيقة. جاءت ماري التي مكثت مع أخواتها وأمها في الكنيسة القديمة طوال الأيام الثلاثة الماضية. سألت عن متري بتردد. لما علمت أنه ليس في الضيعة بل هو على الأرجح إما في الرميلة أو في صيدا. قالت إن ذلك أفضل. الواشون كثر والله يعلم ماذا سيؤلفون من أكاذيب.

قالت هند لابنتها إنها تريد أن تعود إلى بيتها. غضبت وسألتها: «ألا ترين ما نحن فيه. ألا تكفيني همومي؟ من أين سأجد واحدة تخدمك؟» . زوجها ادوار غمز حماته لتسكت وعاد بعد حين برفقة سعدى.

خشيت هند ألا تجد بيتها. فكّرت أنه لو بقيت غرفة منه لن تغادره بعد الآن. الطيران قصف الكهوف والأنفاق كأن الطيارين حملوا خرائط مفصلة فأصابوها بالصميم. الذخائراستمرّت تنفجر بين الحين والآخر. وجدوا البيت الطيني القديم كومة متداعية. فكرت بالمونة بجرار الزيت والزيتون والخل والنبيذ والعرق البلدي بالمرطبانات التي ملأتها مع جبرايل بالمكبوسات بالزعتر والكشك. ضاع التعب هدراً فكرت دامعة العينين. قوة القصف أوقعت البراد وكسرت الأواني وقذفت أرضاً كل ما على الرفوف. أغراض كثيرة تبعثرت في الحاكورة.

عندما أرادا حملها إلى الفراش بعد نفضه من الزجاج. اعترضت وطلبت عصا. اتكأت عليها، غير مبالية بقدميها الواهنتين المرتجفتين ولا بألم حوضها. وقفا قريباً منها لسندها إن وقعت لكنها استمرت في نقل قدميها كأنها تتعلّم المشي من جديد. وبعد خطوات طلبت من سعدى أن تقرّب كرسياً، دفعت جسدها فوقه ببطء. قالت: «الآن سنشرب قهوة. اجلس يا ادوار.»

نظرت إلى أرض الحاكورة وقد امتلأت باللوز وبالفاكهة الفجّة، حتى الأوراق لم تبق فوق الأغصان. كانت تقلّب ما ستقول في رأسها ولا تدري كيف تفاتحه لتطلب منه بأن يأتيها بأبن المختار المحامي. تريد أن تبيع

البيت والمرج حوله لروبير وأختيه. كيف تفعل ذلك دون أن تجرحه. سيسألها إن كانت لا تثق بوعد بناتها لها؟ لو كان متري هنا لأنقذها من هذه الحيرة.

- 48 -

مضى على وجودهم في الكاراج عشرة أيام. كانوا أربعة، متري ومنذروعصام وشوقي. أخفى وسام خبر وجودهم عن أخوته وأمه. والده فقط عرف. كان الأب في البيت وحيداً عندما جاؤوا برفقة ابنه وسام. الآن بعد أن عادت الأم مع الأولاد من عند أختها صارت حياتهم شاقة. فكّروا أن يخرجوا وليحصل ما يحصل. لكن أخبار الاعتقالات أخافتهم. الحظّ نجّاهم من أن يقتلوا فوق التلة. قبل دقائق من الغارات المتلاحقة طَلب منهم الانسحاب عن تلك التلة والتوجه إلى المركز. ناموا بين الأشواك فيما الطيران يقصف التلة. لا يذكر أي منهم كيف وصلوا إلى بيت وسام في مجدليون ولا أي طرق وعرة سلكوا. الحر شديد في الكاراج والأغراض القديمة مليئة بالحشرات وبالعث. يكتفون بغسل وجوههم. الماء قليل والحمام العربي يبعث روائح مقرفة. اعتادوها مع الوقت كما اعتادوا أن يتحرّكوا عندما يشتد الضجيج وأن يلتزموا الحذر بدءاً من المساء. يستخدمون البطارية عند الحاجة القصوى فقط. باستثناء ذلك يبقون في العتمة. أكلوا كل شيء. الخبز الحاف، العدس المسلوق، الباذنجان والكوسى نيئاً. كان يصعب على وسام أن يأتيهم بالطعام دون أن يثير انتباه أمه، خصوصاً وأن معظم السلع لا يزال مفقوداً ولا ماء ولا كهرباء. كأنها تعدّ ما في البراد لذلك تسأل مستغربة «ألم يكن في البراد خمسة أرغفة؟»

المشكلة الثانية التي دفعتهم للتفكير بضرورة الخروج من مخبئهم، هو مداهمة الاسرائيليين لبيوت رفقاء وحزبيين آخرين. ماذا لو أتوا بحثاً عن وسام سيجدون أربعة آخرين. تجنّب وسام الخروج من بيته. عندما يأتيهم زائر يتوارى عن الأنظار ويدعي أهله أنه عند جدته في قرية الحمصية. ظلّت أمه تكرّر عليه: «هل كان من الضروري أن تشغل بالنا؟ماذا استفدنا من السياسة؟» لكن والد وسام يسكتها فتتهمه بأنه المسؤول عن زرع تلك الأفكار في رأس ابنه من الأصل.

رتبوا الكاراج على قدر استطاعتهم. أبعدوا الخرانة القديمة إلى الزاوية. وضعوا فيها ما كان في الكاراج من كتب مدرسية ودفاتر علامات وألبومات صور بالأبيض والأسود. من الثياب القديمة استخدموا تلك العائدة للأب، إذ رغم رائحة الغبار المنبعثة منها تظلّ أفضل مما يرتدونه منذ أيام. غسلوا ملابسهم في الحمام العربي منتبهين لتجميع ماء الغسل من أجل استخدامه. رغم ذلك بقي المكان ضيقاً بوجود براد صدئ ودراجات خربة. قال وسام لولا خوفه من لفت النظر لكان تخلّص منها. والده هو من قرّر أخيراً أن يخرج غرضاً كل يوم في أول العتمة. يضعه في سيارته ليرميه لاحقاً في المكب.

احساسهم بالهزيمة قرّبهم من بعضهم، هم الذين لا يجمعهم إلا الحزب. حلم متري بالعودة إلى الضيعة، تخيّل النسيم البارد، السماء الفسيحة. رائحة الزعتر والطيون في الحقول. تذكّر وجه زينب. أحسّ برائحتها حوله، أنسته رائحة العفن والغبار والعرق. مهما فعل لم يفلح في أن ينساها. الآن صار بينهما فجوة لا يمكن إصلاحها. كسر قلبها وآذاها. خسر كلّ شيء، حبّه أحلامه، حتى عقائده تزعزعت. لا شيء سوى المجهول وعيشة الكلاب التي يحياها مختبئاً هكذا. يظلّ رفاقه يتكلّمون عن مؤامرة وإلا كيف تصل اسرائيل دون مقاومة تذكر إلى العاصمة. كل

يوم يعيدون الكلام نفسه. يفكّرون بمصير رفاقهم. وسام مثلهم لا يعرف إلا ما تنقله الاذاعات. الصحف لا تصل إليهم. قال إن القوات اللبنانية انتشرت في كل القرى المسيحية وقريباً ستترك لهم اسرائيل مهمة تطهير القرى من فلول الحركة الوطنية وأحزابها. من تأسره اسرائيل قد يبقى حيّاً على الأقلّ. أما من تعتقله القوات فالعوض على الله لن يعود.

عندما يريد وسام أو والده رفع باب الكاراج الحديد كانا يدندنان فيتكوم الشبان في الزواية رافعين غطاء قطنياً فوقهم. الكاراج يطلّ على التلال المحيطة بمجدليون، أقرب بيت يبعد عنهم مسافة دقائق مشياً. يسمعون منه جلبة الأولاد يلعبون وهدير سيارة الأب العائد من عمله، وبعض الأحاديث في سهراتهم التي يحلو لهم تخيّلها تحت عريشة تتدلّى منها عناقيد كالفضّة.

أخبرهم وسام إن عليهم مغادرة الكاراج، هو نفسه سوف يبتعد فترة ويبقى عند جديه في الحمصية. هناك كلهم أقارب له ولن يؤذوه. القواتيون هنا، قال، معظمهم غرباء عن المنطقة. متري كان أول الخارجين. أتاه وسام بقميص نظيف دهن حذاءه ومزّق كلّ أرقام الهواتف التي يحملها. نظر إلى صورة زينب المخفية في جيب مخفي في المحفظة ثم أعادها مكانها. لم يبق معه إلا النقود التي يحملها وبطاقة هوية عليها صورته وهو في الصف الخامس الابتدائي. كان على كل واحد بعدها أن يخطط للطرق التي سيسلكها، في السيارة أو مشياً، لتفادي بعض الحواجز. قال متري إنه يفضّل سلوك الطريق الجبلي رغم طوله. القرى التي يمرّ بها لا أحد يعرفه فيها عكس صيدا. لكن وسام أسكته قبل أن يكمل قائلاً أن ليس عليه أن يكشف كل شيء. لا أحد يعلم بما يعترف أحدهم إن اعتقل وعُذّب. هكذا سكت الجميع وتهيّأ كل منهم على طريقته للخروج عند الفجر.

قلّة البنزين صعّبت تنقل متري. لا يذكر كم سيارة أجرة ركب. تجنّب

السيارات الخاصّة حتى لو أصرّ عليه أصحابها. لم يرد أن يُسأل لا عن اسمه ولا عما أتى به إلى المنطقة. كان يكفيه تطفّل السائقين العموميين. رغم القلق، فرح بالقرى. أشجار الخوخ والكرز والمشمش تضوي تحت الشمس. غابات صغيرة من الصنوبر تطلّ عند مفرق فيرتاح في الفيء. يخلع حذاءه وجواربه لتهوئة أصابعه المحمرة. عند ساقية ري اغتسل من الغبار وشرب غير آبه بكونها لسقاية الجلول لا للشرب. رأى قطيع ماعز يركض بين الجلول، الأجراس في رقابها ترنّ فتحمله إلى بيت جديه. قلبه ثقيل وأفكاره مشوّشة.هل نجت جدته؟

الجوع آلم بطنه وأكل الفاكهة زادها خواء ومغصاً. في صفاريه رأى من بعيد حاجزاً اسرائيلياً كرّر في رأسه الحكاية التي سيسردها في حال سئل عن وجهته. لكن أصعب شيء واجهه ليس خوفه منهم بل إحساسه أن العالم كما كان يعرفه انتهى وبدأ عَالَمٌ آخر لا مكان له فيه.

لم ينتبه وهو يدخل إلى مستشفى الحريري. وجد نفسه وسط زحمة من المسعفين يجرون مصاباً يصرخ فوق نقالة. قدمه اقتلعها لغم أرضي. توجه متبعاً السهم إلى الكافيتيريا. شمّ رائحة البطاطا والكفته. التعب والجوع استبدا به فرمى جسمه فوق كرسي. لم يأكل طبقاً فعلياً منذ أكثر من أسبوعين. أكل مزدرداً ما في صحنه في لحظة. شهيته لم يفسدها ما سمع الناس يحكونه عن مرضاهم وعن نقص الأدوية وعن الصليب الأحمر الذي لم يتمكن من تأمين وحدات الدم.

في الحمام خلع قميصه، اغتسل وارتاح لدقائق جالساً فوق كرسي المرحاض. مشى نصف ساعة في شمس حارقة. لا شيء يحميه سوى محرمة ورقية ثبتها فوق رأسه ممسكاً إياها بيده. شاحنة صغيرة توقفت قربه سأله سائقها عن وجهته. عندما قال له أجاب بأنه واصل إلى روم ومن هناك يتدبّر أمره. الشمس جعلته يركب معه. السائق في أوائل الثلاثين.

بعد أن عرّف عن نفسه سأل متري عن اسمه. لم يستطع أن يكذب خشية أن يوقفهما حاجز ويكشف كذبته. سأله عن عمله عما جاء به إلى هذه الأنحاء. بعد هذا الاستجواب حكى عن محله وعن البضائع الاسرائيلية الأكثر رخصاً، عرض عليه صنادل من الجلد الأصلي هي معه في الشاحنة، علب مارلبورو طازجة، كولونيا أصلية. قبل روم طلب منه أن ينزله. ادّعى أن لديه قريب يودّ أن يعرِّج عليه. التفت السائق إلى الأنحاء المقفرة وقال مستاء: «كما تشاء».

حواجز وسيارات وقرى حتى وصل إلى الدير ورأى روبير. لم يعرفه من بعيد. استغرب تبدّله هكذا وبهذه السرعة؟ منه علم أن أهله قلبوا الدنيا بحثاً عنه حتى نصحهم أحد الرفاق ألا يلفتوا النظر إلى الأمر وأن متري سيظهر بين يوم وآخر. خير لهم أن يتصرفوا كأن كل شيء عادي. العيون مفتحة عليهم قال.

أخبره عن كاميليا وعن ميشال الذي مرّ به بعد الاجتياح وعن جدته التي بأعجوبة استرجعت قدرتها على السير والحركة.

أشاح متري بوجهه كي لا يرى روبير الدموع التي طفرت من عينيه رغماً عنه. سأله إن كان يريد أن يرافقه. قال روبير إنه سيفعل في آخر الشهر حين يحقّ له بعطلة.

جلسا تحت صفصافة في مدخل الدير. نسي متري فارق السن بينهما وأخبره عن رفاقه الذين اعتقلوا وأولئك الذين قتلوا وهم يقاتلون غير دارين أن الجميع ألقى سلاحه واستسلم. كان بحاجة لأن يحكي مع أحد. عندما نهض روبير ليكمل ما كان يقوم به ساعده متري في نكش الجلول وفي رش البزور في الأثلام. غرسا شتول البندورة وبعد سقايتها جلسا في برودة العصر عند طرف الجل. أحسّ متري لأول مرة منذ سنة بالهدوء. نفض التراب عن ثيابه، غسل يديه.

فكّر أنه مشتاق إلى بيته. إن حالفه الحظ سيصل قبل الليل.

- 49 -

تبدّلت هند بعد وصول كاميليا وروبير. أحسّت كأن الله منحها فرصة ثانية. وجدت القوّة مجدداً لتحرّك جسدها. صحيح أنها تتكئ على عصا لكنها ما عادت تحتاج مساعدة في الدخول إلى الحمَّام أو التنقّل. منذ عودتهما انشغلا في أصلاح ما خربته الغارات. وضعا أكياس نايلون فوق النوافذ المكسورة. سدّا الفجوة في غرفة الوجاق بحجارة من الحقل ثبتاها بالباطون، أصلحا الخزائن والأباجورات المخلّعة. رفعا العرائش فوق السقالات. ما تبقى من ركام البيت الطيني جُمع في الرفوش ورُمي بعيداً عن البيت. كان هذا الفراغ غريباً بالنسبة اليهم. ظلوا يتأملونه في جلساتهم المسائية كأن البيت سيظهر من بقايا الردم. تجنبوا النظر أو التجوّل جهة المراكز والمواقع التي قُصفت. لا لأن هناك قنابل غير منفجرة كما قيل لهم بل لأن ما سمعوه ملأهم حزناً. كلهم تمنوا أن تكون تلك الأخبار شائعات. ربما حاتم وعيسى وأبو الفهود وخالد لم يقصفهم الطيران وهم يهربون في الوادي بين الضيعتين. وحازم وجهاد لم يعتقلا على أحد الحواجز متنكرين في ثياب نساء.

البيوت القريبة منهم لا يزال معظمها خالياً. سكانها لم يعودوا بعد من بيروت الشرقية. طلبت هند من حفيديها تثبيت أبواب هذه البيوت كي لا تدخل إليها الحيوانات والحشرات. لكنهما لم يتمكنا من اصلاح النوافذ التي طارت اطاراتها بعيداً في الحقول.

أرسلت هند تطلب جاين. تركتها عمتها برناديت في المروج على

مضض. جاين أيضاً دمعت وتشبثت بها حين همّت بالذهاب. خجلت جاين من أخويها وكانت تردّ على أسئلتهما محنية رأسها كأنهما غريبان. خففت عنهما جدتهما بالقول إنها مستغربة فقط وستعود إلى طبيعتها تدريجاً. ليلاً أفاقت باكية مطالبة بعمتها. كأن برنايت حدست من تلقائها فجاءت باكراً ثم لحق بها زوجها بعد عودته من عمله. كلاهما افتقداها وعجزا عن النوم وهي بعيدة عن البيت. هكذا استمرا على المنوال نفسه طوال بقاء جاين عند جدتها. صباحاً كانت برناديت تأتي ببعض الأشياء للطبخ أو للتنظيف. بعد الظهر يأتي زوجها يتغدى معهم ويلاعب جاين. غالباً ما يحمل لها لعبة أو أكلة تحبّها. في العطل يمكثان في المروج غير آبهين بالنوم فوق طراحة على أرض المصطبة.

لاحقاً انضمّ اليهم متري. بقي في الأيام الأولى متوحّداً يقضي يومه ماشياً إلى الضيعة القريبة بحجة شراء الخبز أو الدخان. لكن روبير استدرجه مع الوقت ليشاركهم في النكش والزرع والسقاية. ماجت الجلول بالبامياء واللوبياء والفاصوليا والملوخية والبندورة واللقطين والقرع والكوسى والمقتة والخيار والبقدونس والباذنجان. قالت هند: «كأن جبرايل معنا».

هرب البيارتة من بيروت الغربية التي حاصرتها القوات الاسرائيلية فامتلأت القرى بهم. كان زوج برناديت يتكفّل ببيع ما زاد عن حاجتهم في القرى والبلدات القريبة. ما كان يرافقه متري. تجنّب المرور بالحواجز واختفى عن الأنظار كما نصحه جورج فايد. رغم خلافهما في الماضي قدم إلى بيت متري برفقة مسؤول القوات في الضيعة ليقول له إنهم أقارب وأولاد ضيعة واحدة وأن كثيرين قد يبلّغون الاسرائيليين في شأنه وخير له أن يبتعد لفترة.

الأخبار التي وصلته عمّا حلّ برفاقه أقنعته، أن ليس بامكانه أن يختفي. إن أرادوا اعتقاله لن يعصى عليهم معرفة مكانه. الأمر الوحيد الذي يطمئنه

هو أنه لم تكن له صلة مباشرة بالفلسطينيين. كل المخبرين لدى اسرائيل هم من المنظمات الفلسطينية أبلغوا عمن يعرفونه في أحزاب الحركة الوطنية. لكن ماذا سيفعل متى بدأ العام الدراسي؟

الشمس لوحتهم بأشعتها فالتمعت أجسادهم بسمرة نحاسية وقويت. صارت جاين تجلس عند طرف الجلّ لتراقبهم يعملون أو تجبل التراب بالماء لتصنع أوعية وقدوراً شبيهة بالأوعية الفخارية. أحياناً تساعدهم بقطف الخضار رغم أنها تختار منها ما لم ينضج، تقطف زهرات الكوسى وتصنع منها باقات توزعها عليهم.

الكهرباء أُصلحت في بعض المدن كصيدا. عندهم لا تزال مقطوعة. معظم ما يطبخونه من يخاني يطبخونه من دون لحم. بدل الأرز يفلفلون برغلاً. الماء يبقى بارداً في الجرار. ليلاً تخفّ حدة الحرارة فيجلسون في الخارج. لا يسمعون سوى صوت الزيز. يشوون حمصاً أخضر برمي باقات منه في النار. يورقون الملوخية أو يصنعون عقوداً من الباmياء لتجفيفها في الشمس والهواء. يشعلون الغار واكليل الجبل لابعاد البرغش. يخبرهم زوج برناديت ما سمعه في عمله، برناديت تحكي عما قالته أو فعلته جاين كأنها نابغة. أما متري وروبير وكاميليا فأحاديثهم تتمحور حول الخضار التي نخرتها الدودة أو تلك التي هاجمها النمس كأنهم مزارعون حقاً.

فوجئوا حين رأوا ثلاث راهبات يسرن فوق الطريق الترابية باتجاه بيتهم، كاميليا ركضت لتغتسل كي لا يشاهدوها بتلك الهيئة الرثة، وبرناديت أسرعت لتنفض الصوفات وترتبها. خافت هند في سرّها أن يكون الأمر متعلّقاً بعدم قبول كاميليا خلال العام المقبل. لذلك ظلّت متحفزة طوال فترة بقائهن. أصرّت هند على أن ينادى السائق الذي ينتظر في السيارة. أعدوا برغلاً ببندورة وتبولة وقلوا باmياء وملوخية، اعتذروا لعدم توفر اللحوم، فردّت المديرة أن الطعام وافر وطيّب. لم تهدأ هند إلا

حين سمعت الأخت كلود تقول إنهن زرن بناتهن مؤخراً للاطمئنان عليهن وعلى عوائلهن، ثم نظرت جهة كاميليا وأخبرتها أن جاكلين ستتزوج في الخريف من نسيب لها يعمل في البناء. حزنت كاميليا وفكّرت بأحمد حبيب جاكلين، أيكون والدها أرغمها على الزواج؟

حكت المديرة عن الدير والاصلاحات التي ستطول فيه، عن العام الدراسي الذي سيتأخّر. لكنها أردفت أنها تتمنى عودة كاميليا إلى الدير في أواسط أيلول لتساعدهنّ في تهيئة الدير للعام الدراسي. عندما سألها متري باستغراب: «ألم تذكري أن المدرسة لن تفتح إلا في أواسط تشرين الثاني؟» نظرت إليه طويلاً قبل أن تردّ: «مسيو متري كاميليا ابنتنا والدير عائلتها، هي ليست غريبة. نحن عائلة روحية للبنات نتكاتف في الشدة.» مع أنه لم يفهم شيئاً سكت بعد أن سددت جدته نحوه نظرة ذات معنى. زاد من غيظه كلام السائق في السياسة. لكن المديرة أسكتته بحزم لتقول: «أبو يوسف لا أحد منا يهتمّ بالسياسة، انظر حولك واستمتع بهذه الجنة». الأخت مونيك التي ما نبست بكلمة قالت مشيرة إلى زهرة: «هيدا مين؟»

-«ديك الجن». أجابتها برناديت مبتسمة. كاميليا أيضاً التي تسمع الراهبة تتكلّم بالعربية لأول مرة نظرت إليها بحبّ كبير، وتذكرت تسللهما للعزف على البيانو.

لم تنته الزيارة إلا عند العصر. طلبت هند من أحفادها أن يقطفوا خضاراً للراهبات. رغم اعتراضهن بدون سعيدات وهن ينظرن إلى صندوق السيارة وقد امتلأ كأنه حديقة. عندما رحلن همس متري شيئاً عن جشع الراهبات وسأل: «ألا يكفيهن الأقساط التي يسرقنها من جيوب الناس؟» جدته لم تعجبها ملاحظته وقالت شيئاً عن رأفتهن بالبنات وتعليم المحتاجات مجاناً. ابتلع ما أراد قوله، مفضّلاً عدم إغضابها. تعليقاته مريرة وحادة في الآونة الأخيرة. لم يكن جارحاً هكذا في السابق. الآن كل كلمة يقولها تقطر سمّاً.

في الأماسي تقول جدته إنها تتمنى أن تستمرّ الحياة هكذا. يفكّر هو الآخر أن لا بأس بهذه الحياة. العمل في الأرض حرّره من بعض الضغوطات، التعب يجعله ينام حتى الصباح دون أن يحسّ لا بالحر ولا بلسع البعوض لكنه لا يحميه من مناماته. يستيقظ منها مهزوماً، فيخرج ليجلس في الحاكورة. أضواء قليلة تظهر في القرى المتوزعة فوق التلال والجبال البعيدة. أحياناً تفزعه جدته وتفاجئه باستيقاظها قبله. تكون مستندة إلى السياج دون حركة. تقول إنها نهضت لتوها لكنه لا يصدقها. صار عندما يقلق يعلم أنها هناك فلا يجفل من حركتها ولا يتبادلان الكلام الكثير. أخبرته بعزمها على بيع البيت صورياً لأحفادها، أولاد ابنها. قال إن فكرتها جيدة. قبل أيلول أتمت البيع وأوكل متري أحد معارفه بتسجيل العقد في الدوائر العقارية. باعت عقداً قديماً هدية من جبرايل أول زواجهما لتسديد التكلفة إضافة لما كانت تضعه جانباً.

مع بدء أيلول برد الهواء، مساكب الزرع فرغت إلا من بعض البصل. دبّ اليباس في المرج حولهم. ثقلت حركة هند مجدداً. جاين عادت مع عمتها. أما روبير وكاميليا فاستغلا ما تبقى من العطلة للقيام بالأعمال الصعبة المتبقية كتجفيف التين وصنع ربّ البندورة وقطف الجوز والصنوبر. جاء متري بمن يصلح النوافذ فيضع الزجاج بدلاً من النايلون. امتلأت البيوت القريبة مجدداً بساكنيها.

قبل أن يرحل روبير وكاميليا دعت هند بناتها وأحفادها لقضاء النهار في المروج. جاءت برناديت وجاين وأديل مع ابنها روجيه. الآخرون قالوا إنهم مشغولون. روز وتيريز لم تأتيا. عتبتا على أمهما لأنها تخلّت عن البيت لصالح أولاد أخيهم المرحوم. قالتا إنها لو قدرت لتركت الأراضي لهم أيضاً. لكن الحمدلله أن البيت فقط كان مسجلاً باسمها. قالتا الكثير عن كونهن بنات وحقوقهن تُهدر كالعادة. رغم ما وصل هند من كلام

على لسان ابنتيها تظاهرت بأنها لم تعرف. لم ترد أن تخوض في مثل هذه الأحاديث. لا تريد أن تذكرهما بأنه لولا أنطوان لما أكملا عمار البيت وتوسيعه ولا كان لديها كل هذه الأراضي.

أعدت أديل فروجاً محشياً كما يحبّه متري، وبرناديت صنعت قالب حلوى بالشوكولا. أما كاميليا فابتكرت لهم أكلة جمعت فيها ما توفّر من خضار وأضافت لها عدساً. جلسوا حول الطاولة. صبّ متري للجميع عرقاً وقال مازحاً إن الشرب الزامي اليوم حتى لكاميليا وروبير وأخيه روجيه. كان يوماً حلواً. أحسّ الجميع بخفته. لم يحدس أحد أن هند ستنطفئ وحدها جالسة فوق افريز الحجر قبالة المرج. وجدها متري حين عاد من جولة المشي الصباحية. كان جسمها لا يزال ساخناً. هزّها ظناً منه أنها غافية. قال «جدتي قومي نامي في فراشك».

لم تفتح عينيها. جلس قربها كأنهما يكملان حديثاً. الجمود سرى إلى جسمه أيضاً. نقاط خفيفة من المطر بللتهما.

- 50 -

بحث ميشال طويلاً قبل أن يجد الغرفة التي استأجرها. لم يرد السكن في القرى التي تتواجد فيها القوات الللبنانية. أمه أيضاً قالت إن قلبها لن يطمئن وهو يمرّ يومياً على كل هذه الحواجز. العمليات ضد الأسرائيليين زادت، ومعها زادت إجراءاتهم قسوة. واحد من العمال في السوبرماركت أخبره عن الغرفة التي استأجرها. كانت في الأصل مخصصة للناطور لكن بما أن لا ناطور للبناية فكّر صاحبها بتأجيرها. وجد الايجار غالياً لكنه لا يملك خياراً آخر. ثلاثمئة وخمسون ليرة مقابل غرفة وحمام عربي. يتبقى

له من معاشه مئتان وخمس وعشرون ليرة. الغرفة واسعة ولها شباك يطل من جهة الشرق على بستان حمضيات صغير.

اشترى صوفا، يفتحها ليلاً ويحولها إلى سرير. اشترى أيضاً طاولة وغازاً برأسين. أمه أعطته وسادة ولحافاً وما يحتاجه من أوعية للطبخ والأكل. زياراته للضيعة اقتصرت على الأعياد فقط.

ما أراحه في سكنه هو بعده أيضاً عن سكان المبنى. للوصول إلى غرفته عليه أن ينزل بضع درجات. الشيء المزعج هو صوت المصعد. يحب الهواء القادم من جهة البستان والعصافير المغردة فوق أغصان شجراته طوال النهار. معظم أوقاته يقضيها خارج شقته في العمل. يعطّل يوم الجمعة فقط. يستغل عطلته للذهاب إلى الجامعة.

في البداية انقطعت علاقته برفاقه القدامى. الجميع أخذ حذره بسبب الواشين وبعض الجواسيس المنتشرين في كل مكان. في الشارع الذي يسكنه فتح واحد من جماعة انطوان لحد متجراً لتغطية أعماله الاستخبارية. علم ذلك من حمزة الذي اختبأ في شقته لأكثر من عشرين يوماً. طُلب منه الاختباء إذ ورد اسمه في التحقيق مع رفيق لهم أخلي سبيله بعد احتجازه لأسبوع.

قبل خروجه من بيت أهله أتلف حمزة كل صوره حتى تلك التي كان فيها طفلاً. استخدم بطاقة مزورة. عندما يعود ميشال من عمله، يخبره حمزة بما جرى في غيابه. مرة حدثت عملية للمقاومة الوطنية ضدّ دورية اسرائيلية راجلة. جاء المسلحون من جهة البستان. قال إن الأسرائيليين أغلقوا الشارع ومشطوا البستان بقذائف كالمطر. طلبوا من الشبان والرجال التجمع. اختبأ في الحمام منتظراً اقتحام البيوت للتفتيش عمن عصا أوامر التجمع. لكن حظه شاء ألا ينتبهوا للغرفة. سمعهم وهم يصعدون ليتمركزوا على السطح لساعات. قال إنه فتح النافذة وباب الحمام لتبدو الشقة فارغة.

أكثر من أربع ساعات وهو مقطوع الأنفاس خلف باب الحمام.

بعد عمليتين في الشارع فضّل حمزة البحث عن مكان آخر. تحمّل طوال مكوثه النوم فوق شرشف رقيق أرضاً. عندما يذهب ميشال إلى العمل كان يقوم لينام مكانه فوق الصوفا. يأكلان عدساً مسلوقاً وحلاوة بالطحينة في العطلة. أما خلال الأسبوع فيأكلان الخضار المطبوخة. هي الأرخص بما أن المحاصيل كاسدة، لا يقوم المزارعون بقطفها حتى. أحياناً كانا يرتجلان طبخات لا تؤكل قوامها غالباً الخضار والحبوب. رغم أن وجود حمزة أثقل على ميشال لكنه افتقده حين رحل. منه علم أن نجمة تزوجت. الخبر لم يغيّر شيئاً فيه. ظلّ يحلم بلقائها. في السوبرماركت حيث يعمل، أو في الشارع. في طريقه إلى الجامعة يتخيل أنه يراها كلما لاح خيال يشبهها بشيء من بعيد.

في الشارع الذي يسكنه انتبه إلى أن البقال يحذره. ما إن يدخل حتى يقفل موضوع الحديث الدائر بينه وبين الزبون الآخر. صاحب محل الأحذية يرمقه مرتاباً. عندما يدفع الايجار يفهمه صاحب البناية، من دون مناسبة، أنه طوال عمره من الكارهين للأحزاب والسياسة. استغنى عن الشراء من البقال وبات يمشي إلى شارع بعيد عنه ليشتري لبناً.

مع تزايد العمليات العسكرية كثر الزوار إلى شقته. لم يرفض مكوثهم عنده رغم ضيق المساحة. أعطي مالاً ليشتري فراشين. لم يكن يعرف الجميع. يكتفون بذكر اسم من أرسلهم ويبقون عنده أياماً ثم يرحلون ليأتي غيرهم. منهم من يحمل مالاً ويطلب منه أن يشتري الدجاج المشوي أو اللحم وآخرون معدمون بثياب لم تُبدّل ولم تُغسل منذ أسابيع. هكذا بات اللحام وبائع الدجاج وكل دكان في الحي يعرفه، لكن الجميع عاملوه بحذر شديد. ما عاد يجد وقت فراغ لمراجعة المحاضرات مساء. ينام جالساً بينهم في العتمة. يسهرون حتى الصباح كأنهم يخشون الليل.

يترصدون كل حركة في الخارج. ما فاجأه هو معرفتهم بأسماء الساكنين في المبنى.

كثيرون من رفاقه أُسروا. الرجال منهم والنساء إضافة إلى من يخبئهم. «عميل لحد» أوقفه مرة في الشارع بحجة سؤاله عن بيت حداد. أجاب ميشال مسرعاً إنه لا يعرفهم، تحجّج بمحاضرة تأخر عنها. طوال الطريق ظلّ يحاسب نفسه على زلة لسانه. بامكانه أن يعرف عنه الآن كل شيء بالنظر إلى ملفه في الجامعة. في سره كان يهيئ أجوبة مقنعة على الاستجواب الذي قد يخضع له. استرجع الأخبار التي سمعها عن ضرب المعتقلين وتعذيبهم. أكثر ما يخيفه هو الأسر بحد ذاته لزمن لا يعلم أحد نهايته.

في الجامعة التقى بصونيا. منذ زمن لم يلمحها. وجدها مختلفة. هذه المرة توقفت وتكلمت معه لم تهرب منه. قال لها: «خسرت وزناً ملحوظاً».

-«تعرف، التعب والركض طوال النهار.»

-«ألا زلت في مكتب الأستاذ بيضاوي؟»

-«يعجبني العمل لديه، يحسن معاملتي ووعدني أن أتدرّج في مكتبه. إذا أردت أحكي لك مع محام له مكتب محاذ لنا وأعرفه. سنة ونتخرج. عليك أن تفكّر منذ الآن.»

-«لا أدري. التدرج يعني أن عليّ التوقف عن العمل. وكيف أدفع مصاريفي وايجاري؟»

-«صحيح أن المبالغ التي تعطى للمتدرجين قليلة. لكن بامكانك البحث عن عمل لا يأخذ منك وقتك كاملاً.»

مشى جنبها فأخبرته عن ماري التي صارت بعد الليسانس تعلّم التاريخ للصفوف الثانوية في المدرسة الخاصّة. بينما تحكي انتبه إلى تبدّل طريقة لباسها، إلى عينيها اللتين لا تنظران إليه مباشرة. تذكّر خَجِلاً جفاءه المفاجئ لها دون عذر أو أي مصارحة. فكّر كيف أنه في ليلة واحدة نسي حبّه لها

وتلاشت صورتها لتحتل نجمة كيانه.

وقفا في ظلّ شجرة خارج البوابة. سألها عن متري وأختيها الأصغر، عن الشباب الذين عادوا إلى الضيعة بعد الأحتلال. لم يرد أن ينتهي لقاؤه بها، ربّما لأنه اشتاق لأمه وللضيعة. سألته لماذا لا يزور الضيعة. قال إنه لا يوجد سبب. ابتسمت وقالت شيئاً لم يتوقّعه: «تألمت كثيراً عندما... كان بامكانك أن تكون صادقاً معي. هل ظننت أنني سأرغمك على ما لا تريده؟»

احتار فلم يقل شيئاً. بقي واقفاً ينتظر أن ترفع وجهها ثانية. قالت شيئاً عن عملها ثم صافحته ومضت ملوّحة بمظلتها.

- 51 -

أُغلق الدير والمدارس القريبة بسبب موجة الصقيع والثلوج التي تراكمت على نحو غير مسبوق. عشرات ماتوا وهم محاصرون بالثلوج داخل سياراتهم.

التدفئة محصورة بغرف معيّنة، لذلك أحسّ روبير أن قلبه سيتوقف كلما دخل الكنيسة أو مكان نومهم. اللحاف بثّ صقيعاً لا دفئاً. ملمسه البارد بعث قشعريرة في بدنه لم تزل. لم يكن الوحيد الذي لا ينام، رفاقه أيضاً كانوا يخرجون من فراشهم ليقوموا بحركات رياضية علّ حرارة جسمهم ترتفع. أسنانهم تصطك، أصابعهم تتورّم. لبسوا بيجاماتهم تحت بنطلوناتهم انتعلوا أكثر من جورب في كل قدم. تناحروا وتنازعوا في ما بينهم للعمل في المطبخ قريباً من الأفران. من النوافذ بانت الجلول

رمادية اختلط ترابها بطبقة كثيفة من الثلوج. في الأيام الأولى قام بتقطيع الحطبات الكبيرة في المستودع ورصفها لتحتلّ ربع المكان. جهد دفأه وشغله عما فيه. الشهور الماضية مرّت ثقيلة عليه. ماتت جدته، سندهم الأخير. أحسّ أنه معلّق في فراغ هائل. لا أهل ولا أحد. أخبرته عمته أديل عن بيت جديه الذي ترك له ولأختيه. تمنّى لو يكبر ويجتاز صفوفه الثانوية بسرعة. في الدير استمرّ باعطاء دروس خصوصية. جمع أكثر من مئة ليرة خبّأها في مكان بعيد عن رفاقه في الداخلي. كثيرون منهم يسرقون كل ما يقع تحت يدهم، حتى الجوارب والثياب الداخلية يفكون الأسم المطرز عليها ويدّعون أنها لهم. تذكّر روبير جدته وهو ينتعل الجوارب الصوفية التي حاكتها له في سنته الأولى. كانت واسعة ويربط أعلاها كي لا تفلت. اشترى لكاميليا كنزة صوف زرقاء. أوصى عليها أحد تلاميذ الخارجي بعد وعده بكتابة فروضه على مدى أسبوعين. الكنزة الأولى لم تعجبه أما الثانية فوجدها مناسبة. أزرارها على شكل ورود نحاسية. ظلّ يسأل «الأبونا» متى سيقصد صيدا، فيردّ عليه في كلّ مرة أن جزين أقرب وأرخص، وأكثر أمناً لكن إن ذهب سيأخذه معه. لقاء ذلك كان ينفّذ كل طلباته. يساعده في حسابات التموين وفي افراغ الشاحنة وتحميلها، وفي تشحيم ماكينات المشغل وتوضيب ما في الأقبية، وأشغال أخرى إضافة إلى جدول مهماته اليومية.

من أمه وصلهم على مدار السنوات الماضية بضع مئات من الدولارات، كانت جدته تحتفظ بها. بعد موتها أودعها مع عمته أديل. قالت له إنه حين يبلغ الثامنة عشرة سيكون بامكانه فتح حساب مصرفي. لم تعرف أمه بعد بوفاة جدته. في الصورة التي أرسلتها لهم بدت مختلفة بابتسامتها المرتبكة وتموضعها الغريب لأخذ الصورة كأنها لا تعرف ماذا تفعل بذراعيها. كتبت لهم عن زوجها الذي تسميه «عمكم». تسمية أغضبت كاميليا ودفعتها

للقول «نحن لا عمّ لنا». لا يحسّ روبير بالغضب كأخته، يحاول كلما قرأ الكلمات أن يسترجع وجهاً لأمه يذكره جيداً. حتى الأخ الصغير، الذي تفرح أمه بارسال صورة له في كلّ مرة، يذكّره بجاين. الابتسامة المواربة نفسها عند طرف الفم والرموش السوداء الكثيفة والأنف الدقيق نفسه.

منذ عودة راجي من عطلته في البقاع وروبير يستيقظ بسببه من عز نومه. ليس شخيره السبب كما جرت العادة بل قلة نومه. كان شخير راجي ينيّمه، وهو الآن ربّما يفتقده. لم يحاول روبير استدراجه للكلام. يعلم أن لكلّ واحد قصة وإلا لما كان في الدير. لكنّ القصة التي أصرّ راجي أن يأتمنه عليها بدت له غريبة وظنّ إلى حين أن راجي ألّفها. قال إنه في الصيف الماضي بينما كان عند عمه كالعادة في البقاع، تعرّف على شبان من عمره أخبره أحدهم أن والده لم يمت في معركة شتورة. سمع من أهله أن عمّ راجي قتله لخلاف على إرث أرض، ثم طمره مدعياً أن أخاه مخطوف. قال راجي إنه حاول تعقيل نفسه مفكراً بأنها ثرثرة لا أكثر. فكّر بكل الاشاعات الكاذبة التي يطلقونها على بعضهم وعلى أقاربهم حتى، لم ينفع الأمر بتهدئته. صار يتشاجر مع عمه ويتهدّد بفضحه فيردّ عليه عمه غير فاهم ما يقصده، وبأنه يعضّ اليد التي امتدّت لمساعدته ولايوائه، ثم ينعته بالكلب الناكر للجميل. في آخر مشادة بينهما طرده عمه من البيت وأقسم ألا يدخله بيته ثانية. قضى الأيام التي سبقت عودته إلى الدير مشرّداً. نام ليلتين في الحقول ومرة عند واحد من رفاقه إلى أن أنّبته أمه وقالت إن بيتها ليس ميتماً للشحاذين. لا يستطيع أن ينسى ما سمعه، وأن قلبه ينبئه أن عمّه طمّاع يفعل أي شيء من أجل القرش. ألم يسمم لعنزات جارهم الفقير لأنها كانت تتسلّل عبر السياج إلى أرضه وتأكل الأغصان؟ ثم كم مرة رآه يجلد زوجته أو يرميها بمقلاة أو إناء إن أغضبته، هو أيضاً كم ضربه بحجة التأديب وحسن التربية؟ حتى أولاده لا ينجون من أذاه. ذكّره روبير

بالماضي القريب، وكيف كان يرى عمه بصورة مختلفة. وأن هذا الشاب كاذب. أفسد حياته وزرع في رأس بزرة شرّ. ماذا سيستفيد من تصديق قصة ملفقة كهذه؟ كل الكلام لم يهدئ راجي. صار يتوعّد بترك الدير لقتل عمه والثأر لأبيه. سيهرب ولن يعرف أحد أنه هو من قتله. كان أيضاً يتمرّد على الرهبان ويجيبهم بوقاحة حتى كلّمه الريس وأبلغه إن لم يغيّر سلوكه سيستدعي عمه ولن يكون له مكان في الدير. في يوم سمع الجميع صراخاً حاداً من جهة الملاعب. كان حنا حوراني مدمى الوجه يردّد باكياً: «قتلني الحيوان. يدي آه يدي» التلاميذ فرحوا في سرّهم لأنهم جميعاً يكرهون حنا ولا تخفى عليهم تحرّشاته. لم ينتظر راجي أن يطرد. بحثوا عنه، وجدوا أنه إضافة إلى أغراضه أخذ بعضاً من ثيابهم وأموالهم. أو أنهم ادّعوا ذلك، لأن شيئاً لم ينقص من أغراض روبير. لفترة كلما ضاع غرض كانت التهمة تلقى على راجي كأنه في غيابه أيضاً يستمرّ بسرقتهم.

كان الجوع في البرد يزداد، فيتحايل عليه روبير بطرق مختلفة. يشغل رأسه بحلّ مسائل رياضية أو فيزيائية في دروس لم يدرسوها في الصف بعد. لجم خياله مبعداً عنه الروائح والمذاقات التي يتصوّرها ويفيض لها لعابه. في مناماته فقط يأكل على سجيته الفطائر الساخنة المحشية بالبقلة والسماق بالجبنة والزعتر والأرز والدجاج. يعلم أن بامكانه أن يطلب من أحد التلاميذ في الخارجي أن يشتري له حلوى. لكنه يريد أن يأكل خبزاً، ربطة بكاملها لا يهم أن يكون الخبز حافاً. خبز طريّ تفوح منه رائحة طازجة. حين يتخيّل ذلك يتذكّر كاميليا فيزول جوعه. هي أيضاً لا تشبع.

حلّ مكان راجي تلميذ جديد لم يتجاوز عمره الثالثة عشرة اسمه فادي. من اليوم الأول غيّروا اسمه إلى «فاضي». قليل الكلام يجيب بالاشارات وبصوت هامس. ظنّ روبير أن السبب هو استغرابه للمكان الجديد، لكنه اكتشف مع مرور الأيام أنه كذلك على الدوام حتى معهم هم رفاقه في

الغرفة. صار أيضاً مادة للتندّر يقلّدونه في وجوده وفي غيابه. مازاد الأمر سوءاً هو فشله في أداء أسهل المهمات، الأكياس التي ينقلها يرميها بقوة أرضاً فيتمزّق الكيس وتقع منه محتوياته. كل ما يلمسه يتعطّل أو ينكسر حتى صار الرهبان يضطهدونه ويوكلون إليه أسوأ المهام كتنظيف الحمامات يومياً. ينبهونه ساخرين «نظّف المراحيض، لكن لا تكسرها». في الصف أيضاً لقّبه أستاذ اللغة العربية بالحكيم الهندي لأنه يواجه كل سؤال يطرح عليه بصمت عميق يوحي بعدم سماعه. ألقاب كثيرة كرّت بعد ذلك بلاطة، أبو الشنب لأن شاربيه ناميان كأنهما لشاب بالغ. استغرب روبير برودة أعصاب فادي، أحزنه ألا يدافع عن نفسه ولا بأي طريقة، كأنه لا يريد أن يثبت لأحد شيئاً. قصته التي عرفوها عنه منذ الأيام الأولى تشبه قصص الجميع. هو من شتوره. والداه يعيشان من تربية الأبقار وبيع الحليب. كان يساعد أمه في أيصال غالونات الحليب إلى الناس. يتعبها صعود السلالم، لذلك يقوم هو بإيصال الحليب إلى البيوت العالية الواقعة في بنايات. وفي مرّة بينما يصعد إلى شقة في الطابق الثاني، دوّت قذيفة في الشارع وأصيبت أمه التي تنتظره في الأسفل بشظية اخترقت رأسها وأفرغته في لحظة. كان دماغها متناثراً لوّن الحليب المندلق بلون أخضر. تفاصيل رواها الأب للريس حين جاء يرجوه قبول ابنه. هو عاجز عن تعليم أولاده الخمسة، على الأقل فليتمكّن واحد بينهم أن يفكّ الحرف ويتعلّم صنعة قال. لذلك علّق الرهبان على ما سمعوه بالقول إن المسكين لن يفكّ لا حرفاً ولا شيء آخر.

أشياء كثيرة كان يعطلها لأنه لا يعرف كيف تعمل، كالستائر التي عليه رفعها حتى ينظف زجاج النوافذ وحافاتها. يشدّ الحبل في كل اتجاه وبقوة فينقطع ما يستدعي اصلاحها. كان روبير يراقبه من بعيد ويحاول أن يعلّمه بالقيام بالأشياء أمامه. علّمه كيف يستعمل مساحيق التنظيف باعتدال، إذ

كان بداية يفرغ محتويات القارورة في سطل واحد، فيحدث رغوة هائلة وتبقى الأرض زلقة حتى بعد أن يجف البلاط. كان يستخدم فرشاة الحمام ويفرك بها الأرض والجدران مزيلاً طبقة الطلاء. تساءل «الأبونا» إن كان يفعل ذلك عن قصد. لم يدر بخلده أن كل ذلك غريب عليه. حتى ثيابه الداخلية التي تصل إلى حدود الركبة مخاطة ببقايا أقمشة رثة. بسببها ينادونه بأبو كلسون. ليلاً كان في نومه يحدث حشرجات فيما يداه تطردان وتكشحان بقوة أخيلة تتراءى له في النوم. كان جوزيف يزجره ليستيقظ شاتماً قلة مخّه التي لا تدعهم ينامون.

ثم ذات صباح وجدوه فاقداً للوعي في الممر المفضي إلى الحمامات، من فمه فارت رغوة بيضاء، وبدا كأنه ميت خصوصاً أن عينيه كانتا مفتوحتين ومقلوبتين لا يظهر منهما إلا البياض. تعالى صراخ أخرج المتكاسلين قفزاً من أسرتهم. في البداية تكتم الرهبان على حالته، لكن «الأبونا» سمعان، طويل اللسان، قال لهم إن فادي على ما يبدو شرب سائلاً للتنظيف، لكن الله رحمه ونجّاه. مضيفاً إن قلة الايمان هي سبب إقدامه على فعلته الغبية تلك. بعدها توقف الجميع، بما في ذلك الرهبان، عن ذكر دعابات بشأنه، على الأقل في حضوره. لكن ذلك لم يمنع التلاميذ من الضحك والقول:حتى الانتحار فشل فيه، هل ظنّ سائل التنظيف زرنيخاً؟

كانوا يتحاشونه كأنه مصاب بالجرب. يلتصقون بالجدران إن مرّ بمحاذاتهم. ذهب بعض رفاقه في الغرفة إلى الطلب من «الأبونا» شربل أن يضعهم في غرفة أخرى، مرّة بحجة خوفهم من أن يفعل بهم شيئاً وهم نائمون، ومرّة بحجة الروائح الكريهة التي لا تفارق بدنه وتسمم جو الغرفة. لم يرض «الأبونا» مذكراً إياهم بالرأفة التي أوصى بها المسيح ومتسائلاً لماذا لم يسمع شكوى مماثلة من روبير. ألا يشاركهم الغرفة نفسها؟ كانوا يكرهون روبير في أعماقهم لأنه كان دائماً المثل الذي يحاربهم به

الرهبان. عاد هزيلاً من المستشفى زائغ النظرات. حاول الريس أن يرجعه مع أبيه، لكن هذا الأخير بكى وتوسّل قائلاً إن الصبي ربما محزون فأمه ماتت أمام عينيه. لان الريس مهدداً بأن أي سلوك آخر غير مقبول ستكون نتيجته الطرد النهائي، شارحاً ما للحادثة من تأثير سيئ على سمعة الدير. لاحقاً وصف الأولاد والد فادي مقلّدين مشيته الغريبة وساخرين من قامته القصيرة قائلين إن الغباء وراثي في العائلة.

مع السنوات اعتاد روبير على قسوة التلاميذ الداخلي وفهم أنها طريقتهم لتحمّل الحياة التي يعيشونها رغماً عنهم. أراد أن يساعد فادي لكن محاولاته كانت لا تلقى أي تجاوب. استمرّ يكلّمه غير مبال بصمته وجمود قسماته وفراغ نظرته. فكّر أن الوقت سيبدله كما فعل معهم جميعاً.

ارتأى الريس أن علاج فادي هو الصلاة وقراءة الكتاب المقدّس. كان روبير يجده في جلوسه هادئاً، الانجيل مفتوح أمامه لأكثر من ساعة دون أن تقلّب صفحاته. لكنه ما عاد يذلّ في العلن على الأقل وحين يرتكب أي حماقة يكبتون ضحكاتهم ويؤجلون تعليقاتهم.

كثيراً ما حاول روبيرمؤخراً أن يوارب فيقنع «الأبونا» بالذهاب إلى صيدا، لشراء المبيدات الزراعية. يخبره أن المرض دبّ في جذوع التين والسوس بدأ ينخر العرائش. أو يقول شيئاً عن الربح الأوفر في صيدا إذ في جزين تكثر المنتوجات كتلك التي من الدير. سمع أن الناس في صيدا يقاطعون البضائع الاسرائيلية ولو رخصت ويفضّلون عليها اللبنانية. يطلق «الأبونا» ضحكة ويقول: حرام يا ابني الكذب خطيئة. لكن كلام روبير بدأ بالتأثير فيه. سمعه لاحقاً يتحدّث عن البضائع الاسرائيلية المقاطعة.

فجأة امتلأ المخزن بأكياس البطاطا. قال التلاميذ إنها بالتأكيد مسوّسة. لأكثر من شهرين صارت البطاطا طعامهم على الغداء. بطاطا وبرغل وبصل أو بطاطا مسلوقة متبلة بالثوم أو بطاطا مهروسة مع الشمار والزعتر.

أطيبها البطاطا البوري ولو كانت دون زبدة. كانت تشبعهم خصوصاً إن سمح لهم بأكل الخبز على هواهم كما في الأعياد أو في بعض المناسبات المتعلّقة بترقية راهب أو زيارة آخر عالي الرتبة في السلك الكهنوتي. هم لا يضجروَن من أكل الطعام نفسه. الأهمّ بالنسبة إليهم أن يشبعوا ولو لحين. حين يصحو الطقس بينما يبحثون في الجلول عن الخبيزة والهندباء البرية يقطفون الحميضة لأكلها. لكن ما إن يراهم أحد الرهبان حتى ينهرهم ويطلب منهم جمعها كي تعدّ حشوة لفطائر سيأكلها الرهبان لاحقاً.

أكثر ما يشعرهم بخواء معدتهم وبجوعهم هو حين يقع بصرهم على تلاميذ الخارجي يأكلون سندويشات جبنة وزعتر ومارتديلا أو لبنة تفوح منها رائحة الخيار. يبتلعون ريقهم ثم يغضون بصرهم دون أن يفهموا كيف يقدم بعضهم على رمي طعامه. لاحقاً أوجدوا سلات لرمي الطعام كي يطمر لاحقاً تحت الأشجار ويكون سماداً عضوياً لها. كثيراً ما يزدردون من هذ السلات سندويشات شهية لا تزال ملفوفة بالورق ولم تُمَسّ.

- 52 -

طرق قوي على الباب أيقظ ميشال من نومه. في سرعة جمع حسين الأغطية وثيابه وحذاءه جهة الحمام مبقياً الباب مواربا كي لا يسمع صوت إغلاقه. سأل ميشال عن الطارق. قال: قريب لك من مرجعيون. في الباب رأى شخصاً عريضاً وطويلاً. خلفه وقف عميل لحد الذي يعرفه من شارعه. اللون فارق وجه ميشال وتأكّد أنهما جاءا لاعتقاله. ابتسم الشاب العريض فاحتار ميشال ماذا يفعل. قال اسمه متيقناً أنه سيلقى ترحيباً حاراً:موسى ابن ابنة خالة أمك. ثم أردف حين لاحظ جمود ميشال: ألم تعرفني؟ التقينا

مرّة في مأتم جدتي ثم مرّة أخرى في عيد السيدة.

تذكّره ميشال بشكل ضبابي وأردف: «ألم يكن ذلك منذ أكثر من عشر سنوات؟».

ابتعد قليلاً عن الباب متمنياً ألا يقبلا دعوته للدخول. كان يحسّ أنه على حافة الانفجار. ماذا لو أراد أحدهما دخول الحمام؟ كيف علم بعنوانه؟ تساؤل لم يطل. عرف أن أمه وردة هي التي أعطته العنوان حين زارها. قال موسى إنه على حاجز لجيش لبنان الجنوبي عند طرف الضيعة. ثم التفت إلى الشاب قربه معرّفاً به: «مرشد فضّول هو قريب من بيتك عند ناصية الشارع. إن أردت أي شيء سوف يخدمك. نحن أقارب، ثم صفق فخذه متأهباً للرحيل، واعداً بأن يزوره في مرة أخرى. ضحك وأردف قائلاً: «لا تخف لن أوقظك باكراً هكذا». غمزه في اشارة إلى أن الساعة قاربت العاشرة.

لم يسترجع ميشال هدوءه بسهولة. شتم أمه وأقاربها وغباءها. قائلاً إنه لا ينقص سوى أن توزّع صوره على الحواجز. كان يردّ على كلام موسى كأنه لا يزال أمامه: الحمار ما شأنه في نومي. حتى يوم عطلتي عليّ أن أنهض باكراً؟ كلّ ذلك وحسين صامت غارق في التفكير. هزّ ميشال حديد الشباك العريض وقال لولا هذه الحدائد لكان بالامكان التسلل من النافذة. قال حسين إن الأمر ليس سيئاً كما يبدو. سيبعد ذلك عيون المخبرين عنه في حال انتبه أحدهم لزوار الليل. المشكلة الوحيدة هي احتمال زيارات مفاجئة من موسى أو رفاقه.

في الجامعة لم يكن هناك إلا بضعة طلاب في محاضرة القانون المدني، سمع أحدهم يخبر عن عملية تصفية لأحد العملاء قرب خان الأفرنج. بعد نصف ساعة على بدء المحاضرة توقف الأستاذ فجأة كأنه استكثر جهده على هذا العدد الضئيل من الحاضرين.

جلس ميشال في الكافيتيريا منتظراً موعد المحاضرة التالية. على الطاولة وجد صحيفة يعود تاريخ صدورها إلى بضعة أيام خلت. صورة لأمين الجميل مصافحاً سفير دولة ما. اعلانات عن شقق ومفقودين ووظائف. يحبّ أسماء الأمكنة، فهي ترتبط بصور ترسمها مخيلته. كيفون، الشحّار الغربي، مونتيفردي، الجميزة، التحويطة، البربير، بعبدا، بربور. ازاحة كراسي الحديد قربه أجفلته. شابان وفتاة شاركاه الطاولة. حوله دخان وروائح ووجوه جديدة وشبان وشابات يضعون في أعناقهم صلباناً معقوفة.

الفتاة رغم نحولها تبدو عارمة الصدر. تلبس كنزة بيضاء، من قبتها التي على شكل سبعة يظهر ثدياها. على أحدهما علامات حرق واضحة. الجلد متجعد وداكن اللون. بقيت صامتة فيما الشابان يتناقشان في موضوع يتعلّق بجدليّة العلاقة بين العنف لدى الفرد وأنظمة الحكم السائدة في المجتمع. أحدهما نظر نحوها لإشراكها في نقاشهما، ردّت إنها صراحة لم تفهم شيئاً من هذه المحاضرة وآخر همّها الفرد والمجتمع وكيف يؤثّر أحدهما بالآخر. ضحك ميشال في سرّه من جوابها. حين رفع عينيه انتبه إلى جرح يشقّ خدها الأيسر من طرف عينها حتى حدود أذنها، كأنه أثر لعملية جراحية. عندما أبعد الكرسي لينهض نظرت نحوه وتأملته كأنها تعرفه من مكان ما ولا تتذكّر.

توجّه إلى القاعة ليجد أن عدد الطلاب نقص أكثر. بعد قليل جاء من يقول إن القاضي لن يستطيع الحضور.

في خروجه كان المطر خفيفاً لكن الهواء بارد. لفّ الجاكيت حول صدره رافعاً ياقتها. فكّر بنجمة متسائلاً إن سافرت إلى استراليا. لم يرد في قرارته أن يعرف حقاً، يفضّل أن يتخيّلها قريبة. مضى عليه وقت لم ينفرد بنفسه. كأنه بلا بيت. لا يمرّ يوم دون أن يأتيه زائر. حتى طعامه لا يتحكّم

به. لا يستطيع أن يسمع ما يحلو له على الراديو. ضجر من اذاعة لندن ومن أخبار مونتِ كارلو ومن عيش الوطاويط. لو يحصل على تصريح ويرحل إلى بيروت ويبقى هناك. ما الذي يربطه بصيدا أو بضيعته؟ ترك الحزب قبل الأجتياح لكن الحزب لم يتركه بحاله. زاد من توجسّه سماعه خبر اعتقال متري. علم ذلك من صاحب دكان من ضيعته يشتري أغراضاً من مخزنهم. مساء تأكد من الخبر الذي نقله أحد الزوار، طالباً منه الانتباه والحذر. أعلمه أيضاً أن بيته لم يعد آمناً للرفاق بعد الآن وأن عليه أن يرفض إيواء أحد. صحيح أن الخوف أعماه، لكن حزنه على متري كان أقوى. ظلّ يتخيّل سيناريوهات تنتهي بنجاة متري. علم أنهم اقتادوه ببيجامته ومعه رفيقه منذر. حتى إنهم لم يسمحوا لمنذر بوضع نظاراته فلم ير حقاً من هم أولئك الذين سحبوه حافياً من فراشه. عندما توسّط مسؤول الأمن في القوات لصالح متري. أسكتهم الاسرائيليون بالقول إن جماعة من القوات قامت بتهريب الفدائيين في الأودية البراري، وأن أحد المخرّبين اعترف بالأمر بصراحة. وأنه لا يمكن الثقة بشهادتهم. أم متري ووالده أمضيا ثلاثة أيام أمام مركز الحاكم العسكري على أمل أن يطلق سراح متري بعد التحقيق. لكنهم أخذوه إلى معتقل انصار مع منذر.

بعد ذلك جاء من ينبه ميشال بأن عليه النوم خارج مسكنه لفترة. لا أحد يعلم بالاعترافات التي قد تنتزع تحت الضرب والتعذيب. اعترض ميشال قائلاً إنه ترك الحزب منذ زمن. لن يكذب متري ويذكر اسمه. على آخرين غيره أن يتنبّهوا. أجابه ساخراً: «حسناً حين يأتي الاسرائيليون أخبرهم بذلك سيصدقون ويتفهمون وسوف يعتذرون على ايقاظك من النوم».

لم يحصل على الراحة التي يتخيّلها بخلوّ بيته. ليلاً كان يترصّد كلّ حركة خوفاً من أن يقتحموا عليه غرفته. بات ينام مرتدياً ثيابه وجواربه. امتنع عن الذهاب إلى الجامعة. بدّل الطرق التي يسلكها إلى عمله. أخّر

موعد عودته وصار يمشي طويلاً جهة البحر بعد دوامه. لكنه خاف أن يثير سيره هناك الريبة، خصوصاً وأن الجواسيس كثر.

سلام مرشد عليه كلما التقاه في الشارع أبعد الجيران عنه نهائياً. البقال ما عاد يردّ على تحيته، وحين يطلب غرضاً يدّعي بأن ليس لديه منه. لم يلمهم على ظنهم أنه كمرشد من جماعة جيش لبنان الجنوبي. اسمه ميشال ويحكي مع من يعتبرونه عميلاً مخبراً. صاحب البناية اشتكى من الضجيج الليلي في شقته مدعياً أن الجيران انزعجوا من قدوم فتيات إلى بيته. قال:تعلم في البناية ليس لدينا إلا عائلات أوادم تخاف على بناتها.

رغم غيظه سكت على افتراءات صاحب البناية. لم يفهم لماذا لا يكون صريحاً ويطالبه باخلاء الغرفة ببساطة؟ بدأ بالبحث عن سكن جديد في عبرا وجوارها. لكن ما بدا له سهلاً تبيّن أنه معقد. كان يجد بيوتاً واسعة ايجارها غال. كأن لا أحد قد يسكن في بيت صغير. استمرّ لأيام يجول على قدميه سائلاً عن غرفة أو بيت صغير للايجار. وجد أخيراً بيتاً قديماً في عبرا العتيقة مؤلّفاً من غرفتين. أرضه باطون. كل ما فيه قديم. لكنه أحب انفراده ولم يبال ببعده عن الطريق العام. هناك بيوت قريبة منه على بعد أمتار، لكن جلولاً حولها، أو سياجاً، يخفيها عن ناظريه. خلفه حقول بعضها يمتد إلى واد سحيق تقطعه ساقية ماء يظل يسمع خريرها ليلاً نهاراً. في جهة الشمال تلال تتوزع عليها بيوت ضيعة مجاورة يُسمع صوت ساكنيها وتُرى مداخنهم. استأجر البيت من زوجين عجوزين، بأربعمئة وخمسين ليرة. حاول مفاوضتهما معدداً المشاكل التي يعاني منها البيت كعدم وجود سخان والمطبخ الضيق الذي فيه مجلى باطون بحجم مغسلة. السقف الذي يرشح ماء. التفسخات في الجدران والسقوف. بُعد البيت عن الطريق... لم يتزحزحا عن السعر قائلين إن الطلب على البيوت كبير في هذه المنطقة الآمنة. لم يجد أمامه ألا الرضوخ ولو تطلّب منه ذلك

تقشفاً أكبر. فكّر أن عدم قدوم أحد للاختباء عنده سيقلّل من مصروفه في الخبز والدخان والمشروب والطعام.

منذ الأيام الأولى عوّد نفسه على الذهاب والعودة سيراً. في الصباح الباكر تكون الطرقات شبه خالية إلا من الدوريات الراجلة وعمال البلدية. لكن حين يعود تكون الزحمة قوية خصوصاً جهة سكنه. عندما يلتقي بجيرانه يرفع يده بالتحية دون أن ينظر إلى وجوههم خشية أن يفسح لهم المجال في التعرّف إليه. استمرّ الحال على هذا الهدوء حتى قرع بابه شابان دون العشرين من العمر. لم يسألاه عن اسمه بل قالا مباشرة: ميشال زيدان أليس كذلك؟ ثم رحبّا به في الحي وأبلغاه باجتماع للشباب عند السابعة يوم السبت، وأرشداه إلى مكان الاجتماع. لم يجرؤ أن يسأل لا عن نوع الاجتماع ولا عمن يقصدون بالشباب. لم يطل الأمر حتى علم من العجوز صاحب البيت أن الشباب هم القوات اللبنانية.

السكينة التي نعم بها لأقلّ من أسبوع تبدّدت. إن تهرّب من حضور الاجتماع سيثير حذرهم. سؤال واحد عنه في ضيعته وسيعرفون عن حياته أكثر مما يعرف هو. لكن إن ذهب، ماذا يحصل؟ ماذا ينتظرون منه؟ جيّد أن لديه عملاً يتخذه ذريعة. هو لن يرغم على التدرّب معهم أسوة بالشبان، إذ لن يعطى إجازة طويلة لأربعين يوماً. لكن بامكانهم أن يضغطوا على صاحب العمل لمنحه إجازة. من يجرؤ على مخالفتهم. إن فعلوا ذلك سيفسدون علاقته بربّ عمله. لن يفصله لكن نظرته له ستتبدّل وفي أوّل فرصة سانحة سيسرّحه من عمله ما إن تتغيّر الظروف السياسية. التعب والقلق قطعا شهيته. جلس عند طرف الكنبة واستمع دون تركيز إلى دروس في الانكليزية على اذاعة لندن. العتمة زادت في الخارج. أنصت إلى صوت الضفادع. سقط رماد سيجارته على بنطلونه، نفضه ثم أشعل الضوء. لم ينم تقلّب في فراشه حتى الفجر. كان ما إن يستقرّ على رأي حتى يبدّله.

يوم السبت عاد من عمله ومشى متردداً باتجاه مكان الاجتماع. الضجيج دلّه على البيت. بيت قديم له قناطر على شرفته الأمامية الواسعة. حين وصل انتبه للحراس المسلّحين الواقفين في العتمة يحيطون بالبيت من جهاته الأربع. انتظر أن يسأل عمن يكون لكن بدا له أنهم لم يبالوا. في الداخل شبان وشابات جلسوا في شبه حلقة، منصتين إلى شاب أصلع بلحية شقراء مشذبة وعينين زرقاوين صغيرتين. هم أيضاً لم يلتفتوا نحوه رغم الأزيز الذي أحدثه باب المدخل. كلهم مشدودون إلى الواقف الذي ينظر بعيني صقر. جلس في الصف الثاني من الحلقة بعد أن أفسح له أحدهم دون الالتفات نحوه. لم يرد أن يسمع هذا الكلام عن الوطن وعن الدور المسيحي في حمايته. انشغل خلسة بتصفح الوجوه إلى أن وقع نظره على الفتاة المشطوبة الوجه والتي رآها في الجامعة منذ فترة. الجوع أنهكه. تساءل إلى متى سيدوم احتجازه هنا.

بعد أكثر من ساعتين كُلِّف بالحراسة ليومين، ليلة الخميس وليلة السبت. عليه مع أربعة آخرين التجوّل بين البيوت للتأكد من عدم وجود المتسللين، ويقصدون بذلك المقاومين.

فوجئ ميشال حين اقتربت الفتاة منه وكلّمته دون أي كلفة قائلة إنها جارته. دلّته على بيتها. وأردفت إنها تراه مساء حين يمرّ بمحاذاتهم. وصفت له البيت ذي الطلاء النبيذي أمامه شجرة حور كبيرة وسيارة بيجو فضية. سألته عن الجامعة ولماذا ما عادت تلمحه، ألا يحضر صفوفه؟ اختصر لها الوضع بجملتين مفادهما إنه في سنته الأخيرة ولا يحضر إلا الجمعة بسبب العمل. عرّفته على أخيها وهو أحد الشابين اللذين أبلغاه بموعد ومكان الاجتماع.

رافقته مشياً وحكت غن استقرارهم هنا بعد أن خسروا بيتهم في عين الرمانة. أدارت خدها وقالت: «أترى أثر الشظية؟ وهناك حرق ليس

بامكاني أن أريك مكانه.. أمي خسرت عينها. وأنت أين أهلك وأخوتك؟ لماذا أنت وحدك؟»

-«العمل بعيد عن ضيعتي وكذلك جامعتي. أبي ميت. وأمي تعيش في بيتنا في الضيعة.»

-«وحيد إذاً؟ جميل أن تكون وحيداً. كل شيء ملكك. لا من يقاسمك أو يتشاجر معك».

-«صحيح.»

-«أتريد أن تأتي وتسهر معنا؟ أعرّفك على أخوتي وأهلي. هكذا تزورنا.»

شكرها مفكراً بالطريق الطويلة التي بات عليه أن يسلكها كي لا يمرّ بمحاذاة بيتهم. لكن أين يهرب وقد صار مثلهم ويحرس معهم. أي فكرة مجنونة حملته ليسكن هنا؟

كان الاسرائيليون يردون على العمليات العسكرية ضدهم بتعذيب الناس على حواجزهم. يرغمونهم على الانتظار وعلى فكّ المقاعد والدواليب. يفرغون أكياس البقالة والمشتريات وكل ما يحمله الركاب. يفرغون صناديق الحمضيات والخضار على الأسفلت ويتفقدونها حبّة حبّة، حتى صار وصولها إلى حسبة الخضار أشبه بمعجزة. المشاة أيضاً خضعوا للتفتيش الدقيق نفسه. لذلك تجنّب ميشال قدر الامكان المرور بهم. سلك دروباً ضيقة كلّفته التأخر عن موعد عمله. في المطر يرتدي مشمعاً بقبعة يحميه من البلل ويبدو فيه كعمال البلدية.

المال القليل دفعه إلى التقنين بمصروفه قدر الامكان فقلّل استهلاك الدخان مكتفياً بخمس سجائر في اليوم. امتنع عن شراء المعلبات واعتمد على البطاطا والبيض. من الفاكهة اختار أرخصها، البرتقال. لكن سيره جعله يستهلك حذاءه فيضطر إلى شراء غيره ما إن يبلى نعله أو يثقب. ما

لبثت أمه أن عرفت عنوانه وجاءت تزوره محملة بالجبنة واللبنة المكبوسة والزعتر وأرغفة مرقوق. نبّهها مشدداً ألا تخبر أياً كان ولا حتى رِفاقه عن مكانه. إن أصروا فلتعطهم عنوان البيت الذي تركه. ردّت كمن أُمسك به بجرم مشهود: «أنا لم أدلّ موسى إلا لأنه قريب لنا ولن يؤذيك في شيء، أمه ابنة خالتي. قلت يؤنسك وأنت وحيد.»

-«يا عين على الأنس الذي اخترته لي. أليس بامكانك حفظ لسانك بدل أن تورّطيني؟»

-« من الآن فصاعداً حين يسألون عنك سأقول إنك في بيروت.»

-« لم أطلب أن تكذبي كذبة مكشوفة كهذه. لكن ليس عليك أن ترفعي تقريراً بتفاصيل حياتي إلى كل من يسألك عني.»

زعلت أمه وأجابت مطأطئة الرأس:«حسناً كما تريد».

ليطيّب خاطرها شكرها على ما حملته له من أطايب قائلاً إنه اشتاق إلى طبخها. فابتسمت ونسيت في لحظة وطبعت قبلة على رأسه. هو أيضاً حزن لأنه قسا عليها وتكلّم معها بلهجة جافّة. فكّر أنها حين تعود إلى الضيعة ستظلّ تستعيد تفاصيل زيارتها وحديثها الأخير معه. لذلك كذب عليها وكلّمها عن أمور قد تبهجها. عن المهنة التي سيزاولها بعد جامعته. ثم سكت وانتبه أنه غير قادر على تخيّل حياة قد تفرحه. نهوضها لتقوم بجولة تنظيف قبل أن تعود إلى الضيعة أراحه من هذا الحوار. كانت تفرك الأرضية الباطون مرددة إنهم غشوه بجعله يدفع كل هذا المبلغ على بيت مهترئ ويشبه خربة. تركها تسترسل في كلامها ممتنعاً عن الردّ إذ بم سيفيده ذلك؟ هي لن تفهم أن البيوت هنا غالية، وستبقى على ظنها بأنه ولد أخطأ في مفاوضة المالكين الجشعين.

الأيام المشمسة أعقبت أسبوعاً من المطر الغزير. استمتع بالمشي وبرؤية الأعشاب الخضراء تطلّ برؤوسها في الحقول. البحر يبين ما إن

يصل إلى الهضبة. أمواج هادرة لونها رمادي تتقدّم وتتراجع بصخب يصل إليه في هدوء الصباح. الشمس أنسته رطوبة بيته وعفن جدرانه. تنشّق هواء بارداً محملاً بروائح فرن قريب. ابتسم وتذكر أمه، في كل مرة يقول فيها رائحة المناقيش شهية تردّ عليه «مناقيش الفرن كلها سوس والزعتر نصفه قشّ وعيدان مطحونة.»

ناداه أحد العمال وقال إن رجلاً جاء يسأل عنه. لم يتعرف على حمزة من بعيد. كان في بدلة سوداء وكرافات رمادية. ما إن اقترب حتى سأله: «ماذا فعلت بنفسك يا رجل؟» التفت خلفه وقال له همساً بأن يناديه باسم نجيب. اختفت الابتسامة عن وجه ميشال متوقعاً العودة إلى المتاعب الماضية. أراد أن يكلّمه بعيداً عن الناس. اصطحبه إلى المستودع جلسا فوق أكياس السكر الكبيرة. قال حمزة إن الاسرائيلين سألوا عنه مرتين في التحقيق. ربما أكثر. لكن رفيقين أفلتا بعد التحقيق معهما أرسلا له علماً بالأمر. الدنيا ضاقت به ولا يجد مكاناً ينام فيه. طوال الوقت يتجوّل ما بين المقاهي متصرفاً كرجل أعمال. حينها انتبه ميشال إلى الحقيبة الصغيرة التي يحملها.

-«لن أمكث عندك أكثر من ليلتين».

-«غير ممكن. بيتي مكشوف ومحاط بالبيوت وبمراكز للقوات عيونهم عشرة عشرة.»

-«قل إنني قريبك أبن خالتك أو أي شيء.»

-«وماذا يفعل متأنق مثلك في قصري الفخم؟»

-«لا تقفلها في وجهي. لو كان هناك أحد غيرك لما أحرجتك.»

-«اذهب عند غسّان.»

-«غسّان محروق بالنسبة للجميع، لأن جيرانه يترصدون كل حركة منه ويطلقون عليه اشاعات عن كونه شيوعياً. ولولا حماية عائلة زوجته لكان الآن في المعتقل.»

بعد تردد اتفقا على أن يأتي حمزة لعنده وحده ليلاً. وصف له المكان بدقة واتفقا على أن يربط خرقة بيضاء كعلامة حول حديد النافذة. قال حمزة إنه يحمل إخراج قيد لشخص ميت. زوّروا ختم المختار واضعين صورة حمزة بدلاً من نجيب عطاالله الميت.

- 53 -

جلست زينب في العتمة. من شباكها بان القمر بدراً. كان فضّي اللون يغيب ويظهر كغطّاس بين الغيوم. نام أهلها. ولم يبق هنا إلا أخوها أحمد. غادر أخوتها واحداً تلو الآخر إلى بيروت بعد حصولهم على تصاريح. الآن صارت أكثر حرية، لكن ماذا تفعل بالحرية ومتري معتقل؟ مضت الشهور وهي تنتظر أن يُفْرَج عنه. من ماري عرفت القليل من الأخبار، أوصلها بعض الأسرى المحرّرين. قالوا إنه بخير، وهو من الناشطين في المخيم. نظّم عدة حركات تمرّد واعتصام واضراب عن الطعام للمطالبة بتحسين ظروف اعتقالهم. أخبار زادت في قلقها. كيف سيطلقونه إن كان ناشطاً حتى في المعتقل؟ الرسالة الأخيرة التي رجت ماري أن توصلها لم يقرأها. بقيت مع ماري. قالت إنها لم تره أبداً بعد الاجتياح. كان يزور أهله زيارات خاطفة. ثم أسر. ذكرتها ماري بلا جدوى هذه الرسائل وكيف تقول في كل مرّة إنها الأخيرة. لم تسطع أن تمزقها. فكّرت أنه سيعود وسيقرأها. الآن فقدت هذا اليقين، رغم ذلك الرسالة قابعة بين صفحات الكتاب الذي أهداها إياه منذ سنين. حين يجافيها النوم تعاود قراءتها وتشعر أنه يسمعها. أضاءت قنديل الكاز، الهواء البارد كاد يطفئه. واربت الدرفة المفتوحة، جلست تقرأ الرسالة كأنها تقوم بطقس يومي.

حبيبي متري

أجلس الآن في بيتنا لأول مرة بعد انتهاء أيام القصف السوداء. لم يكن في رأسي طوال أيام اختبائنا إلا أنت. لم أعرف أين أنت أفي الضيعة أم في مكان آخر. صليت لأن تكون بخير. ما فكّرت لا بأهلي ولا بأخوتي. كنت وحدك في قلبي وفي صلاتي. تذكرت أشياء كثيرة كنت تقولها لي وقتلني شوقي. كل شيء يعيدني إليك. المطر الصحو الغيوم الحقول المخضرة التلال الهانئة الصيف والربيع والريح كل شيء يحمل إليّ الذكريات. ماري تقول أن أنسى وأمضي في حياتي. أي قيمة لحياتي إن لم تكن فيها؟ الألم لم يقتل أحداً كما تقول. ما أدراها؟ إن فتحت عيني صباحاً وعملت وأكلت لا يعني أنني حيّة. لا أعلم ما الذي أسأت اليك به لأغضبك هكذا. إن أخطأت حقاً أرجو أن تكون رحيماً ألم تقل لي بأنه مهما أفعل سأبقى حبيبتك؟ أم أنك تغيّرت؟ إن لم تردني في حياتك، قل لمرة أخيرة. قل ما تريد. لكن لا تجافيني. حبك كالهواء الذي يدخل رئتيّ دون استئذان. لا أملك قدرة على تغييره أو التحكم به.

الشمس تغيب الآن والضوء ينسحب من حولي. قلبي ينقبض، كيف أحتمل ليلاً يعتم أو نهاراً يطلع وأنا أعلم أنني لن أراك؟

إنها رسالتي الأخيرة حقاً. بعدها لن تسمع مني شيئاً. لا أريد أن أكون عبئاً، لكن صمتك أقسى من أي كلام قد تنطق به لذلك، قل لي شيئاً أرجوك.

زينب

طوت الرسالة. أطفأت القنديل. ارتفع صوت الآذان بينما الفجر يطلع. فكّرت أنها ما عادت حقاً تعرف ما تحبّ أو ما تريد. في العطلة تتمنى أن تذهب إلى العمل كي تنشغل في شيء ويمرّ الوقت. في الصف تتعب من الكلمات التي تخرج من فمها.

في الأيام التالية علمت من ماري إن رفيقاً آخر لمتري اعتقل، وأن أمه راحت تصرخ وتبكي وتشتم الاسرائيليين، كما تمسكت بثياب ابنها ولم

تهدأ إلا بعد أن خرطشوا رشاشاتهم وصوّبوها إلى صدرها. نبشوا البيت وفتشوا حتى داخل الوجاق، وفي قن الدجاج، وفي الخوابي. دلقوا جرار المونة، ولمّا لم يجدوا شيئاً ضربوه هو وأخوه الأصغر ليدلهم على مكان الأسلحة والمتفجرات. استفاقت الضيعة وتجمع الناس حول بيتهم لكن أفراد الدورية زجروهم بعيداً. حزنت زينب مع أنه لا تمضي ليلة دون اعتقالات أو مداهمات في ضيعتهم وفي الضيع المجاورة. لكن فارس خطّار صديق متري. كثيراً ما تردّد اسمه في القصص والأخبار التي كان يحكيها حتى صارت تعرفه دون أن تلتقيه حقاً.

كان رضا ينضم إليها وإلى ماري ويشاركهما الأحاديث في الفرص أو في ساعات الفراغ. ماري تناديه ما إن تلمحه. بداية كانت زينب تسكت وتمتنع عن المشاركة فلا تقول إلا الكلمة الضرورية، لكن أشياء كثيرة غيّرت طبيعة علاقتها برضا. مرة نظّم الأساتذة رحلة إلى الزرارية. هناك قضوا يوماً قرب النهر، أكلوا وغنوا ونسوا الحرب والعمليات والحواجز. بعضهم أتى بمشروب ومزجه خفية عن المتدينين بالبيبسي. رضا أيضاً شرب واكتشف الجميع صوته الجميل وهو يغني أغاني لزكريا أحمد والسنباطي. زينب وبعد صمت لفها طوال طريقهم، وجدت نفسها تغني ولو أن كل أغاني الحبّ ذكرتها بمتري. رقصت حين فعلوا. في طريق العودة دعاهم رضا إلى بيت أهله. انتبهت أن أهله ليسوا كباراً في السن كأهلها. أو قد يكون السبب أن أم رضا غير محجّبة ولا تعمل في الحقول لتشويها الشمس. والده يعمل في السراي في دائرة الشؤون الاجتماعية ظلّ طوال الزيارة يبدل ابرة الراديو من اذاعة إلى أخرى حتى أسمعهم كل نشرات الأخبار.

لم يكن رضا من النوع الثقيل. حضوره صار لطيفاً بالنسبة لزينب مع الوقت. عندما أقفلت القوات الاسرائيلية الطريق اثر عملية للمقاومة انتظر

مع ماري في بيتها. يومها تعرّف إلى أهلها الذين استجوبوه عن ضيعته وأهله ووجدوا أنهم يعرفون بعض أقاربه. حديث ممل أدارت له زينب آذاناً صماء. انشغلت مع ماري بتحضير الطعام. لمّحت ماري إلى إعجاب رضا بزينب. رفعت زينب عينيها عن صحن الباميا بزيت الذي تسكبه وهمست بصوت مرتعش: أتشمّين الحبق؟ زهّر ثانية ومتري لا يزال غائباً.

صارا يمكثان عندها في كل مرة يقوم بها الاسرائيليون باغلاق الطريق أو بتمشيط خراجِ الضيعة. كثر غيابهما عن المدرسة الخاصة نتيجة ذلك. رافقها رضا مشياً إلى الحقل عندما قلقوا على والدها الذي لم يعد رغم تمشيط الحقول. لكن الرصاص الذي فرقع أمام أقدامهما أجبرهما على الاحتماء بعيداً. جلسا تحت خروبة.

-«تحبين الضيعة؟»سألها.

-«ما هذا السؤال؟ هذا المكان أعيش فيه. هل يعني لي؟ لا أعرف ماذا تقصد؟».

-«أقصد ألديك رفاق هنا؟ هل أنت قريبة من أحد أخوتك؟»

-«رفاق؟». تذكّرت متري وخفضت بصرها.

-«أفكّر كثيراً بالذهاب والاستقرار في بيروت.» قال.

-«ما الذي يمنعك؟» أجابته على الفور.

-«هناك أشياء تمنعني...لكن العيش هنا! لا أدري إلى متى نحتمل. أخواي يخافان العودة إلى الجنوب في العطل. يبقيان في بيروت.»

-«وأنت ألا تخاف؟»

-« تقصدين من الاعتقال؛ لا. كنت صديقاً لرفاق حزبيين. لكن لم أنتم حقاً إلى أي حزب.»

أرادت أن تقول بأنها سمعت أنه كان في المنظمة لكنها لم تفعل. فكّرت

بأبيها الذي قد يكون أكمل عمله متجاهلاً الرصاص. ربما سمعه الثقيل أيضاً جعله يتوهم أن الصوت بعيد عن حدود القرية.

-«أول مرة جئت فيها إلى المدرسة. انتبهت إليك. لا يفهم الواحد ما السر الذي يشده إلى شخص وليس إلى غيره. أتؤمنين بقوة الانطباع الأول.»

أربكها أن يأخذ الحديث هذا المنحى فقامت عن الحجر وقالت إن الرصاص خفّ وهي قلقة فعلاً على أبيها.

ابتسم وقال: الوقت ربما غير مناسب لكنه لاحقاً يحبّ أن يحكي معها حديثاً من القلب.

حثّت خطواتها وسبقته، ناداها لتنتظره قبل أن يلحق بها ركضاً ويضع يده على كتفها ما إن يحاذيها.

- 54 -

لم يدر روبير ما الذي بدّل رأي الريس ليسمح له بمرافقة «الأبونا» إلى صيدا. هل أشفق عليه أم ضجر من تكرار طلبه أسبوعاً بعد آخر؟ «الأبونا» ذهب مرات عديدة إلى صيدا دون اصطحابه. عندما سأل عمته تيريزعن كاميليا قالت إنهم يتجنبون المرور بصيدا وأنها لولا الرسالة لما جاءت لزيارته أيضاً. الطريق طويلة وشاقة، قالت. سأل عن متري، هزّت رأسها بأسى وأخبرته عن أديل التي أصابها مرض السكري بسبب الهمّ والبكاء.

لاحظ أن الحواجز زادت عن السابق. واجراءات التفتيش أقسى. لم يستثن من ذلك لا شيخ ولا رجل دين. أوقفوا باصاً للركاب عند جانب

الطريق. أنزولهم واحداً واحداً لتفتيشهم وبعد التأكد من إذن المرور تركوهم واقفين وأيديهم فوق رؤوسهم. أحد جنود الحاجز طلب من روبير الترجل. بعد التدقيق في بطاقته. أعاد طرح الأسئلة نفسها التي وجهت للأبونا عن وجهته وسبب وجوده مع الراهب، ومنذ متى هو تلميذ في الدير. تكرّر الأمر على كلّ حاجز. كانت الساعات تنقضي وهما لم يصلا بعد إلى مشارف صيدا. قال «الأبونا» شيئاً عن التجارة التي صارت كلها خسارة بخسارة، الأمر سواء في صيدا أم في جزين أم في أي سوق. طوال الطريق تأفف لأن السبانخ والسلق والملفوف سيذبل ولن يجد من يشتريه بقرش. تجنّب روبير أن يوقفه ليشتري لكاميليا بعض الشوكولا والفاكهة. الكنزة التي يحملها هدية لأخته لن تفيدها بما أن الشتاء شارف على الأنتهاء. وربّما يكون الحرّ قد بدأ على الساحل.

عندما دخل هذه المرة لم يجلسوه في الصالون لأن الكنبات كانت مقلوبة والفتيات ينظفن قوائمها ويكنسن السقف والجدران بسعف نخيل. حاذر في سيره خشية أن يوسخ البلاط المبلل بالماء. تضاحكن عنما رأينه وقالت له واحدة: كاميليا مع الأخت انجيل.

تقدم إلى فسحة فارغة عند يسارها غرفة صغيرة فيها كنبات، لكنه لم يدلف نحوها بانتظار أن تأتي راهبة ما وتكلمه. فكّر بأن يعود جهة البنات لسؤالهن لكنه رأى الراهبة تنزل الدرج وقربها كاميليا تحمل أقمشة بيضاء تشبه الدانتيلا ومطوية بعناية. ما إن وقعت عيناها عليه حتى نادته بصوت ملهوف:أخي! روبير!

تقدمّت المديرة وابتسمت له هذه المرة بود. لا بل وضعت يدها فوق كتفه داعية إياه للدخول إلى الغرفة الجانبية. سألته عن العائلة وتذكرت اليوم الجميل الذي قضوه في المروج، قالت شيئاً عن جدته هند بالفرنسية، ووصفتها بالمرأة المسيحية الصالحة. لم يعتد بعد على فكرة غياب جدته.

انتبهت لشروده فبدلت الحديث سائلة إياه عن دراسته. استغرب أنها تعرف بأن عليه هذه السنة أن يتقدّم لامتحانات شهادة الباكالوريا الأولى. كما أشارت إلى اجتهاده وقالت إن عليه أن يفخر بكاميليا أيضاً التي حلت ثانية في امتحانات الفصل الثاني.أردفت إنّ عليه أن يقرأ اسمها المدون على لائحة الشرف في الصالون. كان طوال حديثه معها ينظر جهة الباب دون أن يفهم كيف لم تأت كاميليا بعد. قالت الراهبة إن كاميليا تعلّق الستائر المغسولة والمكوية وستعود حالاً. بعد ذلك نصحته بقضاء وقت الزيارة في الملاعب، بعيداً عن فوضى التنظيف في الداخل. ودّ لو يخرج مع كاميليا خارج الدير لكن «الأبونا» طلب منه ألا يفعل لأن ذلك غير آمن، لا له ولا لأخته.

انحنت كاميليا نحوه وقبلت رأسه. ضمها إليه وقال إنها نحيلة أكثر من أي مرة. كان عظم ذقنها ينغرز في كتفه فيؤلمه. جلسا على مقعد خشب في ملعب يطل على آخر أصغر ومحاط بسياج من الحديد المطروق. دلته على الأراجيح وأخبرته كيف أن جاين جاءت لزيارتها مرة ثانية مع عمتها. البنات كن لطيفات جداً، لاعبن جاين بالغميضة وتظاهرن بعدم كشف مخبئها. أرينها الصفوف الفارغة. كتبت على اللوح ولعبت دور المعلمة وتلقين منها الضرب والعقاب بالركوع في الزوايا. قالت إن عمتها جاءت للراهبات بهدية وللبنات بصينية نمورة أعدتها بنفسها.

كانا أحياناً يتكلمان معاً في الآن نفسه كأنهما يتسابقان مع الوقت. أعطاها الكنزة الملفوفة بورق أحمر لامع. ترددت قبل أن تفك الورقة عنها. ابتسمت بخجل وهي تتلمس الصوف الأزرق اللامع والأزرار النحاسية. قالت لماذا يصرف المال عليها؟ لديها ما يكفيها. بعد أن ارتدتها استدارت لتريه إياها من كل الجهات. قال إنها طويلة وواسعة، ربما كان يجدر به أن يشتري القياس الأصغر. قالت إنها تفضلها هكذا سيكون بامكانها لبسها لسنوات.

انتبه للون الجلد عند عقد الأصابع وللتشقق فيها. لما سألها أجابت ألا يقلق. الراهبة سألت الطبيب. وهي الآن بعد استخدام المراهم تحسّنت. قال إنها تشبه آثار الحروق. أخفتهما في جيبيها وقالت: سينقضي الوقت ونحن نحكي عن شيء بلا طعم.

أخرج من جيب قميصه رسالة أمه الأخيرة ناولها إياها. أبقتها مطوية دون أن تمسها. سألها: «ألن تقرئيها؟». فتحتها بحذر كأنها ملغومة. كانت أصابعها ترتعش، كأنها تخشى ما ستفعله الكلمات بها.

أولادي أحبائي روبير وكاميليا وجاين.

كيف حالكم؟ قلبي يتقطّع من الأخبار التي تصلنا. لو كان بامكاني أن أطير اليكم. ماذا أفعل والقدر يعاندني. أنوي على شيء فيحصل ما يقف في دربي. أردت السفر إلى لبنان فسبقتني اسرائيل. أنتظر أن يكبر أخوكم الآن ويدخل إلى الحضانة. عندما أسترجع عملي سأدخر كل قرش لأحضركم إلى هنا. المشكلة أن عمكم شارل يعمل وحده، وتكاليف الحياة هنا غالية لا أستطيع أن أطلب منه أكثر مما يفعل. قبل بكلّ طيبة خاطر رغم كونه أجنبياً أن يستقبلكم في بيته قائلاً إن أولادي هم أولاده وسيحبكم دون أن يميّز بينكم وبين أخيكم الصغير. الأجانب عادة مختلفون عنا. لكن عمكم شارل مختلف سترون كم ستحبونه.

أخوكم بدأ ينطق أولى كلماته. أريه صورتكم فيدلّ على روبير ويسميه « بير» وكاميليا «ماميلا»و جاين «اين» أما أنا فيناديني «لالا». أسأله عن مكانكم فيقول «بون» بدلاً من ليبون. قبل الرسالة الأخيرة مت قلقاً عليكم، المشاهد التي نراها على شاشة التلفزيون مفزعة، حتى أن شارل انفعل وقال إنه يستحيل أن يدعني أسافر إلى لبنان ولو ليوم. جدكم وجدتكم وأخوالكم هنا يسلمون عليكم. أحوال عملهم ليست مزدهرة لكنهم يكفون أنفسهم. كيف حال جدتكم هند أرجو أن تكون بصحة جيدة. قولوا لها إنني لن أنسى لا فضلها ولا فضل المرحوم جَدّكم.

يصعب عليّ أن أجد شخصاً مسافراً إلى لبنان لأرسل معه المكتوب. كما أن قليلين مستعدون لايصاله إلى الضيعة. فرحت بنجاحكم في المدرسة رغم أنني أتوقعه. لم أتمكّن هذه المرة من ارسال الهدايا، فالمسافر شخص غريب يصلح سيارته عند خالكم، كما أن الكثيرين هنا يحمّلونه أغراضاً ورسائل لأيصالها.

حبيبتي ابنتي الصغيرة جاين، شكراً لك على رسماتك الجميلة، وعلى كلماتك الحنونة. بكيت وأنا أقرأ بحبك ماما بحبك بابا. تأثر شارل عمك كثيراً لأنك ناديته بابا. وهو يقبلك وحين تأتين سيشتري لك الكثير من الألعاب.

أما ابني الكبير روبير فتعلم أنني أتكل عليك لتنتبه لأختيك ولتطيع جدتك وتسمع كلامها وتساعدها. لا تلته باللعب فقط، ساعدها قليلاً فأنت الآن شاب كبير وقوي والاتكال كله عليك.

أخيراً ابنتي حبيبتي كاميليا. أتذكرين كيف كنت تتمسكين بي ولا تفلتينني طوال سنتك الأولى في المدرسة؟ لماذا لا تكتبين لي أي كلمة. أحب أن أرى كلماتك مكتوبة بخطك لا أن يبلغني روبير سلامات منك. هل أنت زعلانة من الماما التي لا تمرّ لحظة دون أن تفكّر بك؟

ستجدون مع رسالتي صورة لي مع أخيكم. (انظروا كم كبر) اضافة إلى مبلغ بسيط (مئة دولار). كنت أتمنى لو أستطيع أكثر لكن الله كبير سيفرجها علينا. إلى أن أراكم أبوس عيونكم وأبوس كل نقطة فيكم. بلغوا سلامي للجميع خصوصاً جدتكم.

أمكم التي تموت فيكم

كارلا

نظرت كاميليا إلى الصورة. إلى الشعر القصير المصبوغ. الوزن الذي اكتسبته أمها بدّل ملامحها الدقيقة، كأنها أخرى. قدما أخيها الواقف في حضنها تضغطان بطنها فتبين تكتلات من الشحم. الابتسامة مختلفة عن

التي تتذكرها. لكنّ نظرتها لم تتبدل. نظرة هاربة حزينة.

سألت روبير إن كان يذكر المرة التي أدخلت فيها أمه شحاذاً إلى الصالون وقدمت له حلوى وليموناضة. سألوها عمن يكون فقالت إنه من الضيعة وقد أضاع ماله. عندما لاحظت استغرابهما ردّت: «إنه من ضيعة والدكم وجاء يدق بابنا، أقوم بواجب الضيافة وأعطيه أجرة الطريق. لماذا تنظران إليّ هكذا؟». ولم تفهم إلا بعد أن شرح لها روبير إن الضيعة لا تعني ضيعتهم، وهو شحاذ يدق أبواب الحي مردداً العبارة نفسها. كان والدهم يحبّ أن يسمع القصة على لسان روبير. يدعوه إلى سردها أمام الأهل، فتسرع كارلا إلى لكم ظهره بقبضتها.

ضحك روبير طويلاً كأنه نسي الحكاية واسترجعها الآن. كما تذكرا شجارها مع حارس الحديقة في السيوفي. كانت بعيدة عنهم تراقبهم يركبون الأراجيح حين رأت الحارس يقترب منهم فيتوقفون عن اللعب، ما كانت تعلم أنه الحارس. اقتربت منه وسألته كيف يسمح لنفسه بأن يخيف أولاداً لا يعرفهم. دافع الرجل عن نفسه، قائلاً بأنه يقوم بعمله. سألته إن كان مجنوناً ليعتبر ما يفعله عملاً. ردّ بأن العمل لا يعيب أحداً. ردّت عليه بغضب وجرّت أولادها خارجة مهددة بتبليغ الحراس. لم تفهم إلا لاحقاً بأن الرجل هو الحارس وطلب منهم عدم دفع الأراجيح عالياً جداً بسبب وقوع طفلة البارحة عنها. عندما تلتقي بأحد زملاء أبيهم في العمل تسأله عن زوجته مطلقة عليها اسماً غير اسمها، كما تسأل عن أولاد ليسوا له. يبتسم والدهم ولا يصحّح معلوماتها إلا حين يجتمعون، فتحمرّ خجلاً متسائلة عمّا سيقوله الرجل عنها وعن غبائها. ليراضيها كان يقول لها إن الأمر ليس بلاهة بل طرافة. يغضبها أنه لا يخبرها في حينه. تسأله: «أيسعدك أن تحرجني. لماذا لم تقل لي؟» الأمر يسوء مع الأقارب في الضيعة، حين تسأل عن الجد مثلاً ناسية أنه توفي منذ شهور. تكشف

أسراراً دون أن تنتبه. تسأل قريبة إن كان علاج عقم زوجها قد أتى بمفعوله. كل الاشارات والغمزات من والدهم لا تسكتها، لا بل تسأله بصوت عال: «ما بك تغمزني؟». فتحرجه.

كان روبير سعيداً بأن يتقاسم مع أخته ضحكات طلعت من أعماق القلب. قاما عن المقعد وتمشيا بمحاذاة السياج. الزهر الأبيض ضوى فوق أشجار الحامض. كان البستاني منحنياً يجمع بعض حبات حامض أو برتقال تساقطت تحت أمها. مدّ يده من فتحة السياج ليعطي كاميليا حبة كلمنتين رجعية. تراجعت إلى خلف بحذر وشكرته مخفية يديها خلف ظهرها. رغم اصراره لم تأخذها فتناولها روبير. لم يسألها عن السبب. هو أيضاً يفعل مثلها وحين يرسل ليقطف خضاراً أو فاكهة لا يخفي في جيوبه شيئاً كي يأكله خلسة. يحسّ بأن شيئاً سيئاً سيصيبه هو أو من يحب إن فعل. قد يكون الرهبان هم من زرعوا في نفسه هذه الخشية. لا يذكرأنه كان كذلك سابقاً. كثيراً ما أكل مع ابن عمته ميخايل من حقول الناس. كانا يتسللان إلى حقول «أبو رشيد» ليسرقا مقته وخياراً وبازيلا. كان الأمر يملؤهما حماسة وفرحاً.

سألها إن كات تودّ الاحتفاظ بالرسالة. قالت إنها لا تحب أن تجدها الراهبة معها فتقرأها.

-«بعد امتحانات البكالوريا سنعود إلى بيتنا في المروج.» قال.

-«وهل يدعوننا نفعل؟» سألت، قاصدة عمّاتها.

-«جدتي تركت لنا البيت. عرفت ذلك؟»

-«كيف نعيش ونحن صغيران لا نملك لا مالاً ولا عملاً؟»

-«كم تظنيننا سنحتاج في الصيف؟ أمي أرسلت لنا حتى الآن أربعمئة دولار. أودعتها مع عمتي. هل نسيت بأنني وفّرت ما أتقاضاه في الدروس الخصوصية.»

-«سنزرع الخضار ولن نحتاج إلى أشياء كثيرة نشتريها.» قالت وتذكّرت جدتها. سيكون كل شيء مختلف في غيابها.

خطرت له الفكرة نفسها فأطرق. رأى البنات يخرجن إلى الملعب متضاحكات. كل واحدة تلكز الأخرى ناظرة باتجاههما. سأل كاميليا إن كنّ سعيدات هكذا على الدوام. ردّت بأنهنّ سعيدات برؤيته. حكت كيف يتلصصن لمراقبته بعد أن وصفته فاديا والهام، ولولا الراهبات لقاسمنهما الجلسة. لم يخجل وحده، هي أيضاً احمرّ وجهها وأخفت عينيها بيدها كأنها ندمت على تسرّعها.

رجاها أن تقبل منه المال. أعادته إلى جيبه ثانية مدعية أنها لا تحتاجه كما أنه قد يُسرق منها.

وقفت قربه خلف البوابة الحديد. عندما رأى الحاجز الأسرائيلي في الجهة الثانية من البوابة، سألها أن تدلّه على مكان اختبائهم عندما تحصل عملية ضدهم. قالت هناك أماكن كثيرة، المهم أن تكون بعيدة عن البستان.

قال إنه لا يدري متى يراها ثانية لكن إن احتاجت إليه فلتقل «لأبونا سليم» وهو سيوصل إليه الخبر بسرعة. لم تدر لماذا أحزنها قوله، فشعرت بأن انتظارها سيطول هذه المرّة أيضاً.

- 55 -

«عندما أخذوني إلى المخيّم جعلوني أخلع حذائي وأبقى حافياً. ثم عصبوا عينيّ بجوربي. تركوني في العراء واقفاً تحت الشمس الحارقة معصوب العينين. منعوني من الحركة أو من إزاحة الرقعة عن عيني.

ساعات اعتقدت خلالها أنني سأموت من الشمس والعطش والرائحة. كانت الربطة البلاستيكية تشدّ على يديّ. كلما حركتهما ازداد الألم. بعدها أخضعوني للتحقيق دون أن يزيلوا العصبة، سألوا عن عائلتي وعملي وأسماء زملائي ومعارفي ثم أخذوا مني حزامي وساعتي ورباط حذائي وكل ما أحمله في جيوبي. رموني في مكان لم أعرف فيه العميل من الأسير فالتزمت الصمت. مرتين على الأقل في اليوم الواحد كانوا يقتادونني مع العصبة على عينيّ للتحقيق معي...

كنا نُعطى فضلات طعامهم فنجتمع خمسة على طبق لا يكفي واحداً... أحياناً كنا ننام لننسى الجوع أو نربط منشفة نشدها فوق بطوننا ليخفّ الألم. بعضنا كان يُرمى في زنزانة منفردة حتى يعترف بأنه حزبي أو في المقاومة. يُترك عشرين يوماً بلا طعام، يرسلون إليه من يأكل أمامه للضغط عليه ودفعه إلى الأعتراف... كان الحراس يشاهدون برنامجاً من المصارعة الحرّة، بتنا نعرف موعده ونخشاه. ينادون بعضنا ثمّ يكبلون أيدينا وأرجلنا ونتحوّل إلى كيس ملاكمة يجرّبون علينا ما شاهدوه من ركلات في الوجه والصدر والبطن وحتى في المناطق الحساسة...»

طوت كاميليا صفحة الجريدة وناولتها لعمّتها أديل. تحجّجت أديل بضعف نظرها كي لا تقرأ الكلمات بنفسها. لكن أثرها عليها لم يخف رغم التكرار. لم تستطع أن تتغلّب على شعورها بالتقصير. لم تحم ابنها جيداً. كان عليها أن تفعل المستحيل لابعاده إلى بيروت. حاولت برناديت أن تخفف عنها قائلة إن ذلك لا يحصل لكل المعتقلين. لم ترد وقالت: «جئت إلى المروج لأكون على سجيتي لا أريد أن يخفّف عني أحد لا أريد أن أُنبّه على صحتي. ولن أكذب على نفسي وأقول إن ابني حبيبي يعيش معزّزاً ومكرّماً.»

منذ عاد روبير وكاميليا إلى المروج وعمتهما أديل تزورهما أو تقضي

اليوم بطوله عندهما كأنها هجرت عائلتها. زوجها يقول إنها تجعل من روبير وكاميليا حجة لتبتعد عنهم. في لحظات الغضب يذكّرها قائلاً: «نحن في المركب نفسه أنسيت؟ أم أن متري هو ابنك وحدك؟ ابنتك ليست المسؤولة عن البيت. لتطبخ وتكنس وتغسل. لديها دروسها وشهادتها.»

أما روبير فملأه نجاحه في البكالوريا ببعض الراحة، سنة واحدة تفصله عن التخرج ما يعني أنه قد يجمع عائلته من جديد. يتطرّف في أحلامه أحياناً فيرى أمه بينهم. الليرات التي جمعها من التعليم أفادته ليصرف على البيت. لم تكن جاين تنام في المروج. تأتي مع عمتهم برناديت وترحل معها. شقّ على كاميليا أن تجمع أغراض جدتها وصوراً قديمة للعائلة. وجدت بينها الشهادة الابتدائية التي نالها والدها. لكنها توقفت أخيراً وقررت ترك كل شيء في موضعه، هكذا تحسّ أن جدتها لا تزال هنا.

صار أولاد عمتهم أديل يأتون إلى المروج. فأمهم تبدو كمن هجر البيت كذلك لحق بهم زوجها مشتكياً باستمرار من صعوبة المشي بالحر، متمنياً لو أن الطريق تزفت كي لا يضطر إلى ترك سيارته بعيداً. ثم اختفوا فجأة. مرّ يوم اثنان اسبوع ولم تأت لا أديل ولا أي من أولادها. وحدها عمتهم برناديت كانت تزورهما بوتيرة أقلّ من السابق. قالت التنقل بين بيتين يرهقها.

أديل انشغلت بضيف أتى ذات ليلة وطرق الباب بينما هم نيام. عندما رفع زوجها الصوت سائلاً من في الباب. همس أحدهم «أنا قادم من طرف متري» هرعت أديل بثياب النوم حافية، فتحت الباب لشاب لحيته سوداء كثيفة بشرته سوداء حرقتها الشمس. ارتمى أرضاً ما إن دخل. تجمعت حوله العائلة تحملق به بصمت. «أنا علي صديق متري». انتظروا أن يكمل لكن وهنه أسكته. قال إنه حاول التسلل في الوديان والحقول جهة باتر مع آخرين للذهاب إلى بيروت. لكن مروحيات اسرائيلية مشطت المنطقة

ونجا وحده بين رفاقه الثلاثة. مضت عليه أيام وهو يمشي إلى أن وصل. لا يعرف من يؤويه. فكّر بأن أحداً لن يبحث عنه في بيتهم بما إن متري معتقل. كان يسير ليلاً مختفياً في النهار وسط الحقول أو في المغاور. قال إنه أكل كل شيء وجده في الحقول. فرشوا له أرضاً في غرفة الجلوس. رغم جوعه وقذارته عجز عن الأكل والاستحمام. حنجرته آلمته كأن شفرة جرحت أوتارها. وضعوا قربه ابريق ماء. ظلّ يشرب منه بجرعات قليلة متأوّهاً كلما ابتلع. رجاهم أن يسمحوا له بالبقاء لثلاثة أيام حتى يستعيد قوته ويجد حلاً أو مكاناً. غفا بينما يحكي. نهضوا وجلسوا جميعهم فوق سرير أديل التي أبلغتهم أنها لن تتخلى عن علي. التفتت إلى زوجها منتظرة ممانعته، لكنه هزّ برأسه موافقاً. التستتر على وجود أحد في بيتهم كان أصعب ما واجههم في الأيام التالية. أين سينام وكيف سيتحرّك بين الغرف دون أن يراه أحد. هم في ضيعة ولا يغلقون أبوابهم حتى. لا يمكن ابقاء غرفة مغلقة من دون أن يثير ذلك حشرية الزوار من الأقارب والجيران. ليس هناك حلّ إلا غرفة المونة رغم ضيقها. وزعوا البصل والثوم وأكياس البطاطا والطحين وغيرها ما بين غرف البيت والمطبخ والتتخيتة. تركوا فقط البراد القديم المعطل. جعله علي خزانة. المشكلة الوحيدة هي الحمام خصوصاً إن كان هناك أحد غريب في البيت. احتاط للأمر بوضع سطل. في البراد المعطّل وضعوا له بضعة أرغفة من الخبز وزعتراً ومحارم وابريق ماء وعدة حلاقة مع مرآة صغيرة وفرشاة ومعجون أسنان. العائلة بأكملها انعزلت. امتنع أولاد أديل عن دعوة رفاقهم إلى بيتهم وكثر غيابهم عن البيت. تبدّلت أديل وزوجها. قلقهما على متري استمرّ ينغّص عليهما كل لحظة من حياتهما، لكن اهتمامهما بعلي عوّض عن فشلهما في حماية متري. كان علي اضافة لسماع الراديو يقرأ الجريدة التي عكف والد متري على شرائها. الحذر منعه من مقاسمتهم سهراتهم أو جلساتهم. احتمال أن يزورهم أحد وارد في أي

وقت. سألته أديل عن أهله الذين سوف يقلقون عليه وهم يجهلون إن كان حياً أم لا. قال إنه يفضّل ألا يعلموا شيئاً وإلا انكشف مخبأه وسيورّطهم معه. لم يعلم بوجوده أحد ولا حتى أقرب المقربين إليهم. سنة عاش فيها مشتاقاً للمطر لنور الشمس للسماء والنجوم. قام ببعض الحركات الرياضية بداية ثم سئم. كان وجهه يبيض يوماً بعد آخر حتى ما عاد يشبه الشخص الذي كانه. الغرفة التي بقي فيها لأكثر من سنة بلا نافذة فيها كوة صغيرة في أعلاها. كان كالمساجين ينظر عبرها مستلقياً فوق فراشه. إن حالفه الحظ يرى القمر أو نجمة ما. يظلّ يراقبها حتى يغفو وهو يحدّق بالنور البعيد.

استغرب روبير انقطاع عائلة عمته أديل عن المجيء إلى المروج. خاف أن يكون قد فعل ما زعّلهم منه.

أيام مرّت وهما وحدهما. عملا معاً في الحقل، وحضّرا طعامهما. مساء لعبا بالورق، كما أعادا قراءة الكتب التي في البيت، أحياناً كانا يجلسان فوق الافريز ويتباريان بقذف الحصى، حكيا عن الدير فيما يورقان الملوخية أو يكسّران اللوز. ثم ذات ليلة استيقظ على صوت غريب جهة المرج. نهض راكضاً ليجد كاميليا مطوية على ذاتها تتقيأ. لم تقبل أن يغلي لها شاياً أو نعناعاً قالت إنه انزعاج عابر. لكن الاسهال تبع التقيؤ. كان خائفاً لا يدري ماذا يفعل ليوقف ألمها. أبعدته عنها كي لا يقرف ويشمّ الروائح الفظيعة، قرّب دلو ماء وراح يغسل وجهها وأطرافها. حاول أن يعيدها إلى فراشها لكن قدميها لم تحملاها. حملها ومددها على فراشه فوق المصطبة. كانت شاحبة تعصر بطنها طاوية ركبتيها كأنها جنين. مسح وجهها بخرقة بللها بماء الورد. كانت تهدأ للحظات ثم تهب ثانية جهة المرج لتتقيأ. بكت قائلة أنها وسخت فراشه والمصطبة. رفع رأسها ووضعه فوق ركبته. حاول أن يلهيها عن وجعها مشيراً إلى النجمات في السماء ذاكراً أسماءها. كانت يده تجسّ رأسها الساخن وشعرها المبتلّ فتغمض عينيها لثوان قبل أن تعود

التقلصات. القصعين الذي شرّبها إياه بالملعقة زاد من غثيانها وألم بطنها. بكى بينما يسندها لتتقيأ ثانية. لا أحد يملك سيارة في الجوار. ليس في البيوت المجاورة إلا عجائز. أولادهم في بيروت. وجد نفسه يدق باب «أبو رشيد» بقوة غير مبال لا بالوقت ولا بقدميه الحافيتين اللتين جرحتهما الحجارة. لم يعرف أنه يبكي إلا حين قال له العجوز:لا تبك يا ابني. وجع البطن لا يقتل أحداً. هل أكلت شيئاً مرشوشاً؟ أتريد أن تذهب أم رشيد لتراها.

-«أريد أن أستعير الحمار. أنا أمشي لكن كاميليا لا تستطيع الوقوف.» قال مشيراً بيده جهة الزريبة.

-«لن تستفيد من الذهاب إلى الضيعة ليلاً. لا مستوصف ولا أحد. اتكل على الله وانتظر الصباح وأم رشيد ستغلي لها زهورات». ردّ بينما يتبع روبير.

وضعا الخرج فوق ظهر الحمار. قال أبو رشيد شيئاً بشأن ركوبه وطريقة معاملته لكن روبير كان قد ابتعد شاداً الرسن بكل قوته كأنه يقود سيارة لا حماراً عنيداً.

اضطرّ لأن يركب هو أيضاً الحمار ليتمكّن من الامساك بها. القوة خرجت من جسمها. تلاشت مرتخية الاوصال فوق ظهر الحمار. نهيقه ارتفع موقظاً النيام فوق مصاطب أو سطوح المنازل. ظلّ روبير طوال الطريق يضغط على الفوطة الرطبة فوق جبهتها الساخنة. كان يبكي ويصلي. يدللها مردداً بصوت مخنوق: «ميلا حبيبتي وصلنا افتحي عينيك قليلاً». لكنها بدت غائبة عن الوعي. كانت التقلصات القوية المباغتة توقظها فتفتح عينيها غير دارية ما يحدث. لعن نفسه مليون مرة مفكراً أنه السبب في ما حصل لها. أليس هو من قال لها ألا تغسل الخضار لأنها من حديقتهم ودون مبيدات؟ الحمار سار كمن حفظ الدرب. توقّف قليلاً في الطلعات لكن ركلات روبير كانت تسيّره ثانية.

وصل أخيراً أمام بيت عمته، لم يعرف كيف ينزل عن الحمار دون أن يبعد يديه الممسكتين بأخته. نهق الحمار وعاد للسير. تجاوز بيت عمته. لم ينتبه روبير لنفسه وهو يشتم الحمار وساعته بصوت عال. الحمار زاد نهيقه كان يؤرجح ذيله يميناً وشمالاً كأنه يحتج. بعضهم استيقظ ونظر نحوهم مستغرباً. لحسن حظه أن زوج أديل أيضاً نهض وبعد أن حدّق بهم طويلاً قال غير متأكد:روبير؟

كان اليومان اللذان قضياهما عند عمته طويلين. بقي خلالهما روبير ملازماً لكاميليا. هو من يشرّبها سائل المصل ويسندها لدخول الحمام. يعطيها الأدوية ويقيس حرارتها. لون بنفسجي رسم هالة حول عينيها. قال الطبيب في المستوصف إنها حالة تسمم. اعترضت عمته عندما طلب منها بعضاً من المال المرسل من أمه. قالت: «دعه للطوارئ أنا أعطيك ما تحتاجه.» ردّ: «لن يكون هناك طارئ أهمّ من مرض كاميليا.»

بعد يومين ورغم وضعف كاميليا عادا إلى المروج. روبيرعلى ظهر الحمار وكاميليا في سيارة زوج عمتها.

- 56 -

بعد العطلة لم تعد إلهام. طال غيابها، فقدّر الجميع أنها قد تكون تركت الدير. أخبرتهن الأخت فرنسواز بأن والدها ربّما يئس من تعليمها أخيراً. عتبت على عائلتها التي لم تكلّف خاطرها بابلاغ الدير وشكر الراهبات اللواتي قمن بتربيتها حتى صارت صبية راشدة. قالت إنها بلا وفاء كاللواتي سبقنها.

افتقدت البنات حضورإلهام، ولفّ مكان نومهن صمت غير معهود. ثرثرة فاديا لم تجذبهن ولا الأخبار التي كانت تسردها مُقْسِمة أنها صحيحة. كانت كاميليا أكثر من أحسّ بثقل غيابها. مرض الأخت كلود زاد الجوّ حولهن ترقباً. لم تعرف أي منهن ما طبيعة مرضها. بعد كل زيارة للدكتور فضول، كانت فاديا تتسلل بحجة أو بأخرى لتسمع ما يقول، لكن الراهبات كن يطردنها بعيداً. في الأيام التالية جاءت ممرضة في الخمسينات لتلازم الأخت كلود. كانت امرأة بدينة صاخبة، تخاطب الراهبات دون كلفة، تنتقد طعام الطباخة في حضورها وتعلّمها طرقاً أفضل لتحضير الطبخة. تدخّن بشراهة سيجارة تلو الأخرى دون أن تهتمّ للاستغراب الذي تثيره تصرفاتها.

عندما ترى البنات غرفة الراهبة مقفلة يعرفن أنها في المستشفى لأيام. لا أحد يطلب منهن تنظيف غرفتها. كأنها تحوي أسراراً محرّمة عليهن. عندما تعود برفقة الممرضة تبدو أشد إعياء وضعفاً من السابق. ليس فيها قوة لتثبّت رأسها أو ترفع جذعها.

كانت روزيت تخاف من الممرضة. تخاف من منظر الأخت كلود وقد برزت العظام في وجهها. تخاف من الرصاص والتمشيط الذي زاد مؤخراً حتى صارت تبلّل فراشها كل ليلة. هدّدتها الراهبة بأنها في حال استمرّت في ذلك ستفضحها أمام رفيقات صفها جميعاً. امتنعت روزيت عن الاستلقاء في سريرها. كانت تجلس فقط لتمنع النوم عنها. اغفاءة سريعة كافية لتتبوّل دون أن تحسّ. بكاؤها يوقظ كاميليا. كان صعباً أن تبدلا الشراشف وثياب روزيت دون أن يُكتشَف الأمر لاحقاً. زاد في إرباكها أن البنات صرن ينادينها:الشخاخة بدلاً من القزمة. اطلاق الألقاب كان شائعاً بينهن. الراهبات أيضاً يستخدمن ألقاباً لمناداة معظمهنّ. روزيت «القصيرة»، فاديا «اللسان»، إلهام «البلهاء السعيدة»، وكاميليا «الدوري».

وهي تسمية لم تحزر سببها، خمّنت أن صوتها هو السبب، لكن لماذا الدوري؟ هناك عصافير أخرى صوتها أجمل.

صارت روزيت بعد اطفاء الأنوار تندسّ في فراش كاميليا. أرادت كاميليا أن تزجرها، لكنها حزنت عليها وأحسّت بها صغيرة كأنها جاين فامتنعت عن ابعادها. هكذا توقفت روزيت عن التبوّل أثناء النوم. أرادت كاميليا أن تقنعها بالنوم مجدداً في سريرها، لكن بكاءها كان يفطر قلبها فتضع يدها فوق رأسها لتسكتها. بعد موت الأخت كلود صارت تخاف روزيت السير وحدها في الممرات، المهمات التي توكل بها منفردة لا تؤديها ولو تسببت لنفسها بعقاب صارم. زاد من سوء حالتها غياب أهلها الطويل عن زيارتها. الجميع علمن أن والد روزيت مريض ولا يغادر الفراش منذ مدة.

موت الأخت كلود كان سريعاً. بين مرضها وموتها أقل من شهرين. رغم الصداقة بينها وبين المديرة كانت الأخت مونيك أكثر من عانى لموتها. افتقدت كاميليا اللحظات الخاطفة برفقة الأخت مونيك تتعلم فيها البيانو. كانت طوال الأسبوع تتخيّل النغمات داخل رأسها. لم تمتنع عن تعليمها وحدها بل ألغت ساعات تعليم التلميذات في القسم الخارجي. موسيقاها ما عادت تتخلّل نهاراتهن.

قبل أن يتمركز الجيش اللبناني على الحاجز القريب من الدير بأيام، اقتحم الجنود الاسرائيليون الدير. لم تقف الأخت مونيك بوجههم كما تفعل عادة. لم تخاطبهم بالعبرية التي تتقنها. أطلقوا النار على البوابة وهجموا كأن الدير قلعة للعدو. البنات والعاملات والبستاني العجوز كلهم أوقفوا بمحاذاة الجدار رافعين الأيدي. البستاني فُتّش وأقتيد للاستجواب بحجة أن المقاومين تسلّلوا إليهم من بستان الدير. اتهموه بالتواطؤ مع رجال المقاومة. دوريتهم جمعت الطلقات الفارغة من البستان. ثم أخضعوا الراهبات للاستجواب كل واحدة على حدة. في الأيام التي

سبقت انسحابهم من صيدا كانوا يوقفون السيارات طويلاً عند الحواجز ويطابون من ركاب السيارة الواحدة إن اكتشفوا انتماءهم لديانات مختلفة بأن يتبادلوا الشتائم. أو ينزلونهم ويأمرونهم بالركوع لساعات، قبل أن يَدَعوهم وشأنهم.

ركضت المديرة خلفهم حين اقتادوا البستاني. كانوا يضربون ظهره بعقب الرشاش فيتأرجح متفادياً الوقوع. زجروها واصفين إياها بالمخربة رافعين بنادقهم باتجاهها. أطلقوه بعد ثلاثة أيام. عاد مهزوماً لا يقول سوى:عمري خمس وسبعون سنة. قال لاحقاً للمديرة إنه نال كفايته من الحياة وسيعود إلى ضيعته. هكذا اختفى من حياتهن وجه آخر اعتدن عليه وعلى رؤيته يحكي مع الورود والشتول كأنها تسمع وتفهم. كثيراً ما ذكّر كاميليا بجدها جبرايل. عندما قالت لروبير ذلك ردّ ضاحكاً: نعم يتشابهان، كلاهما رجل وعجوز وأشيب.

فرحت كاميليا عندما سألها الأب سليم إن كانت تريد شيئاً من أخيها فكتبت له رسالة قصيرة.

أخي الحبيب روبير

اشتقت إليك كثيراً. هذا لا يعني بأنني أريد منك أن تزورني. الأحوال ليست جيدة هنا كما لا بدّ سمعت. أريد أن أشكرك على الكلسات التي أرسلتها لي. لكنني زعلت لأنك أرسلت لي مالاً. كم مرّة رجوتك ألا تفعل؟ أحتار كيف أخفيه وأين أخبّئه. إن سُرِق مني سأزعل لأنك تعبت لتدّخره.

عسى تكون بخير. كيف حال دروسك؟ أحاول أن أتخيّل شعورك وأنت في سنتك المدرسية الأخيرة. أمامي ثلاث سنوات بعد. أحسّها طويلة جداً. لأول مرة منذ وجودي في الدير أحلّ في المرتبة الأولى في الامتحانات الفصلية. كنت سعيدة جداً، أردت أن أتشارك هذا الخبر مع أحد لكن كيف الوصول إليك وأنت بعيد؟ من فرحتي أخبرت الأب سليم أثناء الاعتراف. أكيد ظنني بلهاء

فما علاقة هذا بالخطايا؟ لكنني لم أحب عندما قالت الريسة للتلميذات بأنني رغم يتمي وفقري سبقتهن جميعاً. أفسدت عليّ فرحتي وكرهت العيون تنظر إليّ وهي تعلّق وساماً فوق صدري. إنه وسام ذهبي جميل. لكنني لا أظنّه من ذهب حقاً كما تقول التلميذات. يبقى مدة أسبوعين معلّقاً قبل أن نردّه للراهبة. عندما أرافق الراهبة إلى السوبرماركت أخجل لأن الناس ينظرون إلى الوسام وينتبهون إليّ. عندما استأذنت لأنزعه خارج المدرسة. أجابتني بأن عليّ أن أرفع رأسي لا أن أخجل. لكنني أخجل، وألبس الكنزة فوقه لأخفيه.

البستاني رحل إلى ضيعته. صارت الأخت جانيت تهتمّ بالحديقة ولا تقبل غيري لأساعدها منذ اكتشفت معرفتي بطريقة الزرع والتشحيل والسقاية. البستان مهمل حالياً، حبات الحامض والبرتقال التي تحت أمها أكثر من التي فوق الشجر. منظر يحزن القلب. لا أدري لماذا لا يوظفن بستانياً آخر. تقول فاديا إنهن يبحثن عن عجوز لا عن شاب. صنعت لجاين حقيبة تشبه حقائب اليد النسائية. تعلمت ذلك من مجلة قديمة أعطتني إياها الأخت جانيت. لديها الكثير من المجلات التي تعلّم البستنة والحياكة والتطريز وأشياء أخرى. خبأت لك الأعداد التي تهمك. لا أدري متى أراك ثانية. لكنني أحبّ أن أتخيّل العطلة في المروج. أتظنّ أن جاين ستتذكرنا؟ قريباً ستبلغ الحادية عشرة من عمرها. ربّما لن تعجبها حقيبة مصنوعة من بقايا أقمشة. الآن أقبّلك وأتمنى أن تكون مرتاحاً. ودمت لأختك التي تحبّك.

كاميليا

ألصقت طرفي الورقة بلاصق وصنعت مظروفاً كتبت عليه: يصل إلى يد أخي روبير أسطفان.

- 57 -

امتلأت البيوت، حتى المتداعية والقديمة، بشباب القوات الذين قدموا من بيروت وأقليم الخروب. ما عاد ميشال يلتقي بوجوه أَلِفَها. وبات يفضّل لأوّل مرّة منذ سكنه هنا أن يستقل سيارة أجرة عند عودته مساء. في الصباح فقط بمشي سالكاً الدروب الداخلية نفسها. الشباب الذين دعوه لاجتماع عندما سكن هنا، يتظاهرون بعدم معرفته حين يلتقون به. هو أيضاً توقّف عن إلقاء التحية عليهم. لم يحرس برفقتهم المركز إلا مرة واحدة. بعدها قالوا إن غيره سيقوم بالمهمة وإنهم لا يحتاجونه. كان لا يتلقى الكثير من الزيارات. مالك البيت يأتي مع زوجته في آخر كل شهر لقبض الإيجار. يمكثان لوقت طويل يحتار خلاله بماذا يحدثهما وتتحوّل الزيارة إلى سؤال متكرر منهما عن أحوال والدته وصحتها وعن عمله ومعاشه. الفتاة المشطوبة الوجه كانت تأتي من حين لآخر لتدقّ بابه وترفض الدخول حين يدعوها. يضطرّ للخروج والوقوف للحديث معها. يضع لها كرسياً لتجلس لكنها لا تفعل وتظلّ تلتفت حولها طوال فترة بقائها. يضيق بزياراتها خصوصاً بعد أن انتبه إلى أن تعليقاتها التي أضحكته بداية لا علاقة لها بالطرافة. كانت ساذجة وبسيطة. حتى اسمها ظلّ ينساه. لينهي زيارتها يدعوها لتأكل معه. عندها تفهم أنها قاطعت عشاءه فتنصرف. أحياناً كان يلمحها قادمة فيطفئ اللمبة قبل وصولها متظاهراً بأنه ليس في البيت. يستغرب إصرارها ودقّها الباب لدقائق.

صونيا وفت بوعدها، وكلّمت من أجله محامياً ليبدأ عنده تدرجه بعد شهور. صاحب السوبرماركت أيضاً وافق على تخفيض أجره على أن يعمل لساعات أقلّ.

لو ملك القوة الكافية لفتّش عن سكن آخر. لا يحبّ الشبان الجدد الذين غزوا المنطقة وراحوا ينظرون إليه كأنه مشبوه.

لم يذهب إلى ضيعته منذ عطلة الأضحى. لكنه يعرف كل الأخبار من أمه أو من صونيا التي تتخطى ارتباكها منه بأن تسرد عليه في دقائق كل الأخبار التي تعرفها. هكذا علم أن أهل متري أصيبوا بخيبة كبيرة حين لم يكن متري بين دفعة الأسرى المحرّرين. أخت متري أجّلت خطبتها أيضاً. قالت إنها لن تخطب أو تتزوج إلا بحضور أخيها. كما علم أن زينب تزوجت من زميل لها، ذكرت صونيا اسم زوجها لكنه نسيه. الخبر أحزنه. فكّر بمتري بنفسه وبنجمة التي لن يلتقيها ولو صدفة. أختها لوريس تسجلّت في الجامعة اليسوعية لتتخصّص في إدارة الأعمال. عندما سألها عن القسط، أخبرته بأن ماري لم ترد للوريس أختهما أن تتسجل في اللبنانية، بم ستتخصّص وكل فروعها نظرية؟ صحيح أن ذلك مكلف، لكن بعد ثلاث سنوات ستتخرّج وتجد فرص عمل جيدة. في كل مرة كان يدعو صونيا لتزوره قائلاً إنه يوم جمعه وكلاهما في عطلة. أراد حقاً أن تغفر له، في أعماقه يعلم أنه تصرّف بشكل مخجل. الله عاقبه وجعله يتعذّب ويعيش كأن كلّ شيء حوله بلا لون أو رائحة. ينظر إلى صونيا ويراها تتحوّل مع الأيام. ربما عملها هو السبب. قالت إنها ليست سكرتيرة فقط، بل بدأت منذ سنة تساعد في القضايا وتقوم بأبحاث في المراجع والأحكام. تكتب وحدها العقود وتعدّ الكثير من مسودّات الدفوع.

مرة واحدة قبلت دعوته إلى مقهى قريب من ساحة النجمة. أثناء سيرهما اكتشف أن الكلام نفذ منه، بماذا سيحدّثها الآن؟ أيخبرها عن أسعار الطحين وشحنة المعلبات التي تأخرت؟ أحسّ أن لا شيء في حياته يصلح لخبر أو قصة. مشيا متأملَيْن رذاذاً سقط ناعماً فوق وجههما. أحكمت صونيا الشال حول رقبتها وأسرعت كأنها تمشي وحدها. في المقهى كان

هناك شبان من عمرهم. تجمع أكثر من عشرة حول طاولة صغيرة. تساءل ميشال لماذا ينحشرون هكذا والمقهى شبه فارغ؟ كانوا يشربون القهوة في فناجين بيضاء كبيرة ويقرأون الصحف ساكتين أو يدلّ أحدهما الآخر على خبر أو مقالة فينشغل بقراءتها. النادل يقترب منهم ويفهم دون كلام رغبتهم بفنجان آخر. بعضهم يناديه باسمه. هو شبك يديه وتأمل آثار العمل وحمل الأكياس والصناديق عليهما. أخبرته كأنها تزيح هماً عنها أن هناك شاباً لديه مكتب محاسبة في البناية التي تعمل بها ثم سكتت. فهم وانتبه إلى سرّ ارتباكها. ربما حاولت مراراً أن تخبره وهو لم يساعدها. قال لها:أنا سعيد من أجلك. كرّر العبارة ثلاث مرات دون أن ينتبه. كأنه يحكي مع نفسه.

طلبت صونيا كنافة وهو طلب قطعة كاتو أحبّ منظرها في البراد. أكلا وهما ينظران إلى الناس يسرعون فوق الرصيف وقد قوي الهواء وراح يبعثر شعرهم ويطيّر ثيابهم. أحسّ ميشال أنه وحيد. أراد أن يخرج ويسير طويلاً. الفاتورة أذهلته. لم يصدّق المبلغ الذي عليه دفعه. كأن صونيا حزرت فحاولت أن تنتزع الفاتورة من يده، لكنه أبعدها بحزم. قال في سره بأن عليه لبعض الوقت الاكتفاء بالزعتر والخبز. تذكر حمزة وكيف سأله مرة: ألا تضجر من أكل الأشياء نفسها مراراً وتكراراً؟ كان محكوماً عليه طوال فترة اختبائه بأن يأكل مثله البطاطا المسلوقة والزعتر والسردين المعلّب. لا يأكلان اللبنة المكبوسة إلا مرة في الأسبوع.

دقّق ثانية بالفاتورة قبل أن يعد النقود مرتين. أمام رصيف المقهى ودّعها ومشى باتجاه البحر. كان الوحيد هناك. الطقس تحوّل إلى عاصف. الموج ضرب الافريز الباطون وبلله بزبده المالح. تجاوز حاجز الجيش عند الجهة الشرقية وانعطف ناحية البساتين. كانت السيارات تحدث صوتاً قوياً. بسبب الحُفَر وترشّه بالمطر الموحل. طلقات نارية فرقعت في الهواء. قدماه ثقلتا. لم يدر كم من الوقت مشى. عندما تجاوز الكنيسة شمّ

رائحة الفراريج من محلّ يبيع السندويشات، أمام المحل ثلاث طاولات جلس حولها شبان بعضهم مسلّح. ضحكاتهم المصحوبة بالشتائم ظلّت تلاحقه حتى حين دخل زاروباً بعيداً. فكّر أن عليه بدءاً من الغد أن يبحث عن سكن جديد.

كانت الكهرباء مقطوعة عندما دخل البيت. أشعل شمعة وسخّن ماء ليغتسل. بعد أن سخن الماء فترت همته، رغم ذلك قام ليستحمّ كي لا يكون هَدَرَ الغاز عبثاً. البرد قوي في البيت. ظلّ يرتجف بينما يفرك جسمه وشعره بأقصى سرعة. التفّ بالبطانية الصوف لوقت حتى تعود الحرارة إلى جسمه. أراد أن يأكل لقمة يسدّ بها جوعه الكبير. باستثناء قطعة الكاتو لم يأكل شيئاً. لكنه غفا جالساً يستمع إلى نشرة أخبار تصله مشوشة غير واضحة. حلم أنه يسبح واستغرب السهولة التي يشقّ بها جسمه البحر. لم يسبق له أن تعلّم السباحة وها هو يسبح متأملاً أسماكاً فضية تحته وماء صافياً رقراقاً. في لحظة صار الموج أسود وهو يغرق. يدفع جسمه خارج الماء فيهبط إلى القعر كأن يداً فولاذية تسحق رقبته وتسقطه بعنف. عندما فتح عينيه كانت اليد الثقيلة نفسها تلوي رقبته نزولاً. رأى الجزمات والأحذية. لم يرَ الوجوه. عصبوا عينيه وربطوا يديه خلف ظهره. في الخارج صرخ بصوت عال، فأسكتوه بضربة على رأسه. الضربة لم تفقده وعيه لكنه أحسَّ بالدم يسيل لزجاً فوق رقبته. دفعوه إلى صندوق السيارة فأرجع جذعه إلى خلف رافساً بقدميه. «يا أخو الشرموطة يا كلب يا شيوعي». صرخ أحدهم بعد أن أصابته الرفسة في مكان آلمه. عرفه من صوته. إنه أخو الفتاة المشطوبة الوجه. لكن لماذا يفعلون به هكذا؟ ضرب بكوعه بطن أحدهم. كل جسمه كان يقاوم متحركاً في كلّ الاتجاهات. الألم في أضلاعه صار لا يطاق. بعد الصرخة الثانية. ضربوا فكّه. سمع تكسّر عظامه وغاب كل شيء. حين حشروه أخيراً في صندوق السيارة كان فاقداً لوعيه. انطلقت

السيارة. كان أحد المسلحين يتلمس أنفه النازف ويستمرّ بشتم ابن الكلب الفاجر الواطي.

- 58 -

لم يخطرللعاملين في شرق صيدا، أن هذا اليوم الربيعي المشمس سيكون مختلفاً عما سبقه. عندما سمعوا بالحواجز التي أقامتها القوات اللبنانية تركوا عملهم للعودة إلى بيوتهم. بعضهم لم يصل. وبعضهم تسلّل مشياً في الطرقات الوعرة. وقسم خُطف. الخوف دفع بالمسلمين الذين يسكنون تلك القرى إلى مغادرتها. لم تسنح لهم الفرصة بحمل أي شيء ثمين. تركوا المال والمجوهرات. كثيرون لا يذكرون كيف وصلوا إلى صيدا.

ايواء العائلات الهاربة استدعى فتح المدارس واحتلال بيوت المسيحيين الذين فروا بدورهم من صيدا. المسلحون حموا الدير بعد أن حاولت مجموعة إدخال عائلات هاربة من ضواحي مخيّم عين الحلوة. عند البوابة الرئيسية وقف حراس مسلحون. كانوا يدخلون ما إن يقوى القصف أو تزداد حدة القنص. خلعوا ثيابهم العسكرية كي لا يميّزها منظار القناصين. القذائف التي تُطلق باتجاه التلال كانت تُرى بالعين المجرّدة وهي تنفجر. بداية حاولت المديرة أن تخصّص لهم مكاناً معزولاً عنهم ليختبئوا فيه. يأكلون في المطبخ بعد خروج الراهبات منه. لكن هذا التدبير لم يَعُد يصلح حين قوي القصف. وبات الكل يجتمع في المطبخ جهة البحر. من البنات لم يبق إلا كاميليا. عندما أقيمت الحواجز، ومنذ اليوم الأول، قَدِمَ الأهالي وأخذوا بناتهم. أهل فاديا اصطحبوا روزيت لأن أمها لم تستطع

ترك زوجها المريض. ارتاحت الراهبات للتخلّص من مسؤوليتهن. سألن طويلاً كاميليا إن كان لديها أقارب يسكنون في إحدى تلك القرى فترحل مع البنات. سكتت ولم تجب. ظنّت أن واحدة من عماتها ربما تأتي في الأيام القادمة لتصطحبها، لكن الأيام كرّت. القنص منع الناس من التوجه إلى أعمالهم. بعضهم كان ينام في موقع عمله كالممرضين والأطباء في المستشفيات. عرفت كاميليا كل الأخبار من الحراس. أسماء القتلى من المتطوعين في الصليب الأحمر، المخطوفون والمفقودون أنواع القذائف والأسلحة المستخدمة، كما علمت كيف تميّز عن طريق الصوت إن كانت القذيفة تُطلق أو تنفجر. منذ اليوم الأول انتقلن من النوم في الطابق الأخير وفرشن في ممر داخلي من الطابق الأرضي. الجوّ يصبح خانقاً ليلاً فلا منفذ للهواء. جدران تحيط بهن من كلّ جانب. كاميليا وجدت صعوبة في النوم ليلة بعد أخرى. ماذا لو بقي الحال هكذا؟ هذا السؤال ظلّ يؤرقها. تحاول أن تنسى وتستمع إلى غطيط النوم حولها. لكن اضطرابها زاد مع عنف القصف المتزايد يوماً بعد آخر. عندما تجرّأت وسألت واحداً من الحراس إن كان الوضع سيبقى على حاله. طمأنها ورسم لها خريطة ليريها كيف سيطبقون قريباً على هذه القرى من كل جانب، قال كالكماشة وابتسم. صحيح أن المروج بعيدة عن هذه القرى، لكن أهلها ألن يخافوا. لم تجرؤ أن تسأل أحدهم عمّا حلّ بقريتهم. كأن عدم ذكرها سيبعد مصيراً مشؤوماً عنها. خوفها الكبير كان على روبير. من يضمن ألا تقع هذه القذائف العمياء فوق الدير؟ كلما خطر لها أن تسأل المديرة إن كانت تعلم شيئاً عن أخيها والرهبان، تخاف من السؤال وتسكت. إن قالت بأن لا أخبار ستظنّ أنها تخفي عنها الحقيقة. وإن طمأنتها ستشكّ بصدقها. القلق دفعها إلى حركة لا تهدأ. كانت تنهض قبلهن، تساعد الطباخة، ثم عندما يجلسن للترويقة تذهب إلى مكان نومهن وتنفض الملاءات أو تستبدلها بأخرى نظيفة.

تساعد بعدها في الجلي قبل أن تنظف الحمامات التي يستخدمونها. حين يهدأ القنص قليلاً، تخرج مع الأخت جانيت للعمل في الحديقة، تنظّف الكنيسة. وتمسح مقاعدها. دائماً في حركة لا تتوقّف. يقلن لها أن ترتاح، لكن جمودها في مكان يملؤها مجدداً بالخوف. الصلاة لا تهدئها، ولا تخيّل بيت بعيد تعيش فيه مع أخوتها. تأكل رغماً عنها. تحاول أن تدرس كما نصحتها الأخت مونيك، وأن تفكّر بأن كلّ شيء سينتهي وستنجح هي وروبير في شهادتيهما. تقرأ كلمة ويتشتت ذهنها.

تقدُّم الفلسطينيين ومسلّحي الأحزاب والتنظيم الشعبي باتجاه قرى شرق صيدا أعادهنّ إلى غرفهن، وأعادها هي إلى وحدتها وسط الأسِرَّة الفارغة. الحراس رحلوا. الأخبار عن ترك الناس تلك القرى بعد انسحاب القوات أخرجها عن هدوئها الظاهري. في اليوم التالي قلقت الراهبات حينما لم يجدنها في المطبخ. تفقدتها الأخت جانيت فوجدتها في السرير وقد غمرت رأسها بالشرشف متشبثة بطرفه كما تفعل روزيت. سألتها إن كانت مريضة فلم تردّ. كان جسمها مشدوداً. حاولت أن تنطق بكلمة. لم تسطع. بعد قليل جاءت الأخت مونيك. قالت إنها ستصحبها إلى مركز الصليب الأحمر. بامكانها أن ترسل رسالة شفوية لأخيها وهم سيوصلون بدورهم رداً منه. داعبت شعرها وقالت لها: «قومي واغسلي وجهك. سنصلّي معاً ثم نخرج».

الأيام التالية حملت إلى كاميليا مزيداً من الاضطراب. سمعت أن عائلة مسيحية مؤلفة من رجل عجوز وزوجته وجدا مقتولَيْن في عبرا، بعد أن رفضا الهرب كالعائلات الأخرى. كل طرف رمى على الآخر مسؤولية مقتلهما، لكن مثل هذه القصص تكرّرت. بعضها حصل في صيدا أيضاً. بعد ساعات على تقدم الأحزاب والفلسطينيين إلى عمق تلك القرى، بدأت سرقة الأموال والمجوهرات، بعدها جاءت شاحنات تفرغ البيوت

من أثاثها، ثم جاء دور البلاط وقضبان الحديد في الأساسات. بعد أسبوع كان المارّ على خط تلك القرى لا يرى إلا أثاراً متفحمة لما كان ماضياً بيتاً أو مدرسة أو مطعماً.

عشرة أيام من الانتظار دفعت كاميليا إلى صمت مطبق وشبه صوم عن الطعام. أخيراً وصلتها رسالة شفوية من روبير. راح المتطوع في الصليب الأحمر يقرأها عليها بحضور الأخت مونيك: «أختي الحبيبة. أنا منيح. ما ينشغل بالك عليّ. عندما يسمح الظرف سنلتقي في بيتنا في المروج. عماتك بخير. وجاين أيضاً. بلغي شكري وامتناني لكل الراهبات. إن شاء الله نجتمع قريباً. انتبهي لنفسك. حفظك الربّ.»

في سيرهما عائدتين انتبهت كاميليا إلى الشوارع كأنها تراها لأول مرة. استغربت أن ترى كلّ شيء على حاله، الحرّ بدأ يشتدّ، تذكّرت البنات رفيقاتها، ترى أين أصبحن بعد هذا التهجير؟ الراهبات أيضاً لم يعرفن أي خبر عن البنات وعوائلهن. أحد المسلحين تفقّد بيت روزيت خدمة للمديرة. قال إن ليس فيه أحد. لم يخبرها أنه محروق ومتداع ككلّ البيوت حوله.

- 59 -

عينا متري تعلّقتا بالحشود الهائلة. كم مرة فكر بهذه اللحظة؟ ظلّ يرسم مراراً وتكراراً لقاءه بأهله وبرفاقه وبزينب. هرب كغيره من الجوع والتعذيب والقذارة ليحلم بيوم يخرج فيه حرّاً. يوم يرى الشمس والحقول ووجوه الناس. يوم يسير على هواه فيما النسيم يدغدغ جسمه، اشتاق لمذاق أطعمة حتى تلك التي لم يكن يحبّها. أراد أن يحسّ بالماء ينصبّ

عليه غزيراً فيغسله من قذارة دامت سنوات. حلم بليل وبقمر وبنجوم، وبالنوم مغموراً باللحاف. اشتاق أن يضجر كما كان يفعل. افتقد الكلام والضحك والخِفّة.

حشود ضجت بالبكاء وبالتصفيق. أسماء ينادى عليها. حلقة رقص وأغان.

قلبه لم يهدأ منذ اللحظة التي حُرّرفيها. عندما رآهم كانت أخته تشير إليه بيدها واقفة على رؤوس أصابعها. ناداه والده بكل ما في صوته من قوة، ثم تقدموا نحوه. ارتبك كأنه لا يعرفهم، لا لأن أخوته كبروا وتبدلت هيئاتهم بل لأنه نسي كيف يكون بينهم. هل يسرع أو يركض أو يلوّح بيده؟ لم ير أحداً من رفاقه في الحزب. ربّما لم يعرفوا بأنه خرج من المعتقل. هو نفسه لم يعلم. قبل ثلاثة أيام سرت شائعة عن اطلاق عدد كبير منهم. خافوا أن يكون الأمر كذبة. لم يعرفوا شيئاً لا عن أسماء المحرّرين ولا عن موعد إطلاقهم. حاول متري ألا يأمل كي لا تعذبه الخيبة كما في المرات السابقة. ماذا لو أخذوه إلى اسرائيل أو نقلوه إلى معتقل الخيام؟ كان نشر الاشاعات بين الأسرى أمراً يقوم به الحراس للنيل من معنوياتهم. هو لا يعرف سبباً للاستمرار في اعتقاله. لم يشارك لا في عملية ولا في نقل أي سلاح. حاربهم صحيح، لكنهم أطلقوا غيره. بعد الأشهر الأولى تحوّل من شخص ناشط في تنظيم حركات تمرّد في المخيّم إلى شخص آخر. كأنه صار خفياً. لم يعد لقبه «اللولب» نظراً لكثرة تحرّكه بل «الشبح». في المخيّم الألقاب تطغى على الأسماء الحقيقية. كثيرون لم يعرفوا اسمه الحقيقي. هو أيضاً لا يذكر أسماءهم بل ألقابهم. رأى أصنافاً وألواناً من الناس. عندما يتذكّر كيف كان أول أيامه في المخيّم يعلم أنه تبدّل وصار شخصاً آخر تماماً.

بينما هم في السيارة كانت أمه لا تزال تبكي. لم يجرؤ أي منهم أن يذكر

بصوت عال مقدار تبدل متري. أخوته يذكرونه أطول وأجمل لا شاحباً شبه أصلع. عينا أمه توقفتا عند الشيب وانحناءة الكتفين كأن هناك حدبة. عند السواد الداكن تحت عينيه. لكن أكثر ما أبكاها هي تلك الحركة الجديدة في وجهه. يظلّ يرمش عينيه. حركة تزداد تلقائياً ما إن يوجَّه إليه الكلام.

لم يتوقّع أن يرى هذا الدمار. صحيح أنه كان بعيداً في المخيّم لكن أخبار الخارج كانت تصلهم مع المعتقلين الجدد. كان هناك مجالس عزاء يقيمونها لمن سقط من شهداء أو أقارب لبعضهم. أما الأخبار الجيّدة فما كانوا يحتفلون بها إلا متأخرين. يخافون من انتقام الحراس.

إن علموا بمقتل عميل أو بنجاح عملية للمقاومة يتناقلون البشرى بسريّة تامة ويستثنون من تحوم حولهم شبهة الجواسيس.

الكلام لم يبدأ سريعاً. وضعت أمه فوق ركبتيه صينية فيها معمول بجوز. تأمّل متري السكر الناعم فوقها. ثم نظر إلى أظافره السوداء الطويلة. عندما دعته بصوتها المخنوق لأن يأكل، قال: «بعد أن انظف نفسي». أخبرته بعدها عن رفيقه علي وكيف أخفوه عندهم لأكثر من سنة. قالت إن عائلته تزورهم الآن دائماً. كما توسّط أقاربهم عند حركة أمل كي لا يحتل المهجرون بيت المروج، وليطلقوا ميخايل ابن خالته. قالت إن روبير سيأتي حالما يجد طريقة للوصول إلى الضيعة.

أراد أن يسأل عن زينب وعن رفاقه في الضيعة، لكنه خاف مما يمكن أن يسمعه.

عند حدود الضيعة، شعر بحزن. خفض رأسه ليخفي دموعاً ملأت عينيه. بعضهم لوّح لهم. وبعضهم هجم على السيارة ماداً رأسه من شباكها لتقبيله وللترحيب به. عماته وخالاته وجيرانهم وبطرس وحسيب كانوا يقفون على مصطبة بيتهم. ماري رشّت عليه بتلات ورد، النساء أطلقن زغردات فرح، فيما تجمهر آخرون لا يعرفهم أمام البيوت ليشاهدوا ما

يحدث، حين التفت متسائلاً جهة أمه. قالت إنها عائلات شيعية مهجرة من الشريط المحتل. سكنوا بيوت الذين خافوا ورحلوا إلى بيروت بعد معارك شرق صيدا.

بينما يُصَفّ الطعام فوق طاولات على المصطبة، دخل متري إلى الغرفة التي ينام فيها مع أخوته. جلس فوق السرير. تلمّس الشراشف متأملاً الشقوق التي حفظها في الجدار. أخته دخلت عليه برفقة شاب عرَّفته بأنه خطيبها.

لاحقاً كان يشدّ على الأيدي ويقبّل الناس ويشرب معهم الأنخاب، لكن جزءاً منه بقي بعيداً في مكان لا يطاله أحد. علم أنه يحتاج وقتاً ليتعلّم العيش من جديد. رفاقه نقلوا إليه أخبار من تزوَّج ومن هاجر ومن مات، وحين سأل عن ميشال لم يخبره أحد بأنه خُطف قبل معارك شرق صيدا بقليل.

أراد أن يسأل ماري عن زينب، لكن الناس لم يفسحوا له المجال. حتى الطعام صعب عليه ازدراده. أخفى ارتباكه بشرب العرق. شعر بدوار وغثيان شديد في معدته. كانت أمه أول من انتبه إلى انزعاجه. فجرّته من ذراعه كأنه عجوز وليس ابنها الشاب. جالساً فوق سريره مسحت وجهه بخرقة بللتها بماء الورد، سقته ماء زهر، فتحت الشباك فرأى التينة بأغصانها الثخينة. كان رأسه يدور والسيجارة تكمل اشتعالها بين أصابعه وتحرقه. تذكّر أنه البارحة في مثل هذا الوقت كان يتخيّل ما سيفعله وما سيحسّه وهو جالس بين أهله. لا يفهم لماذا لا يستطيع أن يفرح وأن يحتفل معهم. التعب أرخى جفنيه فغفا وغابت عنه الأنخاب التي ترفع والجيران الذين قدموا للتهنئة بعودته سليماً. حين فتح عينيه، ارتبك. لزمه وقت ليعرف أين هو. كان ممدداً في السرير والعتمة بدأت تغمر ما حوله. كيف أناموه وخلعوا حذاءه دون أن ينتبه. كانت الأصوات في الخارج لا تزال قوية.

سمع صوت علي. فكّر بمنذر رفيقه الذي نقلوه إلى سجن الخيام. ماذا سيقول لأهله حين يزورهم؟ سيخجله أن يكون حراً، وابنهم في سجن قد يكون أسوأ من أنصار. ليس منذر وحده من أوكله بزيارة أهله. هناك خمسة غيره كانوا الأقرب إليه في المعتقل. رسائل شفوية لزوجة شابة أو لابن لم يتجاوز العاشرة، لأم أو لأخ أو لمسؤول حزبي. أكدوا عليه مراراً كأن هذه الكلمات سترسم مصيرهم. كلمات بسيطة لا يعرف كيف ينقلها دون أن تدخله إلى هذه الظلمة الدائمة في قلبه. ها هو حرّ لكن لسبب لا يفهمه يظلّ يشعر أنه مأسور وحده في عمق زنزانة ضيقة وباردة. معرفته لاحقاً بزواج زينب ضاعفت إحساسه هذا.

لم تفهم عائلته إصراره بعد أقل من يومين على أخذ مفتاح بيت جده في المروج. ادّعى أنه سيبقى فيه ليحميه من المهجرين بانتظارعودة روبير. سأله والده إن كانوا أزعجوه في شيء. ردّت أديل على زوجها بلهجة عاتبة طالبة منه أن يَدَع متري يرتاح حيث يحلو له. ثم سألته بحذر إن كان يمانع زياراتهم له. آلمها ألا تراه كل لحظة، لكن ذلك سيبعده ولو موقتاً عن معرفة أخبار من مات من معارفه ومن قُتل ومن خُطف. تمنّت أن تستردّ ابنها كما كان.

أرادت أن تحمّله أطعمة أمضت وقتاً لتحضرها له. لم يقبل. لم يركب السيارة قال إنه يحتاج لأن يمشي ويشمّ هواء نظيفاً.لم يجد حذاءه القديم لينتعله، عندما سأل عن موضعه، قالت أخته: «ألم تجد الجديد؟ القديم رميناه.»

نبش برميل الزبالة، نفض قشور البطاطا العالقة به. سألته أمه إن كان الحذاء الجديد لا يعجبه. لم يردّ. انهمك في مسح الجلد المتفسّخ. أخفت أمه دموعها. قلبها مكسور. تشعر أنها لم تستردّ ابنها حقاً ماذا فعلوا به ليتحوّل هكذا. لم يلحظ الثياب الجديدة التي علّقوها عند مسكة الباب.

قال أخوه الياس: «ألم يعجبك ذوقي؟ اخلع عنك هذا البنطلون، وتلك القميص بطلت موضتها منذ زمن». غالباً ما لا يردّ على الكلام مكتفياً برسم ابتسامة باهتة. حين يهمس أخوته مدارين ألا يسمع: «ما به؟» تسكتهم أمهم أديل بنظرة تقدح غضباً.

تجنّب السير في الضيعة كي لا يلتقي أحداً. مشى عبر دروب تمتد وسط الحقول نزولاً. كان الصدى يحمل إليه مزيجاً من أصوات الراديو وغناء الفلاحين في حقولهم، سمع خوار أبقار ترعى في الشمس. نظر إلى السماء وقدّر أن الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحاً. لا زال يعتمد على تقديره لتحديد الوقت لم يعتد بعد النظر إلى ساعته.

عندما دخل البيت، كان الغبار سميكاً فوق الأثاث وخيوط العناكب متدلية من السقوف، رأى عقارب تركض حرة في الغرف. كُتُب أولاد خاله مرصوفة فوق الدرسوار، مسبحة صلاة معلّقة فوق صورة خاله أنطوان، لم يلحظها سابقاً. الماء نزل عكراً بلون التراب من الحنفية.

انهمك طوال اليوم في تنظيف الغرف ونفض الغبار. رمى جرة من الزيتون غزاها الدود. تفقّد ما تبقى من مونة، لم يجد إلا صابوناً وخلاً وغالون عرق، لا بدّ أنه قديم. فمن سيقطّر عرقاً بعد وفاة جده؟ رأى في الخزائن ملابس لجده وجدته. طوى ثيابه ووضعها في الجوارير. ثم قلى أربع بيضات وجلس فوق المصطبة متأملاً الحاكورة التي ارتفعت فيها الأعشاب مغطية جذوع شجرات الجوز والسفرجل والتفاح. سكب كأس عرق، وعندما سمع هدير سيارة قادمة لم يفكّر أنهم زوّار آتون إليه. لا أحد باستثناء أهله يعلم بوجوده هنا. عندما اقتربت الخطوات منه نهض ونظر إلى الدرب فرأى «أبو صقر» برفقة ثلاثة. لو لم يروه لكان تسلل إلى الحقول. غضب من أهله الذين دَلّوهم على مكانه.

رغم العناق والترحيب الحار والكلام عن النضال والبطولات

وتضحيات الرفاق، لم يرتح متري لوجودهم. ظلّ معتكفاً بصمته ما استطاع، علّ الزيارة تنتهي. عدا المرافقَيْن اللذين بقيا بعيدين عرّفه أبو صقر بالشاب المرافق له على أنه المسؤول السياسي للحزب في الجنوب. لم يهتم لاسمه ولم يحفظه. شكله لم يكن غريباً عليه تماماً. بدا أصغر منه بسنوات. استغرب متري أن تُسند هذه المهمّة لشخص في أول شبابه. حرارة «أبو صقر» بدأت تفتر عندما جابهه متري برفض كل ما اقترحه: الاجتماع بالرفاق، المقابلة الصحافية ليخبر عن معاناته في سجن أنصار، حضور الاحتفال الذي سيقام على شرفه وعلى شرف الرفاق المحرّرين. الشاب المسؤول حاول أن يستلم دفة الكلام بعد فشل «أبو صقر» محاولاً اقناعه. تحدّث عن الحالة النفسية التي يمرّ بها كل أسير محرّر، وعن فخر الحزب بأسراه وبشهدائه وعدم نسيانهم كما يظنّ البعض. تحدّث عن لجنة تهتم بشؤونهم للحصول على تعويضات والعمل على استعادة وظائفهم السابقة. عندما ذكر موضوع الوظيفة فزع متري من امكانية فقدانها، ظنّ العودة إليها أمراً مبتوتاً به. لم يكن لا مجرماً مداناً بجريمة ولا خارجاً على القانون. فكّر أن ما يقوله ليس صحيحاً. يقول ذلك لاستدراجه. تلكّأ في تحضير القهوة، أراد أن يطرد تأثير ما سمعه عليه. بينما يشربون القهوة لم يخفِ متري لا شروده ولا استخفافه بما يقال. لكنه يعرف، لن يدعوه لشأنه بسهولة. سيجرّبون مرّات ومرّات قبل أن يكتشفوا لا جدوى ذلك.

وحدة متري في البيت لم تطل. لم يلبث الأقارب والأهل أن اقتحموا عليه عزلته بحجة حمل الطعام أو الاطمئنان عليه. كانوا يجدونه مرتدياً ثياباً قديمة لجده ومنتعلاً جزمة كاوتشوك، ينكش ويقتلع أعشاباً ضارة، يشحّل العرائش ويسندها بعد انهيار سقالاتها. كان العمل والتعب إلى حد الارهاق طريقته ليفرغ رأسه وقلبه وينام لأكثر من ثماني ساعات دون حلم ولا كابوس.

- 60 -

عندما عاد روبير وكاميليا إلى المروج كانت أرض المرج خضراء. متري الذي اتخذ من بيت جديه مسكنه الدائم فرح بعودتهما. مع مرور الوقت استقرّ في الجزء الشمالي، حيث كان ينزل خاله انطوان. يقضي معظم يومه في الحقل. عند كتف الجلّ أو تحت شجرة ما، يضع ابريق ماء وراديو وعلى رأسه قبعة كان يلبسها جده. حين يأتي أحد لرؤيته لا يتوقّف عن العمل، لذلك يقصدونه في الحقل مقرفصين في بقعة ظلّ. لا أحد يدري إن كان يسمع ما يقال له بما أنه يكتفي بإشارات رداً على الأسئلة أو بالصمت. حين يذكره أهله بالأوراق التي يجب أن يتابعها بنفسه ليستأنف عمله في التدريس، يردّ: «أكيد سأفعل». جواب يعلمون أنه غير صادق. لذلك فوجئوا بمعاودته التدريس بعد شهور. أملوا بأن يعود إلى طبيعته التي يعرفونها وإلى بيته. لكن ذلك لم يتحقّق. كانت أمه تبكي وتسأل كاميليا وروبير: «هل أسأنا إليه؟ هل قال لكما لماذا هو يعادينا هكذا؟». ما كانا يجدان ما يقولانه. هو يعيش معهما ويجلسون معاً كل ليلة ويعملون في الحقل جنباً إلى جنب، لكنه لا يشركهما في أفكاره أو مخططاته. حتى أنهما يجهلان كيف تمكّن من الاتفاق مع تاجر يمرّ كل يومين ليحمّل الخضار والفاكهة المقطوفة. رغم قلة المردود، كانت تلك النقود هي وسيلتهم لتأمين الأكلاف التي تنتظرهما.

تسجّلت كاميليا في ثانوية البلدة المجاورة. أما روبير فتعب لايجاد عمل. المشكلة أنه بدا يافعاً. وخارج الدير يكاد لا يعرف أحداً. تردّدت الأخت أنجيل قبل أن توكل إليه تعليم الرياضيات في الصفوف الابتدائية. لولا تهجّر معظم أساتذتها لما وظفت شاباً. التلميذات سيوجعن رأسها

بملاحقته. في الجامعة اللبنانية لم يجد اختصاصاً يناسبه. احتار حتى قرّ رأيه على الحقوق. أراد في الوقت نفسه أن يتسجّل في اليسوعية في إدارة الأعمال. لكنّ راتبه لن يكفيهم للعيش ولدفع الأقساط. جاء الحلّ صدفة، عندما التقى الأب سليم. وعده بأن يكلّم المطران ليُعْطى قرضاً يُخْسَم من راتبه على سنوات. كان الشرط أن يعمل في دوام نصفي في المهنية التابعة للمطرانية. أجره فيها سيحسم من قرضه التعليمي. لم يدر كيف يحضر صفوفه وهو يعمل في وظيفتين. كان لديه مشكلة التنقل بين أماكن عديدة في وقت محدود.

بالمبلغ الذي أرسلته أمه على مدى سنوات استطاع أن يشتري سيارة بيجو قديمة، لا تستهلك الكثير من البنزين. عمل على اصلاح أعطالها مع زوج عمته برناديت الذي قام أيضاً بتعليمه القيادة قبل بدء العام الدراسي.

كان قلقاً، يخشى أن يفشل في التوفيق بين وظيفتيه وجامعته. ما إن يشعر بضغط حتى يتخيّل انقضاء السنوات الثلاث وتخرّجه من اليسوعية فيخف الثقل. لم يصارح لا كاميليا ولا متري بهواجسه. كان التخطيط هو وسيلته للراحة. يرسم يومه بدقة ويوزّع المال على التكاليف، فيهدأ. تمنى أن تسرع الأيام ليبدأ بعمله ويرتاح من القلق.

أيام الصحو كانت كاميليا تذهب مشياً إلى الثانوية التي تبعد ثلاثة أرباع الساعة. في المطر يوصلها روبير في طريقه. يكون الوقت باكراً والبوابة مقفلة فتحتمي من المطر والريح أمام الحسينية. تفتح كتابها وتراجع درساً بانتظار أن يأتي البواب ويفتح البوابة.

اكتشفت من اليوم الأول في المدرسة سهولة الدروس بالنسبة إليها. معظم تلاميذ صفها لا يجدون وقتاً لكتابة الفروض أو مراجعة الدروس، إذ بعد المدرسة يساعدون أهلهم في أعمالهم. أحياناً تمرّ في طريق العودة بعمتها برناديت، تلعب مع جاين أو تدرِّسها. تحمِّلها عمتها طعاماً،

لكنها عموماً هي من يحضّر الطعام يومياً. روبير يحمل زوادة تعدها له. سندويشات هندبه مقلية أو خبيزة أو زعتر. ليلاً فقط يجتمعون للطعام ثلاثتهم. رغم تأخر الوقت وتعب روبير حافظوا على هذا التقليد. تستخدم المونة التي حضروها: الباميا والفاصوليا والملوخية تطبخها دون لحم. مرة في الأسبوع يأكلون دجاجاً أو لحماً يحضره متري.

اكتشف روبير أن لا حاجة ليذهب إلى صفوفه في الجامعة اللبنانية. بامكانه الحصول على المحاضرات المطبوعة، في اليسوعية تعرّف على شاب اسمه وديع يكبره بثلاث سنوات. يعمل قبل الظهر في محل لبيع البزورات. قال إنه يعيد سنته الأولى. كان يأخذ منه المحاضرات التي يغيب عنها بسبب عمله. بالمقابل كان يعيره ملخّصات الدروس والكتب التي قرأها. هذا النظام الدقيق الذي سيّر أيامه طمأنه. إلى حين صارت السيارة تخذله. ظنّ أن أعطالاً بدأت تصيبها. كان يتركها مركونة ويركب سيارة أجرة، حتى اكتشف أن السبب لا علاقة له بالأعطال. كانوا يسحبون البنزين من خزانها أثناء توقفها. لم يعصَ على السارقين، رغم القفل على الخزان ابتكار طرق لشفط البنزين الذي كان يزداد غلاء. حتى صار لا يضع فيها إلا القليل من البنزين.

لم يكن لديه أي فراغ. العطل هي للدرس. أما تصحيح الامتحانات فترك كاميليا تساعده فيه. الغلاء المتزايد أفقد راتبه القليل قيمته. امتنع متري عن تدخين السجائر المستوردة وصار يدخن سجائر وطنية. زال تقليد أكل الدجاج واللحم مرة في الأسبوع. تدبروا أمرهم بما يجدونه في الحقل. ما عادوا يشعلون الوجاق توفيراً لثمن المازوت. استخدموا موقدة الحطب بدلاً من الغاز. حين تبلى قبة قميص تستبدلها كاميليا بقبة أخرى لقميص قديم تجده في الخزانة. من راتب متري لا يبقى إلا ما يدفع به ثمناً لسجائره. يعطي والده معظمه. فقد والده عمله في عزّ الأزمة. قيمة صرف

الدولار ترتفع كل يوم والناس يشترون بليراتهم ما يحتاجونه من أغراض قبل أن يرتفع مجدداً.

صار روبير في طريقه إلى صيدا يأخذ ركاباً يدفعون نصف أجرة. حتى الأحذية المستعملة غالية بالنسبة إليهم. استغنوا عن الحلاق وتعلّمت كاميليا أن تقص شعرها وشعر أخيها ومتري. عمتها برناديت والكثير من الأهالي عجزوا عن دفع أقساط المدرسة الخاصّة، هدد المدير بعدم إعطائهم افادات في آخر السنة إن لم يسدّدوا ما عليهم. كلما وجدوا حلاً لتوفير مال واجهتهم مشكلة أخرى. لذلك حين التهب ضرس كاميليا، أحسّوا جميعاً أنهم بمواجهة مصيبة. غلوا لها الخبيزة لتتغرغر بها، وضعت فوق الضرس قطناً مغمّساً بالعرق. تغرغرت بالماء والملح. وضعت فوق ضرسها حبة اسبرين تلو الأخرى. لم ينفع شيء في تخفيف الالتهاب.

اضطرّ متري رغم تجنبه رفاقه القدامى إلى أن يطلب من رفيق قديم له يعمل في النجدة الشعبية بأن يعالجها. ماذا يفعل؟ أيتركها تتألم ليلة بعد أخرى؟

زادت أعداد الغرباء الذين يأتون إلى المروج لجمع البزاق أو لقطف نباتات برية سبقتهم كاميليا وجيرانهم إلى قطفها. حتى العيدان والقضبان اليابسة تُجمع. لم تتحسّن الأمور، بل زادت صعوبة مع الوقت. الثياب بليت وما عادت تنفع مهارة كاميليا في رتوها. المونة نفذت بدورها والشتاء البارد لا ينتهي في الجبال. حين وصلتهم رسالة من أمهم بعد انقطاع لأكثر من عشرة أشهر تأملوا أن يجدوا فيها بعض المال. لكنها لم تحمل إلا أخباراً غير سارة عن موت جدتهم وتدهور صحة جدهم من جراء الحزن، كما قالت بأنها وزوجها يعتمدان الآن على إعانة البطالة بعد أن فقد عمله منذ أشهر.

كانت كاميليا تشعر أن الجوع وقلة المال أمر تتقاسمه وكل الناس حولها،

وحده روبير كان يحسّ بالفارق بينه وبين الطلاب في الجامعة اليسوعية. ليس في لباسهم فقط بل في السيارات التي يقودونها، والكافيتيريا التي يصرفون فيها أموالهم دون حساب. اعتاد أن يتعامى فلا يرى نظراتهم المستغربة لملابسه القديمة ولهيئته المختلفة.

في المدرسة كان محبوباً من تلميذاته الصغيرات. المديرة وعدته بأن ترفع راتبه ثلاثمئة ليرة في السنة المقبلة. لكن أي قيمة للزيادة إذا استمرّ الدولار في ارتفاعه؟ كان يسمع الأساتذة طوال الوقت يتحسّرون على السنوات الماضية وكيف كانت رواتبهم تتعدى الخمسمئة دولار أما الآن فقيمة الراتب الكبير توازي عشرين دولاراً.

منذ أتى متري ببضع دجاجات وهم يأكلون بيضاً من حين لآخر. عاونته كاميليا في بناء قن لها. جاين عادت صغيرة عندما رأت الصيصان الصفراء تركض في الجل. حملت أحدها وراحت تداعب وبره الأصفر وتكلّمه. ثم أطلقت عليها أسماء وسَهُلَ عليها أن تميّز أحدها عن الآخر.

- 61 -

شقّ على روبير أن يرى أخته تعمل هكذا وهي لا تزال صغيرة. كأنها أكبر منه. تلبس ثياباً كانت لعماتها أو مستعملة. لا يستطيع سوى أن يقارنها بالفتيات اللواتي يراهن في المدرسة أو الجامعة. عندما يشتري لها شيئاً ليفرحها، تزعل كعادتها مذكرة إياه بمقدار تعبه. زاد خوفها عليه بعد تكرر الاشتباكات بين أمل وحزب الله. وعدها ألا يخاطر بالمجيء إن عرف في الوصول إلى المروج مخاطرة. ظلّت تلحّ حتى أقسم لها بأن يبقى في صيدا حتى لو اضطرّ إلى النوم في السيّارة. كي يمنع الحزن عنه يقول إن كل

ذلك موقّت. عندما تدخل الجامعة سيكون قد أنهى دراسته في اليسوعية وسيتوظّف ويجعلها ملكة لا فتاة منصرفة إلى النكش والرتو والعجن. عليه أن يصبر. مضى الكثير وهو على مسافة قصيرة من التخرّج. أخته جاين أيضاً كبرت. لكنها تتصرّف كأنها قريبة لهما لا أختهما. كيف يلومها؟ هناك امرأة لا ترى إلا صورتها وتعرف أنها أمها. تحكي فقط عن جدتها فيستغرب التفاصيل التي لا تزال تذكرها. أمها الآن هي عمته برناديت. ما يزعجه أنها تخجل منه. يخفي اضطرابه عندما تحمرّ بينما يضمها أو يسألها عن دراستها. كأنه غريب.

رسائل أمه تباعدت، ومنذ باتت ترسلها إلى دير الراهبات، انتبه إلى النظرة في عينيّ كاميليا. كره أن يكون من يخيّبها. كان يفضّل أن تصل إليهم الرسائل كالسابق عبر آخرين. طلبت أمه أن يتصوّروا ثلاثتهم. أرادت أن ترى كيف كبروا. استعار متري كاميرا. وقفوا على المصطبة متجاورين لترى كم طالت قامتهم. فكّت كاميليا شعرها المعقود. استعارت حذاء عمتها برناديت واستعار روبير قميص متري. أخذ لهم صورة أخرى جالسين على الافريز الحجر قبالة المرج. في الصورة بانت الدجاجات وهي تنقر التراب أمام أقدامهم. قرّ رأيهم على الصورة التي كانوا فيها واقفين. الظلّ غيّب وجه كاميليا في الصورة الثانية. رغم ذلك صنعوا لها إطاراً وغلفوه بنايلون شفاف ووضعوه فوق الدرسوار.

دائماً تعد أمهم بزيارة لبنان لرؤيتهم، لكن أموراً تحصل عندها أو عندهم فلا تجيء. موت جديه. ومرض خاله في كندا. أقعده العلاج الصعب عن العمل بانتظام فزادت خسائر الكاراج وكثرة خلافاته مع زوجته. حاولت أمه أن تستحصل على رخصة لتفتح حضانة في بيتها تضم عشرة أطفال. بعد الكشف رفضوا إعطاءها الرخصة بحجة أن البيت غير ملائم وغير آمن تماماً. الاصلاحات التي اشترطوها تكلّفها غالياً لذلك استغنت عن الفكرة

وبحثت عن أي عمل. لم تهتم إن كان ليليا. عملتَ نادلة في مطعم، مرافقة لعجوز مريض، ومروّجة لأدوات كهربائية عبر الهاتف. لكنها كلها كانت أعمالاً لم تستمرّ فيها إلا لشهر أو أقلّ. مؤخراً باتت تكرّر في كل رسائلها بأن ينتظروا قريباً زيارتها، وإنهم اذا كانوا يعيشون في أوضاع غير مستقرة فلم لا تزورهم هي؟

صدّقوا وعودها وخطّطوا أين ستنام. قال متري إنه سيخلي لها الغرفة التي ينام فيها لأنها معتادة عليها. رغم فتوره الدائم جرّته حماستهم.

لم ينس روبير أبداً ما قالته له في ذلك اليوم البعيد الماطر. فكّر أنها ستفخر لتخرّجه من اليسوعية مثل أبيه، وكاميليا ستكون قد أنهت دراستها السنوية. سترى أنه اعتنى بأختيه.

بينما يقترب الصيف، ورغم انشغالهما بامتحاناتهما النهائية، لم يهملا تحضير البيت. حتى متري تكلّم عن دهن الجدران. وراحت كاميليا كلما وجدت فراغاً تنبش الخزائن والجوارير لتوضيبها وتلميع خشبها القديم. انتقلت العدوى تدريجياً إلى جاين فحضّرت هدية لأمها أبقتها سرية كي لا تفسد المفاجأة. القذائف التي كانت تنهمر على الغربية من جهة الشرقية لم تقلقهم هذه المرة. حتى عندما هرب الناس من بيروت باتجاه الجبل والجنوب خوفاً من قذائف جيش عون لم يتزحزح إيمانهم بقدومها.

ما جعلهم يتيقنون من مجيئها أنها هذه المرة كتبت ثلاث رسائل متتالية لا يفصل الواحدة عن الأخرى أكثر من شهرين، وفي كل واحدة تصف كيف تتخيّل لقاءها بهم. كما إن عماتهم تحدثن عن الموضوع كأنه سيحصل حتماً. أعارتهم عمتهم برناديت شراشف للسرير وعمتهم أديل أعطتهم أوعية للمطبخ وصابوناً عطراً. متري القليل الكلام أخبر زواره عن مجيئها. اختاروا دجاجة كبيرة لا تبيض كي تذبح وتحشى في أول يوم تصل فيه. امتنعوا عن أكل البيض وراحوا يجمعونه في البراد.

البحث عن عمل لم يبد بالسهولة التي تخيّلها روبير. الطلبات التي قدّمها للعمل في المصارف، لم تؤد إلى شيء. حاول أن يجد وظيفة في شركات ومؤسسات. حين فشل بحث عن عمل إداري في المدارس وفي جامعته. النتيجة نفسها، إما ليس هناك وظيفة شاغرة، أو يتحججون بأنه لا يمتلك أي خبرة.

في مهنية المطرانية تعذّر جعله أستاذاًمتفرّغاً بدوام كامل. المديرة أنجيل حافظت على وعدها بأن تزيد راتبه إن تعاقدت معه. لكن ذلك لن يغيّر وضعهم. قيمة ما سيتقاضاه أقلّ على حساب الدولار مما كان يحصّله في السنة الماضية. كيف يسجّل كاميليا في اليسوعية؟

كان يخرج من تلك المقابلات مهزوماً. من جاكيت متري تفوح رائحة عرق قوية. يصعب تحملها في مثل هذا الحر، لكن متري نصحه بارتدائها ليبدو جدياً وكبيراً. حين ينظر إلى نفسه في المرآة ينتبه إلى قصر أكمامها وإلى لونها الكالح واهتراء القبة والأكمام. عبثاً تهوّئها كاميليا، لا تزول منها رائحة السنين. عندما يجلس في السيارة يلزمه وقت ليعود إلى الواقع فيفتح النافذة بحثاً عن نسمة تبرّده. كأن فيه شيئاً تعطّل ليغفل عن حركات يؤديها عادة دون تفكير كوضع المفتاح لتشغيل السيارة. لا شيء يحصل كما تخيّله. عندما تسأله كاميليا عن سبب شروده لا يخبرها، يتركها تحزر وحدها. تقول إنها ستدرس في اللبنانية وستسجل أدب فرنسي. أخبرته عن المكافآت المالية التي تعطى لمن ينال فوق الثمانين علامة على المادة. لا يسألها من أين أتت بهذه المعلومات. يفكّر أنها تؤلّفها. كان لديها وسائل دائماً لتخفّف عنه. تبسّط الأمور كأنهم لا يواجهون لا الفقر ولا خطر

التهجير من مأواهم الوحيد. رغم اشتباكات أمل وحزب الله والقذائف التي تسقط في الضيعة لا يفكرون بترك البيت. أين يذهبون وبيوت أقاربهم أكثر تعرضاً للخطر؟ تحكي عن زيادة محصول الحمص لتيبيسه أو طحنه وكيف أن بامكانها أن تعدّ منه في الشتاء الكثير من الأطعمة المشبعة. كأنهم يملكون أراضي شاسعة لا حديقة صغيرة مؤلفة من بضعة جلول ومساكب. تظلّ تحكي متنقلة في حلولها الخيالية حتى ترى روبير يعود للابتسام. متري أيضاً يحاول بطرقه الغريبة تبسيط الأمور، يذكّره بالأمور الايجابية التي تحققّت دون أن يسأله عن مجرى المقابلات.

كان وجود متري بينهما مطمئناً، لذلك حين غاب لأيام اضطرب نومهما فاستيقظا قبل طلوع الضوء. مساء نظرا إلى مكان جلوسه الفارغ. تمنيا أن يتعافى والده سريعاً من عملية بتر اصبعيه. لم يبلّغه أحد بداية عن والده كأنه بطريقة ما لا يزال معتقلاً بالنسبة لهم. لا يعرف إلا متأخراً أخبارهم. الأمر لا يزعجه. ما يزعجه هو ترداد أمه بأنه يتقدّم في السن دون أن يفكّر بالزواج. تسأله إن كان ينتظر أن يصبح عجوزاً لينجب أولاداً؟ أو تسأله عما يفعله دافناً نفسه في المروج؟ عندما تعجز عن سماع أي ردّ منه تبكي علّها بذلك تستدرج منه أي ردّ فعل. لكن ذلك لا ينجح. قلبه لا يرقّ أيضاً عندما تقول إنها ليست خالدة وتريد رؤية أولاده قبل أن تموت. يردّ حينها بأن عليها الابتعاد عن الأحلام المستحيلة. اعتادا هما أيضاً على كتمان كل ما يتعلّق بمتري. عندما تسألهما عمتهما أديل سراً إن كان هناك فتاة ما تزوره أو يحكي عنها أمامهما، لا يخبرانها لا عن ماري ولا عن زميلة له تزورانه من حين لآخر. هناك رفيق له اسمه قاسم يزوره. ما إن يصل حتى يخلع حذاءه ويغوص مثلهما في وحول الجل أو يقلع معهم الأعشاب. شتاء يحمل معه قناني شراب التوت يقول إن أمه تعدّ الكثير منها لأن لا شيء ينبت في أرضهم إلا التوت البري والعليق. طوال مكوثه يظلّ يشرب من

التوت الذي جلبه وقبل أن يرحل ينظر إلى القنينة ويقول: أتيتكم به ولم أترك من الشراب شيئاً.

أراد روبير أن يحصل على وظيفة قبل أن تأتي أمه. لكنه لا يعرف من يتوسّط له ليوظّف في مصرف. لو كان على اتصال بالريس لكان ساعده. لكن كيف الاتصال به والدير في المنطقة التي يسيطر عليها جيش لحد؟ كثيراً ما فكّر بالرهبان وبرفاقه في السنوات الماضية. بعضهم لم يغادر الدير. استمرّوا كمن سبقهم في الاشراف على المشغل وتعليم تلاميذ القسم المهني. يرى في أحلامه أنه يسير حافياً في ممرات الدير الباردة المغطاة بالجليد وحين يحاول أن يتقدّم تعلق قدماه كأن الجليد ألصقهما بالأرض.

- 63 -

مرّ الصيف. الغيوم البيضاء ملأت السماء. بردت النسائم ويبس الزرع في المرج. لم يبق إلا شتول بندورة بدأ اليباس يقضم أوراقها. عاد متري إلى مدرسته وروبير تفرّغ دون حماس ليعمل في محاسبة مطرانية الدير. مكثت كاميليا وحدها في المروج. الدروس لا تبدأ فعلاً في الجامعة اللبنانية قبل أواخر تشرين الثاني. لم تستطع أن ترسم صورة لما ينتظرها. فلم تعرف كيف تتخيّل الجامعة. أحياناً تكون مزيجاً من الدير والثانوية لكن دون امتحانات ونظّار. وأحياناً تتحوّل إلى مكان مخيف، حيث الناس لا يشبهونها في شيء.

حين غاب الصيف ضاع معه أملهم بمجيء والدتهم. إلى أن جاءت عمتهم تحمل لهم رسالة وصلت مع مسافر. هذه المرة حدّدت أمهم موعداً لقدومها. قالت إنها ستأتي عبر مطار بيروت، لا بحراً عن طريق جونيه لأنها

سمعت عن خطورة المعارك داخل المنطقة الشرقية.

هذا الخبر أنساهم كيف أنهم بعد الأيام العشرة الأولى يفلسون ويضطرّون إلى الاكتفاء بطعام قليل يعتمد على الخبز والحساء. الحساء يعطيهم احساساً زائفاً بالشبع إلى أن توقظهم آلام معدهم وبطونهم ليلاً. حاول روبير أن يجد عملاً اضافياً دون جدوى. أخفت كاميليا عنه عزمها في البحث عن عمل في أول مرة تذهب فيها إلى صيدا. مدينة كبيرة ستجد فيها شيئاً، حولهم لا شيء سوى قرى فقيرة. غير المدارس القليلة لا شيء. ستقبل بأي عمل. الناس لا يتوقفون عن قص شعرهم. ستقصد صالونات الحلاقة، تقبل بأي شيء. تغسل شعر الزبائن، تنظّف. تكتفي بالبقشيش إن لم يعطوها راتباً. ربما حالفها الحظ في إحدى المدارس. متري فشل في أن يجد لها عملاً في المدارس القريبة. قال إنهم يسرّحون المتعاقدين ويزيدون ساعات تعليم المتفرغين دون أن يدفعوا لهم بدلاً عن الساعات الاضافية.

مساء حين يجتمعون كان حديثهم كله عن زيارة أمهم. التخطيط لاستقبالها أنساهم حقاً كل شيء. عادت كاميليا إلى التنظيف والتوضيب. أغراض قليلة لأمها لم تمسها يوماً أبقتها كما تركتها منذ أعوام: شال صوف، قفازات من الدانتيلا وحقيبة صغيرة جداً لماعة. ما تفعله هو استبدال عيدان الخزامى اليابسة بأخرى خوفاً من العث.

كان الزوار والأقارب يردّدون أمامهم بأن أمهم آتية بلا شك لتأخذهم معها إلى كندا. لديها الجنسية الكندية ومن حقها أن تصطحبهم معها. صار روبير يحكي عن سهولة إيجاد وظيفة في كندا وكيف أن كاميليا ستتخصّص في الفرع الذي يحلو لها. حتى جاين صارت تسأل عن كندا وكيف هي وهل فيها لبنانيون ومن هم أقاربهم هناك. أسئلة كانت تقلق عمتهم برناديت فتخفي دموعها وتنهض مبتعدة إلى المرج. قال متري إنه

هو من سيصطحب أمهم من المطار. استعلم وعرف أن الطائرة الوحيدة من كندا في ذلك اليوم تصل عند الخامسة صباحاً. سيستعير سيارة أخيه. روبير سيستأذن للسماح له بمغادرة عمله أبكر من المعتاد وجاين لن تذهب إلى المدرسة. حتى أنها اقترحت أن تتغيب عن مدرستها منذ الآن بما أنها ستسجل في كندا. كانت كاميليا الوحيدة التي امتنعت عن الكلام. دائماً تخشى أن تفسد الأشياء متى ذكرتها. كأن هناك دائماً لعنة خفية. أعطتها عمتها ثوباً كان في جهاز عرسها ضاق عليها بعد الزواج. ثوب عالي الخصر رمادي عليه دوائر صفراء. رغم أنه واسع عند الخصر والأكتاف فضّلته على ثيابها القديمة.

هكذا تركوهم وحدهم في 25 تشرين الثاني ليستقبلوا أمهم. عندما استيقظ متري عند الثالثة وجدهم ثلاثتهم فوق الافريز متلاصقين بطانية صوف تغمرهم. ينظرون إلى الطريق كأن أمهم قادمة الآن.

تململوا عندما رأوه يتأنى في حلاقة ذقنه. كأنه يؤخر وصولها. ما إن ركب متري السيارة حتى قامت كاميليا لتتفقد ما حضّرته في البراد. أخرجت الدجاجة من الثلاجة. ورغم العتمة قطفت ما بقي من أوراق البقدونس والنعناع.

كان الانتظار أصعب ما واجههم. لم تستطع أن تبقى لا جاين ولا كاميليا داخل المطبخ أكثر من دقائق. عندما هدرت سيارة في البعيد، أحسّت كاميليا بأن قدميها لن تحملاها الى الخارج. سبقتها جاين ثم قالت بخيبة إنه روبير. الساعات مرّت بطيئة ومتري لم يعد. قال روبير إن الطائرات تتأخر. أرادت كاميليا أن تحشي الدجاجة. لم تستطع. عادت إلى الخارج. الريح الباردة لم تدفعهم إلى الداخل. عندما بانت سيارة متري. أمسكوا أيدي بعضهم البعض بقوة حابسين أنفاسهم. تداعوا بثقل فوق الافريز عندما رأوه يترجل وحيداً. تجنّب النظر إلى وجوههم حين قال بأن طائرة

كندا وصلت وأنه تأكد أن اسم أمهم لم يكن بين الركاب.

لم يتزحزحوا من مكانهم رغم هطول الأمطار. ربما هناك طائرة أخرى. متري ليس خبيراً بالطائرات. لم يستطع أن يقنعهم بالدخول أو الأكل. حين حلّ الليل لم يخلعوا ثيابهم مخافة أن تصل وتراهم في ثياب قديمة. جلسوا في غرفة الشتاء على كنبة واحدة. غفت جاين متكئة على كتف كاميليا. روبير أيضاً غفا سانداً رأسه بيده. سمعت كاميليا صوت سيارة متري تبتعد إلى أن غاب الصوت تماماً. حدقت في ضوء اللمبة، إلى أن آلمتها عيناها. تقوقعت جاين طاوية ركبتيها. روبير طرد بيده شيئاً يراه في حلمه. البرد جعله يشدّ على قبضتيه. هي أيضاً أحسّت بالنسمات الباردة. أرادت أن تغمض عينيها وتنام مثلهما، لكنها لم تستطع. استغربت عدد السيارات الكبير الذي يمرّ ليلاً. كلها أصوات بعيدة. لم تقترب أي واحدة من حدود المروج. تسلّلت على مهل كي لا توقظهما. فتحت الجارور. سحبت شال أمها الصوف. رائحة الخزامى فاحت منه. غطّت به جذع جاين. انتبهت إلى شيء يقع من بين طياته. ظرف أصفر. وجدت فيه رسالة لم ترها سابقاً. فضّت الورقة الصفراء المتآكلة أطرافها.

«أختي الحبيبة كارلا

لن تدري كم كان صعباً علينا أن نكون هنا ولا نقف بقربك. لكن تعلمين صعوبة السفر في وقت نعمل فيه على تسوية أوضاعنا بشكل قانوني. الكل، أهلي وأخي وخالي وعائلته لا يدرون كيف ينامون أو يستيقظون. قلبنا معكم هناك. أنطوان كان أخاً لي وابناً لأبي وأمي.

أقمنا جنازاً حضره الكثيرون ممن نعرف وممن لا نعرف. وقعت المصيبة على رأسنا فما عاد لنا رغبة في شيء. نخشى عليكم ولا نعلم بماذا تفكّرين. لكننا نرى جميعاً أن عيشكم في كندا أفضل من البقاء في الخطر خصوصاً بعد ما حصل. إن أتيت وحدك سيعطونك فيزا بسهولة أكبر. حالما تسوّين

أوضاعك في شهرين أو ثلاثة على الأكثر ترسلين في طلبهم. نعلم أنه ليس حلاً مثالياً وأنك قد ترفضين. لكن السفر برفقة الأولاد من البداية قد يفوّت فرصة على الجميع في الدخول إلى الأراضي الكندية. سيصلك مرفقاً بهذه الرسالة مبلغ بسيط من المال.

أفضال أنطوان لا تعدّ ومهما فعلنا لا يمكن أن نفيه حقّه. رجاء أن تبلّغي تعازينا الحارّة وألمنا لأم أنطوان ولأبيه. الصور التي نراها على التلفزيون تبقي أهلي في حالة رعب وقلق، وتطلّب ذلك منّا جهداً كبيراً لمنعهما من السفر إلى بيروت. العمل هنا بدأ يثمر لكن يلزمنا وقت لنتمكّن من جذب زبائن دائمين، ابي أيضاً يساعدنا. هذا أفضل من أن يبقى في البيت وتشغله الهواجس. سنجد لك عملاً هنا يناسبك. كندا ليست كلبنان. فيها فرص عمل كثيرة. المهم أن تأتي. في أسوأ الأحوال إن لم يعجبك الأمر تعودين إلى لبنان. بقي أن ننبهك إلى عدم الثقة بأحد. لا تسافري إلا عن طريق جونيه. مهما أكّد لك أحد أن الطريق آمنة. لا نريدك أن تجازفي.»

طوت كاميليا الورقة وأعادتها إلى الجارور. نزعت حذاء جاين وحذاء روبير على مهل. فتح روبير عينيه وابتسم ثم عاد للنوم ثانية. أطفأت النور. واندست بينهما. سوّت البطانية لتغمرهم جميعاً. رذاذ خفيف طرق زجاج النافذة. أغمضت عينيها وغفت.

صدر للمؤلّفة

1 - بورتريه للنسيان، المركز الثقافي العربي، 1994.

2 - شتاء مهجور، المركز الثقافي العربي، 1996.

3 - بيوت المساء، دار الجمل، 1997.

4 - البئر والسماء، المركز الثقافي العربي، 1997.

5 - العابر، المركز الثقافي العربي، 1999.

6 - بلاد الثلوج، المركز الثقافي العربي، 2001.

7 - بيروت 2002، المركز الثقافي العربي، 2003، طبعة ثانية 2007.

8 - أيام باريس، المركز الثقافي العربي، 2005.

9 - صلاة من أجل العائلة، المركز الثقافي العربي، 2007، طبعة ثانية 2009.

10 - حياة قصيرة، المركز الثقافي العربي، 2010.

رينيه الحايك

رسالة من كندا

من أمه وصلهم، على مدار السنوات الماضية، بضع مئات من الدولارات، كانت جدته تحتفظ بها. بعد موتها أودعها مع عمته أديل. قالت له إنه حين يبلغ الثامنة عشرة سيكون بإمكانه فتح حساب مصرفي. لم تعرف أمه بعد بوفاة جدته. في الصورة التي أرسلتها لهم، بدت مختلفة بابتسامتها المرتبكة وتموضعها الغريب لأخذ الصورة، كأنها لا تعرف ماذا تفعل بذراعيها. كتبت لهم عن زوجها الذي تسميه "عمكم". تسمية أغضبت كاميليا ودفعتها للقول "نحن لا عمّ لنا". لا يحسّ روبير بالغضب كأخته، يحاول، كلما قرأ الكلمات، أن يسترجع وجهاً لأمه يذكره جيداً. حتى الأخ الصغير، الذي تفرح أمه بارسال صورة له في كلّ مرة، يذكِّره بجاين.

الابتسامة المواربة نفسها عند طرف الفم والرموش السوداء الكثيفة والأنف الدقيق نفسه.

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar_altanweer.com

ISBN 978-9953-582-28-9
9 789953 582283

لوحة الغلاف: تومبلي